صفحات مطوية
من التاريخ

١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٣/١٠/٣٦٢٧)

٩٥٦,٠٨٨
اللوباني، عيسى إبراهيم
صفحات مطوية من التاريخ / عيسى إبـراهيم اللوبـاني_ عمـان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
(٢٩٢) ص
ر.أ: (٣٦٢٧ / ١٠/ ٢٠١٣).
الواصفات:/ الحكم العثماني لفلسطين٥١٧-٩١٨/ / تاريخ فلسطين/

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٧٧-١٨٦-٧ (ردمك)



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

صفحات مطوية من التاريخ

عيسى إبراهيم اللوباني



دار المأمون للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذه صفحات من التاريخ لاسيما تاريخنا العربي الإسلامي التي باتت شبه مجهولة لأجيال الشباب من أبناء أمتنا، صفحات سجلها كتّاب ومؤرخون في أزمان بعيد وأخرى قريبة، ولكن وبسبب ظروف أولئك الكتاب والمؤرخون فإن كتبهم وبكل ما فيها من تواريخ وأحداث هامة لم تعد متوفرة لكل قارئ ولأسباب كثيرة منها من توفي أصحابها ولم تجد من يعيد طباعتها وأخرى فُقدت من مكتبات الأسواق بسبب قِدَمْ تواريخ كتابتها، ولم تَعُدْ موجودة إلا في بعض المكتبات العامة والكبيرة والتي قلما يرتادها ويالالأسف شبابنا المعاصر وأجيالنا الجديدة والتي تعول عليها الأمة بناء مستقبلها وتقدمها المنشود. هذا المستقبل الذي لا يمكن أن يُبنى على أسس متينة وسليمة ما لم يعتمد على استيعاب أحداث تاريخنا وتواريخ بعض الأمم الأخرى، وأخذ الدروس والعبر من خلالها الاستفادة من الإيجابيات وطرد السلبيات والمعوقات التي تحول دون الانطلاق نحو التجديد والتقدم وكل ما يؤدي إلى حماية الأوطان واستقرارها وازدهارها في الوقت ذاته.

وبشرط أن ندرس التاريخ بروح علمية وموضوعية، مستبعدين إضفاء القداسة على أي حدث أو شخصية مرت بالتاريخ باستثناء ما تُجمع الأمة على تقديسه وهم الرسل والأنبياء، أما مادونهم فالكل قابل وضعه للنقاش والأخذ والرد، والتخطئة والتصويب، فليس كل ماضٍ مقدس وصحيح كما يظن البعض ويفتكر ومنه يطلق الأحكام.

والحقيقة أن أمتنا العربية والإسلامية تقع في مثل هذا، فلإن تاريخها يُطلق عليه خطأ التاريخ الإسلامي فإن أبناء هذه الأمة لا يطيقون أية انتقادات توجَّه إلى هذا التاريخ، فبنظرهم أنه تاريخ مقدس وبكل ما مرَّ عليه من انتصارات وهزائم، ومن ازدهار وانحطاط، وعدل وظلم وغنى وفقر. كل ذلك لأننا نسميه خطأ التاريخ

الإسلامي وهو في الحقيقة تاريخ المسلمين وليس تاريخاً إسلامياً فالإسلام هو عقيدة «سماوية» ومبادئ سامية راسخة وهي توجه الأحداث لمن يتمسك بها وبحقيقتها. ودائماً نحو ما يرتقي بالإنسان ويسعد حياته.

أما التاريخ فإنه صناعة بشرية صنعها البشر بكل ما في أنفسهم من قوةٍ وضعفٍ ومن سموٍ وانحطاطٍ من النفوس الصافية المخلصة إلى تلك الآمّارة بالسوء والتي تميل إلى الفحشاء والمنكر وتقدم مصالحها العاجلة على مصالح أمتها، من النفوس المستقية والتي تأبى الانحراف تحت أي ظرف من الظروف إلى النفوس التي تهون على أنفسها وتتمسك بالصغائر وتهفو إلى الملذات ولو بأي ثمن.

لهذا كله فإننا لم نرَ يوماً التاريخ يسير بخطوط مستقيمة إنه دائم التعرج والانحناء والنهوض والكبوات تبعاً للنفس البشرية التي تقوم بصنع أحداث التاريخ سواء أكان تاريخاً للمسلمين أو غيرهم. فالإسلام جاء ليهذب النفوس ويرشدها إلى الطريق القويم، ولم يأتِ ليغير الفطرة التي فطرها الله عليها.

وعلى العموم فإننا في هذا الكتاب نقدم عرضاً لأحداث تاريخية ربما أصبحت في زوايا النسيان ومن الصعب العثور عليها. وهي أحداث نظنها مشوقة للقارئ، ففيها التسلية والمتعة والإفادة في الوقت نفسه.

وإننا نرجو أن نكون قد وفقنا فيما قمنا به وعرضناه من أحداث.

والله الموفق،،،

عيسى اللوباني

عمان: ١/٦/٢٠١٣م

الحاج أمين الحسيني

يصف مقابلته مع هتلر وموسوليني

في البداية يقول الحاج أمين الحسيني بأنه اختار التحالف مع دول المحور لا مع الحلفاء، لأن تعاونه مع الحلفاء يعني ضياع فلسطين، ولأن الشعب في فلسطين لم يكن قادراً على مقاومة الأطماع البريطانية الصهيونية وحيداً، وكان لا بد له من البحث عن دعم، دعم من هو أقوى من عدوه. وكانت انتصارات المحور لا تدع محلاً للشك في نهاية الحرب. ويقول المفتي بأنه لم يكن يريد أن يبقى بلا عمل حتى النصر النهائي والخضوع لرغبات المنتصرين، كنت أريد أن يحمل العرب السلاح إلى جانب المحور. ومن أجل هذا الهدف يقول المفتي بأنه ذهب إلى دول المحور بحثاً عن التأييد لقضية بلاده، وبهذه الصفة قابل الدوتشي والفوهرر.

مقابلة موسوليني

يقول الحاج أمين: كنت أعلم قبل وصولي روما أن مهمتي لن تكون سهلة فيها، وأن صعوبات كثيرة تنتظرني وأولها وأصعبها ألا أسمح لهم بالظن أن وجودي يمكن أن ينفعهم بشيء. فلم يغب عن بالي يوماً أن إيطاليا تحتل ليبيا وتحاول القضاء على كل ثورة يقوم بها شعبها، كما أنها تطمح في احتلال تونس.

يقول – بعد أن اتصلت بالسلطات الإيطالية حددنا موعداً لزيارة موسوليني. وفي اليوم الموعود جاء موظفو المراسم إلى فندق إكسيليسيور؛ وجدت نفسي في السيارة التي تحملني إلى موسوليني جنباً إلى جنب مع الإيطاليين الذين قتلوا عمر المختار، ولكن أمام المسؤوليات الكبيرة لابد لنا من أن نواجه الواقع وأن نتصرف.

استقبلني في مدخل قصر فينيسا – الشهير بشرفته التي كان يخطب منها

الدوتشي بجموع الإيطاليين الذين كانوا يأتون للاستماع إليه – استقبلني البارون (انفوزو) نائب وزير الخارجية نظراً لغياب وزير الخارجية الكونت شيانو في زيارة رسمية إلى برلين.

كان موسوليني ينتظرني في باب مكتبه الواسع وكأنه قاعة محاضرات، استقبلني بسرور ظاهر، كان مظهره ومشيته يبعثان في الشعور أني جئت أحيي أحد أولئك القادة الرومان وكأنه بعث بزي إيطالي. كان رأسه المرتفع وخيلاؤه تظهر قوة قلبه وكانت عيناه تدفعاني للتفكير بنابليون وأنطونيوس، وبعض حركات يديه في باغنيني كانت طبيعته الحازمة القوية تقربه من نابليون، إذا تحدث عن التاريخ الروماني بدا بليغاً وظهر إعجابه بروما التاريخية وإمبراطوريتها والأمل الذي يعيش عليه بأن يكون باني إيطاليا الجديدة. إيطاليا الغازية، كان يذهب بعيداً في خياله، ولم يكن صعباً علي فهم مطامعه التي يخفيها بكثير من اللباقة والدبلوماسية.

كان صوته يبدي عاطفة حسية وكان بريق عينيه الذي يلتمع في نظراته يكشف عن حدس السياسي الذكي وحلم الإنسان العاطفي. أنطونيوس على شواطئ مصر. كانت شخصيته تظهر اتزاناً بين رجل الدولة والفنان، كان فن عزفه على الكمان ظاهراً في حركات يديه وقد قيل بأنه كان عازفاً ممتازاً.

كان يرى أن مهمته هي إنهاء الميوعة الإيطالية وأن يبني ما تهدم خلال قرون، كان معجباً بغاريبالدي محرر إيطاليا وموحدها، وكان يقدر أن شرف إتمام رسالته يتمثل في إحياء المجد الروماني، وقال لي وهو يشد على يدي: أحييك باسم الشعب الإيطالي وحكومته وباسمي أنا، ثم رافقني حتى مكتبه فجلس كل منا على مقعد أمام الآخر وبقي البارون أنفونزو – جرياً على عادة موسوليني مع معاونيه في الزيارات الرسمية واقفاً.

وبعد أن هنأني سألني عن الطريق التي اتبعت حتى وصولي إلى البلقان. كان

الحديث يدور بالفرنسية التي يتقنها إلى جانب لغات عديدة أخرى. لقد أدهشني بمعرفته لتاريخ ومشاكل الشرق الأوسط، كان يستمع إلي - يقول المفتي- بانتباه شديد فشرحت له مواقفنا دون أن أترك أي التباس يمكن أن يؤدي في المستقبل إلى سوء تفاهم. فلقد عزمت من المقابلة الأولى على توضيح كل شيء وما كان بودي أن أعيد مع المحور الأخطاء التي ارتكبناها مع الحلفاء. وكنت أعلم أن هتلر يكن احتراماً خاصاً لموسوليني وعلمت أن هذا الأخير كان يعارض في حرب ضد الاتحاد السوفييتي. وكم تساءلت عن أسباب عدم اقتناع الفوهرر بذلك.

لقد أوحى إلي في هذه المقابلة الأولى رغم طموحه إلا أنه رجل لا ينسى الواقع، وكان حسه العملي يمكنه من التمييز بين الواقع والوهم. كانت أفكاره نتيجة تفكير طويل مبني على الحساب – منطق واقعي يومي بإستراتيجيته، ولقد أوحى إلي أيضاً أنه إنسان موهوب بذكاء عملي لا تغيب عنه العملية في مهمته التي كانت تري لتحقيق مثل أعلى، أعني إعادة بناء الإمبراطورية الرومانية.

شرحت له بوضوح مطالب العرب بالاستقلال والوحدة ورفض كل أشكال الاستعمار، من الاستعمار المباشر حتى الحماية والانتداب والقواعد العسكرية. ولقد تبينت من خلال ملامحه أنه لم يكن ينتظر كل هذا الموقف الصارم مني.

قلت له: إن هدفنا الأول هو إنقاذ فلسطين من المؤامرة العالمية وأن نلغي مرة واحدة مفهوم الوطن القومي اليهودي على أرضنا. وهذا ما يملي علينا الكفاح ضد الوطن القومي اليهودي وليس التعصب كما يذهب البعض. إنه الحق في أرضنا ووطننا كما هو حق كل الشعوب. والعلاقات في هذا الوطن كانت دائماً أخوية بين المسلمين والمسيحيين وتعاونوا جميعاً في سبيل وطنهم.

أجابني: أعرف ذلك وإن ما أعلمه عن العرب وخاصة عن الدين الإسلامي هو كثير، لقد درست القرآن والتاريخ الإسلامي والتسامح الذي يحمله الإسلام

محلاً أسمى، ولكن هؤلاء وأشار إلى الكونت أنفوزو لا يعلمون شيئاً.

وهنا تساءلت في نفسي – ترى هل يستصغر معاونيه أم أنه لا يحترمهم؟ واستمر قائلاً (إن مطالبكم تحظى باحترامنا واهتمامنا. إننا راغبون في مساعدتكم على تحقيقها ونحن على استعداد للاعتراف بأمانيكم. أما عن الوطن القومي اليهودي فلكم الحق في كفاحه ومقاومته. إننا ندعم هذا الكفاح ونقف إلى جانبكم.

لقد حاول الـ ٤٦٠٠٠ (ستة وأربعون ألفاً) من اليهود المقيمون في إيطاليا والذين لا تتجاوز نسبتهم ١ من ١٠٠٠ من السكان السيطرة علينا. إنهم رغم تمتعهم بحقوق المواطن التي أعطاهم إياها شعبنا لم يعطوا أي دليل على تعلقهم بهذا الشعب. كل منهم جاسوس، إنهم يقومون بالدعاية ضد إيطاليا ويساندون أعداءها، إنهم طابور خامس بيننا. وسنتخذ الموقف الذي يستحقه موقفهم منا.

وأضاف في نهاية حديثه: أنتم أصدقاؤنا حلفاء بلاد المحور في هذه الحرب التي ستبدل كثيراً في مستقبلنا ومستقبلكم. إننا نتعاون معكم تعاوناً مبنياً على الثقة والتعاون المتبادل. إنني بهذه الروح أرحب بكم بيننا. لقد وصلتم في الوقت الذي تحوز به منطقة الشرق الأوسط اهتماماً كبيراً وأنا من ناحيتي أهتم بذلك اهتماماً كبيراً وأنا سعيد برؤيتكم بيننا، وعندما تذهبوا إلى ألمانيا أرجو أن تنبهوا الفوهرر إلى أهمية الشرق الأوسط وخاصة قناة السويس إنها عنق الإمبراطورية البريطانية، هناك نستطيع خنقها وإلى الأبد، إن جبهة الشرق الأوسط هي التي تساهم في النصر الذي يبدل مصير الحرب.

فهمت من كلامه أنه يعتمد علي كي أقنع الفوهرر بعدم جدوى الحملة التي يعدها ضد روسيا، وكان يعلل موسوليني حجته بإظهار الاستراتيجية الكلاسيكية الروسية التي تتلخص في جر جيوش الاحتلال إلى الثلج والجليد والسهول فتعمد إلى إفنائها بعد ذلك في هجوم معاكس. ولمح في الحديث إلى نابليون وشارل الثاني

عشر ملك السويد اللذين وقعا في الفخ. صحبني الدوتشي إلى باب القاعة وهو يكرر تهانيه ويلح على البارون أنفوزو بتلبية طلباتي أثناء إقامتي في إيطاليا، وأكد لي الكونت أنه سينفذ أوامر زعيمه بدقة وأنه سيضع نفسه تحت تصرفي. فطلبت إليه بعد الشكر أن يسهل لي شكليات السفر اللازمة إلى رحلة أقوم بها لبرلين في أسرع ما يمكن. فسألني قائلاً دون أن يخفي دهشته: منذ الآن؟ ولماذا لا تقيمون بيننا؟ فأجبته لابد من السفر وسأعود لروما عندما تتهيأ الفرصة.

وبدلاً من أن نذهب إلى الفندق رافقني الموظفون إلى فيلا عظيمة في ضواحي روما هي فيلا سكارلاني التي وضعتها الحكومة الإيطالية تحت تصرفي، وقد وجدت أن حقائبي سبقتني إليها.

ولم أقم في هذه الفيلا غير يومين قبل سفري إلى برلين نقلت على إثرها إلى قصر آخر هو (فيلا كولونا) الكائنة في جبل مونتي ماريو المشرف على روما.

ويستأنف المفتي حديثه فيقول:

خرجت من مقابلتي الأولى مع موسوليني ممتناً. لقد أيد الدوتشي الأماني العربية في الاستقلال والسيادة قائلاً: باسم الحكومة الإيطالية أجيب رغباتكم بالاعتراف بأمانيكم الحقة وبمساعدتكم بتحقيقها مع حكومة الرايخ التي تتبنى – على ما أعتقد – نفس الموقف.

إلى برلين

يقول المفتي: «ثاني يوم قابلت فيه موسوليني استقبلت في فيلا سكارلاني السفير الألماني فون ماكنزن يصحبه الكونت بسماك المستشار في السفارة الألمانية في روما وتحدثنا عن تفاصيل الزيارة التي نويت القيام بها إلى ألمانيا».

وفي ٨ تشرين الثاني ١٩٤١ تركت روما بالقطار قاصداً برلين، وفي التاسع منه وصلت ممر يرينر والذي اشتهر بعد مقابلات هتلر وموسوليني به. وكان على رصيف المحطة وفد رسمي باستقبالي يرأسه وزير الدولة الدكتور (أوتو مايسيزا) يحيط به رئيس البروتوكول والدكتور ملتسرز مدير عام الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية الألمانية والدكتور غروبا. ورافقوني إلى برلين حيث حللت ضيفاً على الحكومة الألمانية أحلتني في قصر (شلوس بلفور) الذي بني عام ١٧٨٥ والقائم في حي (نيوغارتن). وبقيت في ذلك القصر أسبوعين ثم انتقلت إلى «غوته شتراسة» في (ضاحية تسيلنورف) البعيدة ١٦كم من برلين.

وفي ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) استقبلني فون روبنتروب في وزارة الخارجية الألمانية القائمة في ويلهلم شتراسة ودام الحديث معه ساعة ونصف (وهو وزير الخارجية الألمانية). ويقول المفتي بأنه وجد الوزير على غير ما كانت تصوره الصحافة المعادية من أنه وصولي ومحدود الضمير والعقيدة. فقد وجدتني أمام مخطط حقيقي وقور لا تخفاه الوقائع، ولم تكن بساطة حديثه تخفي دقة أحكامه. كانت الناحية العقلانية الواقعية في شخصيته تطغى على الناحية العاطفية. وكان من ضمن ما قاله الوزير للمفتي (يجب أن تُحل القضية الفلسطينية من نظرة عالمية دون الاهتمام بموقف الإنكليز، هذه القضية يمكن أن تثير أحداثاً عالمية خطيرة، إن فلسطين عربية وحل قضيتها يجب أن ينبثق عن هذه الحقيقة مهما كانت الشروط).

مع هتلر

يقول المفتي:

في الرابعة والنصف بعد ظهر ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١ قابلت أدولف هتلر فوهرر ألمانيا وزعيم الرايخ الثالث ولم أكن أنتظر أن أستقبل بمراسم استقبال رسمي.

فعندما ترجلت من السيارة في ساحة المستشارية وفي مدخل بوابتها الكبيرة استقبلتني الموسيقى العسكرية وطلب إلي مرافقي موظف المراسم في وزارة الخراجية أن أستعرض سرية من حرس الشرف، ثم صحبني عبر قاعات المستشارية الكبرى وممراتها حتى قاعة الانتظار، فطلب إلي رئيس المراسم أن أنتظر حتى يعلن عن قدومي، وبعد أقل من دقيقة استقبلني هتلر في مكتبه وأبدى الترحاب حين دخولي. وكان يحيط به عدد كبير من خاصته وبينهم ترجمانه الخاص الهر شميدت الذي نقل لي حديثه إلى الفرنسية.

قال لي بعد أن طلب إلي الجلوس أمامه: أهنئك وأهنئ نفسي أن قد نجوت من عدونا المشترك، لقد تابعت قلقاً مراحل تنقلك من طهران إلى برلين، إني أعتبر خلاصك نصراً، إن تاريخ حياتك معروفاً عندي بتفاصيله، إن كفاحك يحظى باحترامي، إني أقدر المعركة العظيمة التي خاضها الشعب الفلسطيني بشجاعة وحيداً لا يعتمد على أحد ضد الإمبراطورية الإنكليزية واليهودية العالمية. إن جرأة هذا الشعب وتصميمه العنيد وتمسكه بحقوقه وتفانيه تستحق إعجاب العالم.

كانت قوة صوته ولهجته الصارمة العميقة تخيل لي أنها تتردد في القاعة. كانت تعبير وجهه ترتسم على وجوه الذين حوله حتى كان كلاً منهم يردد في داخله أقواله التي تقطعها الترجمة ولاحظت أن شفاه بعضهم تتحرك وكأنها تتمتم معه ما

يقول. وكانت عيونهم تتسع حدقاتها أو تصغر وفقاً لحركة عيني الفوهرر وكانوا يقطبون حواجبهم أو يحركون رؤوسهم معه بحيث تبدو عليهم المشاركة في التعبير كأنهم مأخوذون بمغناطيسيته. كان جو الحديث حاراً على هدوء وكانت لهجة الفوهرر المليئة تضاعف معنى الكلمات فتحفرها في ذاكرة محدثه حتى كان لها معان أبعد من معانيها الحرفية وينعكس فيها مزاجه العنيف.

قال: «إن لإقامتك بيننا معنى كبير ويجب أن تؤتي ثمارها، وأعلم أن هدفك الأول أن تعبر عن الآمال العربية وإرادة هذا الشعب بالكفاح ضد عدو الإنسانية المشترك».

وترك لي بعد ذلك مجال الحديث، وبعد أن شكرته لكرم الضيافة الذي لقيته في ألمانيا ذكرت العلاقة الطيبة التي تجمع بين ألمانيا والإسلام والتي تحققت في عهد السلطان عبد الحميد. وقلت إن ألمانيا لم تعتدِ يوماً على أي بلد عربي إسلامي رغم تاريخها الطويل. ولقد عانى شعبنا سياسات ظالمة غير شاعرة بحقوق الشعوب في الحياة والحرية، ولا شك أيها الزعيم أنك على علم ودراية بكل ما حل بالعرب من قبل بريطانيا وغيرها ونكثها بوعودها. كما أن شعبكم رزح تحت شروط معاهدة فرساي ونتائجها الهدامة المخربة.

وإننا نحن أبناء فلسطين سوف نتمسك بأرض الوطن مهما كانت التضحيات والنتائج. إن شعبنا الذي قاسى من تجربة الحرب الكبرى ليرغب في عقد معاهدة مع بلدان المحور وخاصة مع ألمانيا تحفظ حقوقه وتعلن على الرأي العام حتى إذا انتهت شكوكه انضم إلى المعركة التي هي معركتنا ضد عدونا المشترك.

لاحظت وأنا أعرض رأيي على الفوهرر أن جفناه أقل حركة مما عند الآخرين وكان سكونهما يعطي وزناً وقوة لنظرته الصارمة. وكان لوجهه الهادئ تعبيراً متعالياً يبدي طبيعته المتحدية المسيطرة، رأيت أن انتباهه شديد لا يترك كلمة من

كلماتي تفوته وأحسست كأنه يستعيد آرائي ويعد الجواب عليها في دخيلتـه. يحـس محدثه بأنه قريب بعيد مما يحبب في شخصيته على صرامتها.

استأنف قائلاً: لقد شرحت إستراتيجيتي في «كفـاحي» وقلـت بـأنني سـأكافح اليهود دون تردد. وكان لكلمة يهودي وقع خاص عندما يلفظها.

إن إلغاء الوطن القومي اليهودي هو جزء من معركتي.. إن اليهود... - وكـان يشدد على آخر حرف من يهودي فيلفظها – جودم بدلاً من جودن بالألمانية.

ويستطرد قـائلاً: يريـدون أن يقيمـوا دولـة مركزيـة تكـون قاعـدة لنشـاطهم وأهدافهم التخريبية، إنهم يريدون أن يهدموا كل الدول... كل شـعوب العـالم إنـه من الثابت أن اليهود لم يقوموا بأي عمل بناء في فلسطين دعايتهم كاذبة، كل ما بـني في فلسطين بناه العرب لا اليهود منذ ما قبـل التـاريخ. إن طبيعـتهم لا تسـمح لهـم بالبناء ولقد قررت أن أجد بأي ثمن حلاً دقيقاً نهائياً للمشكلة اليهودية وبعد ذلـك سأدعو أولاً كل دول أوروبا ثم البلدان التي من غير أوروبا أن تتعاون معي لنضـع حداً نهائياً لليهودية العالمية التي تشكل خطراً يهدد العالم أجمع.

كان هتلر هادئاً في حديثه أحسسـت أنـه يفـتح قلبـه فلـم يخـفِ علـي قناعتـه بضرورة وضع حد لجرائم اليهود واستمر قـائلاً: ألـيس عجيبـاً ومخيفـاً أن يتعـاون عدوان مختلفان مبدأً وهدفاً، الولايات المتحدة والاتحاد السـوفياتي، أقصـى الـيمين وأقصى اليسار! تناقض عجيب، لقد استطاعت اليهودية العالمية أن تجمع المتناقضين الرأسمالية والماركسية وتقرنهما بحبل واحد كي يخدما مصالحها ولكن هذا الأمر لن يدوم.

ثم تابع قائلاً: إننا نتابع كفاح حياة أو موت معركة تحسم نهائيـاً بـين الوطنيـة الاشتراكية واليهودية ونجاحنا يأتي بعون إيجابي هام للعرب الذين يكافحون معنـا.

إن وعداً عاطفياً لا معنى له.. إن الضمانات التي تدعمها القوة المنقذة هـي وحـدها ذات معنى واقعي. والحرب العراقية (يقصـد حركـة رشـيد عـالي الكيلانـي) مثـل لذلك فرغم كسب العراقيين لدعم الشعب الألماني العاطفي فلم تمكنا الظروف من أن نأتيهم بالمساعدة العسكرية الضرورية لهم.

ثم تابع قائلاً: إن هذا الكفاح الـذي نخوضـه لا بـد أن يخـدم قضـية العـرب، وعلينا أن نميز بين ما يضرنا وينفعنا في سيرنا المنتصر ضد اليهودية العالمية وبريطانيـا والأعداء الآخرين، وعندما يتحقق النصر تدق سـاعة تحقيـق الآمـال العربيـة. وإن ظروف حربنا بالقوقاز الآن لا تسمح لنا بإعلان تصريح يتضـمن اسـتقلال سـوريا لأن ذلك يضعف حكومة فيشي وتتخلى عنا بينما يشـتد موقـف ديغـول وسـلطته. وبعد وقفة قصيرة استمر وقد بدا عليه التفكير: أريد أن أقـول لـك شـيئاً يجـب أن يظل مكتوماً بيننا: سأتابع الكفاح حتى القضاء على اليهودية العالمية، وعندما تصل جيوشنا منحدرات جنوب القوقاز يصبح الوقت مناسـباً للتصـريح الـذي تطلبـون ويحين تحرير العرب. إن ألمانيـا ليسـت لهـا مطـامع في أي دولـة عربيـة. فأنـا ومنـذ وصولي إلى الحكم لم أعطِ أي تصريح رسمي، إنني أنتظر الساعة الـتي أسـتطيع بهـا رغم تصريحاتي بقوة السلاح. ولا تنسى أني عندما أساعد العرب فإننا نفعـل ذلـك من أجل خدمة ألمانيا أولاً، وأنا أعرف أنـي عنـدما أسـاعدكم فـإني أقـوم بـواجبي لمصلحة ألمانيا. وفوق ذلك فإنه ليس لألمانيا مطامع استعمارية خـارج أوروبـا فلقـد ذهب زمن الإمبراطوريات الاستعمارية ولن أعيد أخطاء الإمبراطوريـات الكـبرى التي كانـت تحلـم باجتيـاح العـالم. وقواتنـا الـتي تحـارب الآن في شمـال أفريقيـا لا تستهدف احتلال الأرض وإنما كي تتابع الحرب ضد العـدو، إن الـرايخ الثالـث لا مطامع له إلا في القـارة الأوروبيـة ذات الحضـارة القديمـة حيـث يسـتطيع الشـعب الألماني أن يحيا وينفتح وعندما يُغلب الإنجليز ستعود قواتنـا الموزعـة في العـالم كـي

تلعب دورها التاريخي الحضاري. ليست لنا مطالب في البلاد العربية فنحن أصدقاؤكم وبوسعكم أن تعتمدوا علينا، ولكن اعتمدوا على أنفسكم أولاً فنحن نفكر أولاً بمصالح ألمانيا وعليكم أن تفكروا أنتم بمصالحكم أولاً.

لم يكن هتلر إذن راغباً في إعطاء تصريح رسمي كنت أعتبره هاماً وأساسياً في متابعة الكفاح، ويضيف المفتي قائلاً: إن من يتخذ موقف المشاهد بين المتحاربين ينتهي إلى أن يخضع لرغبات المنتصر أياً كان. لذلك رأيت أن لا نعتمد على الألمان لنصرة قضيتنا، وكان علينا نحن أن نؤلف جيشنا. وعلى أبنائنا وحدهم تحمل مسؤولية قضايا بلادهم.

ويضيف المفتي: إنه وأمام هذا الواقع القائم فقد عرضت على الفوهرر توقيع معاهدة سرية فقال: إن الاتفاقات السرية لا تظل بالضرورة سرية فلابد أن يطلع عليها بعض الأشخاص فتنكشف بعد قليل. لقد أعطيت في حياتي تصريحات قليلة على عكس الإنجليز الذين أعطوا تصريحات كثيرة لم ينفذوها. أما أنا فأتقيد بوعودي، وأعلن لكم أننا عندما نصل جنوب القوقاز تحين ساعة تحرير العرب وبوسعكم أن تعتمدوا على هذه الكلمة.

يقول المفتي: دام الحديث ساعة وخمس وثلاثين دقيقة وعندما تركت الفوهرر كنت أشعر ببعض القلق رغم تأكدي من الإستراتيجية التي يتبع. وكنت قانعاً قناعة مطلقة بعزمه على الكفاح ضد الصهيونية وأعوانها الاستعماريين، فقد كان رجلاً لا يتزعزع إيمانه بأفكاره، شديد الحماس بتحقيق أهدافه، عكس الساسة الإنجليز. وكان صريحاً في خطاباته وأحاديثه الخاصة، وكانت مصلحة الرايخ همه الأساسي. وكانت ألمانيا عنده كل شيء. ويقول المفتي: إنه صمم على متابعة جهوده مع الألمان وذلك بالاتصال بالموظفين المختصين بالشؤون الشرقية. ويقول المفتي: إنه قابل هتلر ثلاث مرات. ثالثها كان في حفلة استقبال رسمية وكان ذلك عقب دخول الولايات

المتحدة الحرب، ولاحظت أنه كان راغباً بالتحدث إلي، وعندما حييته اعتذر لي قائلاً: إنه يود رؤيتي ولكن أعماله كثيرة ولقد تحدثنا طويلاً ذلك المساء، وتحدث عن اليهود الألمان.

في هذه المقابلة قال هتلر للمفتي: لم أكن أجد أي فرق بين مسيحي ويهودي ألمانياً كان أم نمساوياً، ولذلك عجبت لتبدل وضع اليهود المفاجئ في ألمانيا بعد وعد بلفور، فقد شدوا ضد كل المؤسسات الألمانية وأخذوا يخربون في دوائر الدولة والجيش، ويقومون بدعاية هائلة لنقط ويلسون الأربعة عشر (ودرو ويسلون أحد رؤساء أمريكا) والتي لا تفرق كما زعموا بين غالب ومغلوب.

ولقد أدت هذه المؤامرة إلى الانهزامية في ألمانيا وعاثت المنظمات اليهودية فساداً بنفس الوقت في التموين التابع للجيش فخسرنا الحرب.

أجابه المفتي بأنهم لعبوا نفس الدور في بلادنا.

واستأنف هتلر حديثه قائلاً: إن اليهود هم الذين دفعوا الولايات المتحدة لدخول الحرب ضد ألمانيا عام ١٩١٧، ورأيت بعد تأسيس الحزب الوطني الاشتراكي أن زعماء اليهود يتابعون محاولاتهم لتدمير ألمانيا وزرع الفوضى والأفكار الماركسية، وكان اليهود يريدون أن يقطعوا كل أمل بنهضة ألمانيا ولهذا السبب اقتنعت أن مهمتي الأولى ومهمة كل الوطنيين الاشتراكيين بل كل الألمان أن يستمروا في كفاحهم دون شفقة ضد اليهود.

أجاب المفتي: نحن العرب نعتقد أن الصهيونية من قامت بالتخريب لا اليهود.

قال هتلر: أنتم شعب عاطفي. أدعوكم لزيارة معهد الدراسات الذي أسسته كي أقنعكم بفكرتي وستجدون أن قناعتنا ثابتة علمياً.

ويجب عدم الإغفال هنا بأن المفتي الحاج أمين الحسيني عمل وبعض العرب

المقيمين في دول المحور على إنشاء جيش عربي يدافع عن القضـايا العربيـة وخاصـة قضية فلسطين. وكانت نواة هذا الجيش مجموعة من الطلاب العرب الذين كانوا في العراق أثناء حركة رشيد عالي الكيلاني، فقد تقـدمت مجـاميع مـن هـؤلاء الطلبـة بالتطوع في الجيش الألماني وقبلت طلباتهم، كذلك في هذه الفترة جاء الإنجليز بعدد كبير من العمال العرب إلى اليونان فلما سقطت في يد الألمان أخـذ أولئـك العمـال أسرى وكان الكثير منهم من أبناء فلسطين، وهنا تفاهم المفتي مع السلطات الألمانيـة على إخراجهم من معسكرات الاعتقال وإرسالهم إلى مراكز التدريب وأسس لذلك مدرستان حربيتان إحـداهما تخـرج منهـا مئتـا ضـابط، والأخـرى لتـدريب صـف الضباط، وأُحـدثت دورة في لاهـاي (هولنـدا) لتـدريب ٦٠ مقـاتلاً علـى أعمـال المغاوير، تبعتها دورات أخرى في مناطق متعددة. وقد ضم هـذا الجـيش عربـاً مـن بلاد الشام والعراق وبلاد المغرب العربي. وكان القرار الرسمي بإنشاء هذا الجـيش العربي من قبل الحكومة الألمانية بتاريخ ٢ تشرين الثاني (نـوفمبر) ١٩٤٣. وأعلـن الفوهرر الموافقة على مد الجيش بالأسلحة اللازمة. ووضـع الألمـان تحـت تصـرف المفتي وجماعته أربع طائرات ذات المحركات الأربـع لنقـل العتـاد ووضـعه في مخـابئ سرية لتدريب المجاهدين في فلسطين استعداداً للمعركة المقبلة.

كذلك عمل المفتي أثناء إقامته في ألمانيا على إنقـاذ آلاف المسـلمين مـن بطـش الصرب ومذابحهم في كرواتيا والبوسنة والهرسك.

وبعد أن أبادوا الآلاف من المسلمين، وكان ذلك بعد أن سقطت تلك المنـاطق بيد ألمانيا وإيطاليا اللتان وافقتا على إنشاء دولة كرواتيـا وضـم البوسـنة والهرسـك إليها، مما أغضب الصرب وجعلهم يقومون بالمذابح ضد المسلمين. عندئذٍ قام المفتي بزيارة تلك البلدان وقابل موسوليني وبعض المسؤولين الألمان لوضع حد للمجـازر الصربية ضد المسلمين كما قامت مصر بدور في مساعدة المسلمين هناك.

كيف غادر المفتي ألمانيا وأين كانت وجهته؟

اشتدت وطأة غارات الحلفاء على ألمانيا منذ أواخر عام ١٩٤٣ وازدادت شدة عام ١٩٤٤، وكانت بعض الغارات تهاجم برلين بألف طائرة، وكانت لا تفرق بين أهداف مدنية أو عسكرية، وكانت السلطات الألمانية تنذر المفتي ومن معه من العرب بالغارات بالتلفون قبل وقوعها للذهاب إلى الملاجئ.

وكانت الدار التي يقيمون بها قد أصيبت مراراً، وكانت ملكاً لسفير ألمانيا في الأرجنتين ومؤلفة من ثلاثة أدوار وتحيط بها حديقة واسعة، وكانت السلطات تقوم بالإصلاحات فوراً ليعود سكانها إليها. وفي إحدى الغارات دُمرت الدار تماماً، وفي اليوم التالي تم نقل المفتي ومن معه إلى منطقة بعيدة عن الغارات الجوية على بحيرة (ساوة) حيث مكثوا فيها حوالي شهرين، ثم تم نقلهم إلى مدينة (سيتاو) حيث قضوا فيها أربعين يوماً في فندق، وبعدها تم نقلهم إلى (أويبين) وهي إحدى المنتجعات الألمانية بالقرب من حدود تشيكوسلوفاكيا، حيث مكث الجميع وعددهم عشرون شخصاً ببيت كبير معظم عام ١٩٤٤ وشطراً من عام ١٩٤٥.

وكان رجال المجموعة يتناوبون الذهاب إلى برلين ويقضي كل من يذهب أسبوعاً لتفقد أحوال العرب والمسلمين وقضاء مصالحهم في تلك الظروف الحرجة.

ولما اشتدت الحال وبدأ زحف الحلفاء على برلين عام ١٩٤٥ جاءهم حاكم المنطقة وأبلغهم أن هذه المنطقة أصبحت خطرة وأن السلطات ترغب في نقلهم إلى مدينة (بادكشتاين) وهي منتجع شهير جنوب النمسا. وقد لاحظ رجال المجموعة العربية أن جميع السيارات التي كانت تقل الحاكم وجماعته كانت تسير بالفحم نظراً لأن البنزين أصبح قليلاً وغالي الثمن في ألمانيا. وغادرت المجموعة العربية ومعها المفتي بالطبع إلى بادكشتاين حيث أنزلتهم السلطات الألمانية في فيلا (كارلشتاين)

والتي لم تتسع لهم جميعاً فنزل بعضهم في الفنادق. وكان من ضمن هؤلاء العرب فلسطينيون ومصريون وسوريون وتونسيون وإيرانيون. وكانت هذه المدينة بعيدة عن الغارات الجوية لعدم وجود مصانع فيها تجعلها عرضة للقصف الجوي. لذلك تم تخصيصها للهيئات السياسية.

وفي هذه الفترة يقول المفتي بأن القضية العربية برمتها خسرت مناضلاً كبيراً يدعى (مصطفى الوكيل) وهو شاب مصري تطوع في البداية لقتال الإنجليز في العراق بعد حركة الكيلاني، ثم التحق بالثوار في فلسطين وفي كتيبة الشهيد عبد القادر الحسيني، وبعد ذلك خرج إلى سوريا فتركيا ومنها إلى ألمانيا، وقد عرفه زملاؤه بطيب الخلق والشجاعة والزهد وإنكار الذات والانتماء العربي الإسلامي الخالص لوجه الله والوطن. وكان خلال وجوده في ألمانيا يتوقد نشاطاً وحيوية دائب النشاط والعمل على خدمة المصالح العربية والإسلامية عامة، والقضية المصرية بشكل خاص، ونجح في انتزاع التصريح المشترك الذي صدر عن ألمانيا وإيطاليا عام ١٩٤٢ بالاعتراف باستقلال مصر، ومطالبة دول المحور بعدم قصف المدن المصرية. استشهد هذا المناضل في غارة بريطانية على برلين ودفن بها إلى أن نقلت رفاته إلى مصر عام ١٩٥٤.

ويضيف المفتي بأنه وقبل مغادرته بادكشتاين نهائياً توجه والدكتور فرحان الجندلي إلى برلين للقيام ببعض الشؤون ومنها بناء قبر للدكتور مصطفى الوكيل. ومكثا في برلين عشرة أيام بفندق إدلون الشهير.

وكانت برلين في تلك الأيام أواخر نيسان ١٩٤٥ قد أصبحت حطاماً لا تكاد العين تقع بها على بناء قائم.

وقمنا بمغادرة برلين إلى كارلسباد تحت وطأة الغارات التي لا تنقطع، ثم ذهبنا إلى (مارينباد).

وفي الطريق من برلين إلى بادكشتاين مررنا- يقول المفتي- بمدينة (نورمبرغ) وكانت خراباً يباباً، بعد أن كانت مدينة العمران والازدهار والحركة الدائبة والمنشآت الرائعة. والمعروف أنه وقع عليها اختيار الحلفاء لتكون مركزاً لمحاكمة زعماء النازية.

ولما تفاقم خطر اجتياح الحلفاء مناطق كثيرة في ألمانيا وأصبحت تحيط بها من كل جانب، بحث كبار المسؤولين الألمان مع المفتي ورفاقه طريق الخروج من ألمانيا. اقترح البعض غواصة تقلهم إلى أحد الشواطئ العربية. ثم استقر الرأي على أن نذهب إلى سويسرا لأنها أعلنت ترحيبها باللاجئين السياسيين في بلادها.

وفعلاً وصلنا إلى سويسرا ولكن السلطات هناك أبلغتهم بأن هنالك قائمة بأسماء اثنين وثلاثين شخصاً استثنيَ أصحابها من السماح لهم باللجوء، واسم المفتي معهم، لذلك لا يسعنا قبولكم في سويسرا. ولكننا على استعداد لنقلكم إلى أي مكان آخر. وبعد مشاورات قررنا الذهاب إلى فرنسا.

وهكذا كان. ووصلت القافلة إلى باريس حيث وضع الجميع في أحد السجون لبضع ساعات، ثم تم نقلهم إلى دائرة الأمن العام وقضوا ليلة في مكاتبها. ورأينا في ذلك المكان مجموعات من الفرنسيين المتعاونين مع الألمان وكانوا ينتظرون الحكم عليهم بالإعدام وقد سمحت السلطات لزوجاتهم وأمهاتهم بزيارتهم لوداعهم فكان عويل النساء وتحسر الرجال يملأ جو دائرة الأمن العام حزناً وألماً.

وفي اليوم التالي من الوصول إلى باريس الأحد ٢٠/ ٥/ ١٩٤٥ حضر إلى مقر المفتي في مركز الأمن (المسيو ديغو) مدير القسم العدلي في الأمن العام ومساعده (المسيو بادن). وقال لهما المفتي بأنه وبما له من صفة دينية كونه رئيساً للمؤتمر الإسلامي العام ورئيساً للجنة العربية العليا فإنه يطلب السماح له بالانتقال من هذا المكان إلى منزل أو فندق، وأن يعامل المعاملة اللائقة فأجابه المسيو ديغو بأن الجنرال

ديغول مهتم به ومن معه كل الاهتمام وستعاملون المعاملة اللائقة بكم وستغادرون هذا المكان اليوم، وسأله عمن يعرف في باريس فأجاب المفتي بأنه يعرف السفراء العرب والوزراء المفوضين، والسيد قدور بن غبريط ممثل حكومة المغرب.

وفي اليوم نفسه انتقل المفتي ومن معه إلى منزل على بعد ١٣ كيلو متر من باريس في ضاحية (سان مور – لافارين) على نهر المارن. ثم قرأنا في الصحف بأن بريطانيا تطالب بتسليمنا كونها الدولة المنتدبة على فلسطين وكذلك القيادة العليا للحلفاء بقيادة أيزنهاور. ولكن الحكومة الفرنسية وقفت موقفاً متحفظاً بحجة أن لها معنا حساباً طويلاً بسبب مساندتنا للثورة السورية ١٩٣٦ ولأننا تعاونا مع الألمان في الحرب الأخيرة.

ولكن الحقيقة أن فرنسا لم ترغب في تسليمهم لأنه وفي هذه الفترة بالذات كان الصراح محتدماً بين بريطانيا وفرنسا حول النفوذ في سوريا، وأن بريطانيا كانت تحاول إخراج فرنسا من المنطقة، وفرنسا أرادت أن تستميل العرب لاسيما وأنه كان من ضمن مرافقي المفتي بعض السوريين. حيث كان يتردد عليهم بعض المسؤولين الفرنسيين لاسيما من أولئك الذين عملوا في سوريا مثل مسيو بونسوا والذي عمل مندوباً سامياً لفرنسا في سوريا ولبنان عام ١٩٢٨.

وكذلك زيارة مسيو (غيرامو) مساعد مدير الشؤون العربية في وزارة الخارجية الفرنسية، وكان الحديث يتناول الوضع في سوريا ولبنان وبعض الأقطار العربية. وقام مسيو (غيرامو) بتسليم المفتي رسالة من المرحوم سامي الصلح رئيس الوزارة اللبنانية حينئذ. ثم قام بزيارة المفتي وجماعته مسيو بونسو وحده، وتحدث في زيارته هذه عن رغبة فرنسا في التعاون مع الأقطار العربية وأنها ماضية في سياستها هذه.

ولا ننسى كذلك أن فرنسا كانت تريد استمالة هؤلاء العرب بما لهم من مكانة محاولة الحفاظ على وجودها في بلاد المغرب العربي التي كانت تحتلها.

وأخذ المفتي وجماعته بعد ذلك باستقبال من يشاؤون من الزوار العرب المارين بباريس أو المقيمين فيها. وكان من بين هؤلاء أحمد الدعواق أحد كبار رجال السياسة في لبنان ذلك الوقت والدكتور محمود عزمي رئيس وفد مصر في الأمم المتحدة، ووفد لبناني كان في طريقه للأمم المتحدة وكان أبرز أعضائه المرحوم رياض الصلح وحميد فرنجية وكان معهم الصحفي المعروف حنا غصن.

وفي هذه الأثناء كان اليهود يطالبون بتقديم المفتي إلى محاكم نورمبرغ مع زعماء النازية بتهمة التحريض على قتل اليهود. وفي عام ١٩٤٦ قرر المفتي مغادرة باريس إلى مصر. وقال إنه تدبر أمر جواز السفر وغير الصورة الملصقة عليه ليضع صورته مكانها، وبدل ثيابه. ووصل أخيراً إلى القاهرة. بعد أن ترك رسالة شكر للحكومة الفرنسية.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن بعض العرب الذين كانوا يرافقون المفتي اختاروا البقاء في ألمانيا وفي منزل بادكشتاين، في انتظار ما سيكون بعد احتلال الحلفاء. حيث دخلت القوات هذه المدينة بعد رحيل المفتي بيومين وتسلمت القوات الأمريكية الأماكن المهمة والدوائر الرسمية. وبموجب الأوامر الرسمية الخاصة بالأجانب اتصل أولئك العرب بدائرة الحاكم العسكري الأمريكي للاستعلام عما سيكون من أمرهم. بداية طمأنوهم، ثم أعلموهم أنهم موقفون حتى إشعار آخر، ومنعوهم من الخروج أو الاتصال بأحد، ووضعوا حرساً عليهم لمدة أسبوعين.

ثم نقلوهم بالسيارات برفقة الحرس إلى مدينة سالزبورغ ومنها إلى المطار، وبعد تسجيل الأسماء وإنهاء عملية التسليم والتسلم، ركبوا طائرة توجهت بهم إلى مطار بروكسل، حيث نقلوا إلى السجن العسكري ومكثوا شهراً، ثم نقلوا من الزنزانات إلى غرفة واسعة واحدة. ومكثوا في هذا السجن تسعة أشهر. وتم توكيل محام فرنسي للعناية بأمرهم، كما اهتمت سفارة مصر والمفوضية السورية واللبنانية في باريس بأمر رعاياها المسجونين. وقد اقترنت المساعي بالنجاح وتمكن رعايا تلك

البلدان من العودة إلى بلادهم. أما الفلسطينيون منهم فلم تكن هنالك دولة ترعاهم، وأخيراً نقلتهم السلطات البريطانية من بروكسل إلى جزيرة سيشل بطائرة خاصة شباط ١٩٤٦.

بعد أن أضربوا عن الطعام. وقضوا في سيشل أربعة شهور وساءت صحة بعضهم، فتم نقلهم إلى القاهرة على دفعتين.

أما هؤلاء الذين تخلفوا في ألمانيا والذين تم نقلهم بعد ذلك إلى بروكسل والقاهرة فكان منهم الشيخ حسن أبو السعود وسعد الدين عبد اللطيف وسليم الحسيني وهم من القدس، والدكتور ظافر الرفاعي (وزير خارجية سوريا فيما بعد) من حلب، والدكتور فرحان الجندلي (وزير صحة سوري سابق) من حمص، ورمزي الألاجاتي من حلب وبهاء الدين الطباع من بيروت ويوسف الرويس من تونس وغيرهم.

وأثناء وجوده في القاهرة قابل المفتي الملك فاروق الذي أنزله في قصر أنشاص. حيث تولت حراسته مجموعة كبيرة من الجنود. وأقام في هذا القصر ١٩ يوماً.

وطالبت الصحف المصرية بأن يكون للمفتي حرية الحركة والعمل السياسي لأجل قضية فلسطين رغم تحفظ الحكومة البريطانية على ذلك.

ويقول المفتي: إن بعض الضباط المصريين الذين قاموا بالثورة قد اتصلوا به وعرضوا عليه التطوع للعمل معاً من أجل فلسطين وكان منهم جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر واثنين آخرين.

ولكن بعد خلافات مع حكومة الثورة قرر المفتي مغادرة القاهرة إلى دمشق ثم لبنان وكان ذلك في ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٩ حيث قضى بقية حياته إلى أن توفي في سبعينات القرن الماضي رحمه الله.

وصف مجاعة ألمت بمصر
في عهد الدولة الفاطمية وجوانب أخرى

منذ نهاية عهد الأخشيديين بدأت المجاعات في مصر والتي امتدت حوالي تسع سنوات ٩٦٤ – ٩٧٢م فكانت عاملاً مشجعاً للعبيديين على فتح بلاد مصر. بعدما يئس بعض المصريين من حكم الإخشيديين لكن هـذه المجاعـات تكـررت في عصـر العبيديين خاصة في عهد الحاكم بأمر الله ثم ابنه وخليفته الظاهر لإعـزاز ديـن الله، ثم في زمن المستنصر بالله.

ثم كانت الشدة الكبرى والتي ابتـدأت سـنة ١٠٧٢ إلى ١٠٩٥ فوصـل سـعر رغيف الخبز بها إلى خمسة عشر دينـاراً (أكثـر مـن عشـر جنيهـات حاليـاً) وأُكلـت الكلاب والقطط والدواب، ووصل سعر الكلب خمسة دنانير.

ويصف المقريزي حالة الناس في مصر – القـاهرة آنـذاك بقولـه: تزايـد الحـال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً وتحرز الناس، فكانت طوائف تجلس بـأعلى بيوتهـا ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب، فإذا مر بهم أحد ألقوها عليه، ونشلوه في أسرع وقت، وشرحوا لحمه وأكلوه، ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر بالله كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغـيره وكانـت نسـاء القصـور يخـرجن ناشـرات شعورهن تصحن: الجوع! الجوع! يردن المسـير إلى العـراق فيسـقطن عنـد المصـلى ويمتن جوعاً.

حتى أن امرأة عرضت عقداً لها ثمنه ألف دينار على جماعة التجار ليعطوها به طحيناً فاعتذروا. وأخيراً أشفق عليهـا بعضـهم وباعهـا كيسـاً مـن الـدقيق ومـا أن دخلت باب رويلة، عند عودتها ومعها الدقيق تكاثر عليها الناس وتخـاطفوه منهـا،

ولم تستطع الاحتفاظ بأكثر من ملئ يديها، وهو ما بقي لها من كيس الطحين، فعجنته وشوته، ولما صار رغيفاً أخذته معها، وسارت إلى أحد أبواب القصر ووقفت على مكان مرتفع، ورفعت الرغيف على يدها بحيث يراها الناس، ونادت بأعلى صوتها: يا أهل القاهرة! ادعوا لمولانا المستنصر الذي أسعد الله الناس بأيامه، وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت على هذه القرصة (الرغيف) بألف دينار.

ويقول ابن كثير: حتى اللصوص قضى عليهم الجوع، وأكل الناس بمصر عام (١٠٧٠م) الجيف والميتات والكلاب. ولم يتجاسر أحد أن يدفن ميته نهاراً، إنما يدفنه ليلاً، مخافة نبشه وأكله.

وظهر أن بعض الطباخين قد ذبح نساء وبعض الصبيان وأكل لحومهم، وباعها مطبوخة، وليس أدل على ذلك من الرواية التالية: كانت امرأة سمينة تجتاز زقاق القناديل بمصر (القاهرة) فعلقها أحد العبيد السود بالكلاليب، وسحبها إلى داره، وفيه بطحها أرضاً على وجهها وأوثق رباطها بأيديها وأرجلها إلى أوتاد حديدية ثم عراها من ثيابها وقطع من عجزها شرائح وهي تستغيث وتصرح ولا من مجيب. ثم جلس يأكل وقد توهم أنها لا تستطيع الإفلات من قيودها: لكن المسكينة بدأت تتململ وتشد إلى أن استطاعت أخيراً أن تفلت من قيودها، وتخرج من داره زحفاً إلى أن وصلت إلى الخارج، فصرخت طالبة النجدة، فجاء الوالي وفتش الدار ليخرج منها مئات القتلى ثم ضرب عنقه.

وكلما اشتدت الأزمات، وارتفعت الأسعار وانتشرت الأمراض، وازداد الجوع، تزايد عدد الأموات بكثرة حتى لم يجدوا من يدفنهم، فطرحت جثث كثيرة في النيل، وتفشت الأمراض عند ذلك لدرجة أن الوباء بمصر قضى سنة ٩٧٨م على أعداد كبيرة تقدر بالآلاف، سوى من لم يعلم بموته أما من دفن بلا كفن

فكثير.

ولم تكن الحال في أيام الظاهر لإعزاز دين الله بأفضل منها في أيام جده العزيز بالله إذ ضرب الجوع القاهرة، وأصبح الناس في مصر على أقبح حال من الأمراض والموت وشدة الغلاء وانعدام القوت، وكثرة الخوف من فئات الذعار والشغار وغيرهم ممن ينتهز مثل هذه الأزمات.

أما في عهد المستنصر بالله فقد حلت الأمراض وعم القاهرة الوباء والقحط، والذي يعتبر أطول وباء عرفته مصر في العصور الوسطى، ممتداً ثماني سنوات: ١٠٥٤ – ١٠٦٢م فوصلت أعداد الموتى في اليوم إلى عشرة آلاف نفس.

ثم تعود الأمراض تتفشى في مصر بصورة أوسع عند حصول (الشدة العظمى) في الفترة الممتدة ما بين ١٠٦٥ – ١٠٧٢م.

وجهة نظر حول هذه المجاعات

يبدو أن وصف المجاعة التي مر ذكرها فيه الكثير من المبالغات، فالمؤرخون الذين تحدثوا عن هذه المجاعات مثل ابن إياس والمقريزي عاشوا أيام دولة المماليك والتي تلت عصر الأيوبيين، أي كانت تفصلهم عن أيام الدولة العبيدية عشرات السنين، ويبدو أن التناقض المذهبي لعب دوراً في المبالغات وربما عدم ذكر الحقائق أحياناً. فنرى مثلاً قصة المرأة التي اختطفها ذلك الرجل وطرحها على الأرض وأخذ يقص من عجزها لأكله ثم تمكنت من الهرب والتبليغ عنه، فوجدوا في بيته آلاف الجثث كما ورد، وإن كنت في سرد الرواية ذكرت أنها مئات للابتعاد عن المبالغة، أما في المرجع فذكر الرقم بالآلاف. فهل يعقل أن يحتفظ أحد بآلاف الجثث في مسكنه وهي القابلة للتحلل والتعفن وإخراج الروائح الكريهة وجلب الحشرات والديدان، ثم أين كان هذا الرجل يحتفظ بهذه الآلاف؟ كذلك فإن المجاعة الموصوفة

ذُكر أنها وقعت في مدينة القاهرة، والمعروف أن الدولة العبيدية كانت تبسط سيطرتها على كل أنحاء مصر مع بلاد الشام. فلماذا لم تأتِ هذه الدولة بالأقوات لسكان القاهرة من الأقاليم المجاورة كالمنوفية والشرقية والمنصورة وغيرها، لاسيما أن الدولة لم تكن في حالة حرب ووسائل النقل لم تكن مُهددة. سؤال يطرح نفسه للإجابة.

وكذلك قصة النساء اللائي أردن الذهاب إلى العراق وهن على ما هن عليه من الجوع وفقدان مقومات القوة، ألم يكن من الأولى لهن الذهاب إلى مناطق قريبة من القاهرة، أم هل ذُكرت العراق بالذات لسبب مذهبي وسياسي؟ أما قضية دفن الموتى ليلاً لكي لا يراها السكان فينقلوها إلى بيوتهم لأكلها، وهي جثث لا بد أنها عاشت المجاعة وليس بها ما يؤكل. بل كان الأولى أكل الحيوانات مهما كان نوعها من أكل جثث الموتى.

من المؤكد حدوث المجاعة، وكانت تحدث في أماكن مختلفة من العالم، ولكن المبالغات في وصف هذه المجاعة كانت كبيرة، لا سيما وأن فترة زمنية طويلة كانت تفصل حياة من وصف هذه المجاعات وبين حدوثها وخلال هذه الفترة كان كل راوٍ يبالغ عن الذي سبقه إلى أن وصلتنا كل هذه المبالغات. والله أعلم...

جوانب أخرى من الحياة في العصر الفاطمي

مجالس المناظرة والعلم

كانت سياسة العبيديين تقضي بنشر المذهب الإسماعيلي لذلك أقيمت المجالس العلمية، لشرح أصول هذا المذهب في المساجد والقصر، ومن ثم في دار العلم، ثم لتعود المجالس وتستقر في المساجد.

مجالس الدعوة

كانت مجالس الدعوة تعقد في المساجد وفي القصر العبيدي بالإيوان الكبير، فيقرأ داعي الدعاة على الناس المحاضرة التي أعدها خصيصاً لذلك دعاة الإسماعيلية أمثال: أبي حنيفة النعمان، ويعقوب بن كلس، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، كما يقرأ عليهم أحياناً من مصنفاته، وكانت هذه المجالس تعقد للناس بحسب المراتب، فأفرد لآل علي مجلس، وللخاصة وأهل الخليفة وشيوخ الدولة مجلس، ولمن يتصل بالقصور من الخدم وغيرهم مجلس، وللعامة والطارئين من البلاد الأجنبية مجلس، وللحريم وخواص نساء القصور مجلس خاص بهن في مجلس الداعي أو في الجامع الأزهر.

والملاحظة الجديرة بالاهتمام أن الداعي عندما يفرغ من محاضرته على المؤمنين أو المؤمنات، يحضرون لتقبيل يده، فيمسح على رؤوسهم ويباركهم على ما يبدو.

المعروف أن الدولة العبيدية كانت دولة شيعية إسماعيلية وهي التي يقف تسلسل الأئمة عندهم عند إسماعيل بن جعفر الصادق.

خرج مؤسسها عبيد الله المهدي من بلدة السلمية قرب حماة وذهب إلى تونس وهناك أقام الدولة والتي امتدت إلى بعض أجزاء المغرب العربي، ثم فتحت مصر

بقيادة جوهر الصقلي وأصبح لها مذهباً شبه مستقل عن بقية المذاهب الشيعية وإن كان الكل يدعي التمسك بآل البيت وحقهم في الخلافة. والإسماعيليون يتواجدون الآن في سوريا خاصة في السلمية المدينة التي انطلقت منها الدعوة. وكذلك يتواجدون في اليمن وجنوب غرب السعودية وفي الهند ويعرفون هناك (بالبهرة).

الفتن والاضطرابات

عرف المجتمع المصري أوضاعاً متقلبة بتقلب الوزراء ومدى سيطرتهم على الحكم في البلاد، ورافق هذه التقلبات السياسية اختلاط عناصر بشرية متعددة الأصول لا ترتبط فيما بينها بأية روابط يمكن أن تشدها إلى بعض فتتآلف، بل كانت تتناحر وتتقاتل فيما بينها محدثة الفتن والاضطرابات الداخلية، يضاف إلى ذلك الشدائد من جفاف وفيضان وحرائق وأوبئة وجراد وزلازل مما يتسبب في إفقار الناس وبالتالي إثارة الفتن بينهم.

وعانى الشعب المصري كثيراً أيام خلافة الحاكم بأمر الله والمعروف عنه مزاجيته وتقلبه وما كان يأتي به من قرارات غريبة ثم يتراجع عنها وما إلى ذلك.

وكان من قراراته تحريم بعض المآكل والمشارب، من ذلك أنه نهى عن شرب وبيع الفقاع (شراب من الشعير بلون شراب الرمان وسمي كذلك لما يرتفع في رأسه من الزبد) ومنعه لأن علياً بن أبي طالب كان يكرهه، وعده الخليفة من المسكرات، ثم نهى عن أكل الدلنيس وهو نوع صغير من السمك لسبب بقي إلى الآن مجهولاً، وبعدها نهى عن أكل وبيع كافة أنواع السمك الذي لا قشر له. ومن خالف من السماكين كان جزاؤه القتل. وربما كان هذا الأمر بإيعاز أو تأثير من اليهود أوحي به إلى الحاكم بأمر الله، لأن التوراة نصت على تحريم السمك الذي لا حراشف له.

كذلك أصدر أمراً بمنع تربية الكلاب، فقتلت كلها باستثناء كلاب الصيد، كذلك منع بيع الترمس لأنه يضر بالصحة. ونهى أيضاً عن ذبح البقر السليم وخاصة منها المعد للحراثة، إلا في عيد الأضحى. ومنع سنة ١٠١١م بيع الزبيب وطلب من التجار عدم استيراده، وفي هذه السنة منع بيع العنب، وأرسل جنوده فقطفوا كل أشجار الكرمة وألقوها للثيران لتأكلها.

وواصل الحاكم بأمر الله منعه لبعض أنواع الأطعمة والأشربة، حتى شملت ممنوعاته العسل. وتم جمع خمسة آلاف جرة عسل ألقي بها في النيل فأهرقت. ومنع أيضاً بيع الرطب وأحرقت كميات منه.

كما أصدر أمراً بمنع زراعة أنواع من النباتات والخضراوات، فأصدر سنة ١٠٠٥م سجلاً منع بموجبه زراعة وبيع الملوخية لاعتقاده بأنها كانت الأكلة المفضلة عند معاوية بن أبي سفيان. كما نهى عن أكل الجرجير وسبب ذلك هو أكل السيدة عائشة له... كما نهى عن أكل القرع وشدد على الفلاحين بعدم زراعته وزراعة الملوخية وأخذ مواثيق عليهم بذلك.

كما منع أكل المتوكلية المنسوبة إلى المتوكل على الله الخليفة العباسي، والذي قام بهدم قبر الحسين بن علي بكربلاء وما حوله من المنازل والدور، وأمر بحرث الأرض وبذرها وريّها، ومنع الناس من المجيء إليه أو زيارته.

وبما أن الملوخية تعتبر الأكلة الشعبية عند المصريين فقد أرسل الحاكم عيونه يتجسسون على من يأكل الملوخية. فألقي القبض على جماعة منهم، فضربوا بالسياط، وطيف بهم في الشوارع ثم ضربت أعناقهم.

وإلى جانب كل هذا فقد عانى الشعب المصري كثيراً أيام خلافة الحاكم بأمر الله، فقد عم القتل بين فئات المجتمع المختلفة. وحدثت فتنة شديدة بين الأتراك

والمغاربة. كما حدثت فتن طائفية، بسبب جور بعض أهل الذمة ممن وصل فيهم إلى الحكم، ذهب ضحيتها العديد من الناس.

التهتك التعبيدي

ظهرت بوادر التهتك والفحشاء في المجتمع العبيدي رغم تمسك بعض الخلفاء بأهداب الدين، والوقوف من ذلك موقفاً متصلباً.

وأقبح ما ظهر من هذا، مغازلة الغلمان والتسري بهم وفشا حب الغلمان بالقاهرة وتغزل بهم الشعراء حتى غارت النساء من ذلك، فعمدت إلى التشبه بالغلمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال. وبسبب كثرة الجواري في القصور، لجأن إلى أساليب الفحشاء، وربما اتخذت كل جارية خصياً لنفسها كزوج، ومن هنا كانت عادة استخدام الخصيان في القصور لاسيما قصور الحريم، ومنع دخول الذكور من غيرهم إلى هذه القصور، وجرت عادة اقتناء الجواري من قبل النساء، إلى البقاء دون زواج لأسباب عدة وانتهى بهن هذا إلى الفساد أو الاتهام بالفساد، وكان من بين من اتهمن بالفساد أخت الحاكم بأمر الله (ست الملك). وبسبب ما أثير من الغمز واللمز عن علاقة نصر بن عباس مع الخليفة الظافر بأمر الله، عمد العباس إلى مطالبة ابنه ترك قصر الخليفة والابتعاد عنه، لا بل قتله لمحو ما تتناقله ألسن الناس.

كما أقام بعض الخلفاء العبيديون مجالس شراب وتهتك، ولا سيما منهم الظاهر لإعزاز دين الله، والمستنصر بالله والآمر بأحكام الله. ومن الوزراء برجوان الذي أكثر من حضور مجالس الشراب والملذات والتي كانت تطول حتى صباح اليوم التالي.

وفي عهد الظاهر لإعزاز دين الله ابن الحاكم بأمر الله، خرج المصريون بمناسبة

عيد الفصح عند النصارى إلى قنطرة القس حيث أمضوا نهارهم في اللهو وشرب الخمر رجالاً ونساءً حتى حُملت النساء في قفاف الحمالين من شدة السكر. وكان المستنصر بالله يركب الخيل في كل سنة ومعه النساء والحشم والخدم إلى مكان يسمى جب عميرة؛ حيث كان الحجاج يجتمعون قبل سفرهم إلى الحج وعودتهم. وكان يتزيا بزي من يريد الحج، ومعه الخمر محمول في القرب بدلاً من الماء يدور به سقاته عليه وعلى من معه في مجلسه هناك. وكان للأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي مجلس للشرب زينه بثمانية تماثيل لجوار متقابلات. وراجت على أيامه الخمرة وكثر من يشربها.

هذا وقد ولع العبيديون بالغناء والمغنيات، فبذلوا الأموال من أجل شراء المغنيات وإقامة مجالس الشراب والغناء والطرب. ومع كثرة الغناء والمغنين والمغنيات انتشرت الملاهي والحانات في القاهرة، حتى أصبحت المنطقة الواقعة بين الفسطاط أي القاهرة القديمة وتلك الجديدة التي بناها جوهر الصقلي بؤرة للفساد والرذيلة، بما يرتكب فيها من مخالفات على أثر شرب المسكرات وتعاطي (الحشيشة) والإفراط في الاستماع إلى المغنيات، وحضور حفلات المجون والخلاعة وعرف الغناء طريقه إلى الدور والقصور من خلال الجواري. وتفشى في المجتمع المصري في العهد العبيدي وجوه عدة من الخلاعة والمجون اتصفت بصفات عدة، وتسمّت بأسماء مختلفة، لكن أوسعها انتشاراً كان التهتك، وهو دلالة على تهتك الخلفاء والوزراء والأمراء وبعدة طرق ووسائل.

كذلك انتشر التسري والبغاء الذي ازداد وانتشر حتى فرضت الدولة العبيدية على بيوت الفحش ضريبة كسائر المهن والسلع التجارية. وبسبب الفقر عند العامة وازدياد ثروة الخلفاء والوزراء، فقد انقاد هؤلاء الفقراء لبعض القوادين الذين صوروا لهم طيب العيش بتعاطي الغناء واحتساء المسكرات والانخراط في الفحش

والرذيلة، فصار لكل من هذه الرذائل سماسرة يتاجرون بخناجر وأجساد الفقيرات اللواتي سقطن من حيث لا يدرين في الإثم، وصار للبغاء سماسرة (رؤساء) تفننوا في ترويج البضاعة التي يعرضون بتصوير أو رسم النساء على جدران الملاهي والقصور والحمامات.

هذا وقد عُرف عن الخلفاء العبيديين كثرة اقتناء الجواري حتى أصبحت عادة ألفتها السيدات فاقتنين الجواري. وكان اقتناء الجواري من قبل الخلفاء والوزراء والأمراء من باب التمتع بهن أو استيلادهن.

العادات والتقاليد الدينية

كان العبيديون يهدفون إلى نشر المذهب الإسماعيلي بين الناس. وكانت الحياة الدينية اليومية عندهم سجلاً حافلاً بشواهد التعصب الديني إزاء مخالفيهم بالمذهب أو الدين وصدرت قرارات تنم عن العداء للأديان الأخرى والمعتقدات المخالفة أحياناً كثيرة.

وتبدو صورة التعصب المذهبي لدى الخلفاء العبيديين، من قتلهم كل من يتظاهر بأنه سني، وكل من يثير الإشاعات بين الناس ويروجها عن السنة. (نعتقد أن في هذا القول للمؤرخ المقريزي مبالغة كبيرة، فلا يعقل أن يقوم رجال الدولة الفاطمية بقتل كل من يتظاهر بأنه سني فهذا أمر لا يعقل لا سيما وأن معظم أبناء الشعب المصري كانوا من السنة عند قدوم الفاطميين إلى مصر، وقد رأيناهم جميعاً على المذهب السني بعد سقوط هذه الدولة. ومما يعزز هذا الشك في هذه الرواية أن الحاكم بأمر الله عندما منع إقامة صلاة التراويح في رمضان، فيعني ذلك أنه كان هنالك طائفة من أهل السنة يقيمون هذه الشعيرة، وإلا لمن كان منعها والشيعة أصلاً لا يصلون التراويح في المساجد).

ويستمر المؤرخ في روايته فيقول: إنه في سنة ١٠٠١م ألقي القبض على رجل شامي لاتهامه بعدم الاعتراف بفضل الإمام علي، فحبسه قاضي القضاة، وبعث إليه بأربعة فقهاء للتحقيق معه وحمله على الاعتراف بإمامة علي، ولما لم يقنع أخبر الحاكم بأمر الله به، فأمر بضرب عنقه وصلبه.

ويقال بأنه أمر بقتل رجل يعرف بابن الرقاق لأنه صلى بالناس القيام في جامع عمرو بن العاص. هذا مع العلم بأن الحاكم بأمر الله أصدر قراراً يأذن فيه لكل شخص اعتناق ما يشاء من المذاهب؛ ويقال إنه بعد ذلك قتل من قرأ هذا الفرمان في مساجد مصر وهو رجاء بن أبي الحسين، وبسبب هذا التشدد والتعصب المذهبي فقد كثر الوشاة والساعين لكسب المال لقاء ترويج الأخبار الكاذبة.

ومن أعمال الحاكم الدالة على التعصب الديني المذهبي إعطاء الأوامر بوجوب نقش سب الصحابة على جدران الجوامع والشوارع والطرقات، وعلى أبواب الحوانيت والحجر والمقابر. وكتب المراسيم إلى سائر العمال في الأقاليم يدعوهم فيه إلى السب. ووصلت أعمال بعض الغلاة من الفاطميين إلى إهانة قافلة من الحجاج كانت في طريقها إلى الحج، سباً وشتماً بعدما رفض أفرادها سب السلف الصالح ولعنهم.

وكعادة الحاكم بأمر الله ومزاجيته، وبعد أن شعر بغضبة أهل السنة تجاه تلك القرارات، أمر بالعودة عن سب السلف، ولعن الصحابة، ثم أقدم على ضرب وتشهير كل من فعل ذلك بالشوارع وعلى مرأى من الجمهور ولم يمنع أحداً من أن يقول «اللهم ارحمهم، واللهم ارحمه» (هذا يدل على أن رواية قتل كل من قال بأنه سني بأنها كاذبة) وهذا ليس دفاعاً عن العبيديين ولكن لاستحالة أن يحدث ذلك لشعب معظم أبنائه من السنة ودون أن يؤدي ذلك لثورة عارمة تأكل الأخضر واليابس. أما بالنسبة لليهود والنصارى فقد اتخذ الحاكم بأمر الله وغيره أحكاماً

قاسية بحقهم، وإن كان أطباء الخلفاء معظمهم من اليهود. كذلك تولى شؤون الوزارة والإدارات لا سيما المالية الكثير من المسيحيين.

أما بالنسبة للأذان في المساجد فقد أصدر الحاكم بأمر الله مرسوماً يقضي بترك (حي على خير العمل) ويزاد في صلاة الفجر (الصلاة خير من النوم) وذلك بعد قولهم (السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله) ثم رجع إلى حي على خير العمل وترك الصلاة خير من النوم. كما أمر بمنع صلاة الضحى وصلاة التراويح.

أعياد العبيديين

رأس السنة الهجرية

ليلة أول محرم من كل عام، يحتفل بها بذبح الخراف وتقديم اللبن وجامات الحلوى والخبز وبعض الحلوى. ومولد النبي في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول. ويحتفل به أيضاً بتوزيع الحلوى المختلفة الأصناف.

الموالد الأربعة ومولد الخليفة الحاضر

ويحتفلون به بنفس الطريقة السابقة.

عيد الفطر والأضحى

إقامة الصلوات وإعداد أسمطة الطعام، وتوزيع الهبات.

عيد الغدير – غدير خم

وهو اليوم الذي يقول الشيعة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى لعلي بالخلافة من بعده. وغدير خم هو اسم المكان الذي حدث فيه ذلك. وينحر الفاطميون في هذا العيد أكثر ما ينحرون في عيد الأضحى، كما يوزعون الكسوة والهبات لكبار رجال الدولة ورؤسائها وشيوخها وأمرائها وضيوفها.

عيد النصر

يوم أطلق سراح الحافظ لدين الله من حبسه، وهو أحد زعماء الدولة ودعاتها.

ذكرى عاشوراء

يوم استشهاد الحسين بن علي ومن معه في كربلاء

ليالي الوقود

وهي ليالي مستهل رجب وليلة نصفه، وليلة مستهل شعبان وليلة النصف منه، وكانت هذه من أبهج الليالي وأحسنها أيام العبيديين لما ينال الناس فيها من أنواع البر وهم يحتفلون بهذه الليالي كاحتفالاتهم بموسم رمضان وكانت المواكب تسير في هذه الليالي الأربع يتقدم فيها قاضي القضاة ممثلاً الخليفة ممتطياً جواداً ويحيط به مجموعة من ممثلي الخليفة والحجاب والقراء ومؤذني المساجد المختلفة يسبحون بحمد الله ويدعون للخليفة.

كما كان للمسيحيين أعيادهم الخاصة والمعروفة مثل الميلاد والغطاس وخميس العهد وعيد الصليب وعيد النوروز ويرجع الاحتفال به إلى الأقباط.

(لافال) رئيس حكومة فيشي الموالية للنازية

كيف دافع عن نفسه أمام المحكمة

لا بأس من أن نبدأ الموضوع بمقتطفات من رسالة بعث بها ((لافال)) لابنته (جوزيه دي شامبران) قال فيها: ولكن روحي ستبقى حية فلا تترك أبداً. سأكون معك ومع أمك كيلا تفقدا شجاعتكما. لا تفكري يا بنية في أن تنتقمي لي، وبما أنك لن تخجلي من انتسابك إلي فدافعي عن ذكراي. إعملي ذلك وأنت تعتقدين بأنني سأجد مكاني مرة أخرى في قلوب الكثيرين من الشجعان. إن فرنسا تعرف كلها أنني مُنعت من الكلام والدفاع عن نفسي. وستتساءلين يوماً عن الدواعي والأسباب، فلتكن تضحيتي على الأقل درساً صالحاً لأولئك الذين أصيبوا ظلماً، أو هم في طريقهم إلى مثل هذا الظلم لأنهم أرادوا ما أردت من خدمة بلادي يوم كانت بائسة منكودة.

وتقول ابنته التي أُرسلت إليها الرسالة المذكورة آنفاً بأنه وبعد نزول القوات الأمريكية في شمال أفريقيا قرر والدها الذهاب إلى ألمانيا لمقابلة هتلر، وتقول الابنة أنها رجته متضرعة أن يترك السلطة، فرفض، وبينت له أنه لن يفيد بلاده شيئاً، فأجاب: إن الألمان سيكونون أكثر قسوة، وقسوتهم ومطالبهم ستزداد بازدياد هزائمهم العسكرية، إن ترك السلطة يا بنية هرب من الواجب. فيجب أن أبقى لأحمي الأسرى المسرحين واللاجئين والألزاسيين واللورانيين والشيوعيين والبنائين الأحرار (الماسون) ولئن رحلت فستنقلب فرنسا إلى مجزرة يدفع فيها آلاف الفرنسيين دماءهم ثمناً لجبني. أنظري ماذا يحدث في بولونيا والبلقان وكل مكان آخر.

هذا وقد اتهم (لافال) بالخيانة العظمى ضد أمن الدولة الداخلي وبالتجسس لحساب العدو. ولكن أحد محاميه يقول بأنه أتى بالخيانة، ولكنه لم يستنطق عن مهمته في المجلس الوطني والأسباب والشروط التي دفعت به إلى السلطة أثناء الاحتلال ومفاوضاته مع الحكومة الألمانية.

ويقول محامٍ آخر إنه وفي السادس من تشرين الأول ١٩٤٥ قرأ (لافال) رسالته التي أرسلها إلى حافظ الأختام، يسأله فيها نشر أخبار قضيته في الجريدة الرسمية، فرفض طلبه واحتج على ذلك، ولكن دون جدوى. وهنا تأكد للجميع أن بيير (لافال) قد حكم عليه من قبل قضاته مسبقاً. وأمام هذا التمييز الظاهر وإهانات وتهديدات قضاته صرح (لافال) قائلاً:

سترتكب جريمة قضائية أريد أن أكون ضحيتها ولكنني أأبى أن أكون شريكاً فيها، ثم بارح قاعة المحكمة والتي استمعت أثناء غيابه وغياب محاميه إلى ثلاثة من الشهود. وفي جلسة أخرى تعهد القضاة بالامتناع عن إهانة (لافال) وتهديده. وكان ذلك في جلسة عقدتها المحكمة العليا في الثامن من شهر تشرين الأول (أكتوبر). ولكن في اليوم التالي ٩ تشرين الأول صدر الحكم بالموت على (بيير لافال) ودون أن يسمع أحد صوته ويقول محاموه بأن الجنرال ديغول كان وراء كل ما جرى في محاكمته.

والحقيقة أن (لافال) لم يكن جديداً على عالم السياسة الفرنسية فقد كان عضواً في الحزب الاشتراكي الفرنسي، وكان وزيراً لمرات كثيرة، ورئيساً لمجلس الوزراء مرتين، أما ثروته الخاصة فقد تبعت أقداره السياسية.

هذه كانت الحيثية الأولى لاتهام (لافال)، وهو أنه رجل أتى من أحزاب متطرفة أظلته وطردته، كذلك الإشارة إلى ثروته، أما (لافال) فقد رد على هذه التهم بقوله:

سجن فرسن ١١ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٥...

سيدي الرئيس...

إن الأحزاب المتطرفة لم تنكرني في يوم من أيام حياتها الانتخابية. فقد كنت دائماً محلاً لثقة منطقتي منذ سنة ١٩١٤ ودون انقطاع. كذلك انتخبت عام ١٩٣٥ في منطقتين رغم أنني الذي أصدرت قراراً بمنع ذلك، ولا يخفى عليكم أن الأكثرية الساحقة من سكان المنطقتين يسارية متطرفة. ومن هنا ترون أن الأحزاب المتطرفة لم تنكرني يوماً.

إنني أحفظ ذكرى مؤثرة لشبابي المناضل الأول، ليس لأنها متعلقة بهذا الشباب فقط، بل لأنني وجدت آنذاك من مظاهر الحماسة والتجرد والشهامة في العواطف ما لم أستطع أن أجده في مكان آخر. لقد انطبع في نفسي منذ ذلك الوقت حب السلام والعمال والبسطاء، وحب الحرية. ويكفي أن قانون مرتب العائلة كان من صنع يدي، وكذلك قانون الضمانات الاجتماعية.

أما فيما يتصل بالحرية، فقد آلمني خسرانها، خاصة أثناء الاحتلال ما جعلني أعتقد أن لا شيء يدوم تحت الضغط والإرهاب.

أما بالنسبة للمناصب الوزارية التي تسلمتها ومنها رئاسة الوزراء ولثلاثة مرات لا مرتين كما ذكرتم، هذا عدا عن رئاستي للحكومة أثناء مرحلة الاحتلال.

وهذا دليل جدارتي وإخلاصي وأمانتي، لا سيما وأن كل ذلك جرى أمام صحافة حرة وبرلمان منتخب من الأمة. وكنت أنا من تصدى لأزمة الفرنك عام ١٩٣٥ يوم هرب الجميع من المواجهة، واضعاً في الميزان شعبيتي وسمعتي. خوفاً مني على وطني أن تنهار قواعده المالية.

إنني فخور بأصولي المتواضعة الأولى، ولهذا لم يكن للهجمات التي شنت علي

أي أثر في نفسي.

أما بالنسبة لثروتي المالية فقد كنت أعتقد دائماً أن الاستقلال المادي هـو خـير كفالة لحياة رجل السياسة.

وكان من ضمن التهم التي وجهت إلى (لافال) أنه كان علـى رأس مـن دعـوا إلى الهدنة عندما تتابعت حوادث سنة ١٩٤٠ وكان اسمه في أول القائمة التي قدمها (بيتان)إلى (لوبران) إثر استقالة (بول رينو)، ثم محي اسمه وقتياً، وظهـر بعـد ذلـك بثلاثة أيام، أما مهمته بعد هذا التاريخ فظاهرة واضحة.

وكان رد (لافال) على التهمة، أنه قام أثناء حياته السياسية بمفاوضـات كـثيرة مع السـلطات الأجنبيـة، وخبرتـه في شـؤون الحكـم لا تنكـر، وبيتـان كـان يعتقـد بضرورة تعاوني معه في تشكيل الحكومة. ورفض تهمة أنه أجبر رئـيس الجمهوريـة والوزراء على الذهاب إلى شمال أفريقيا لمتابعة الحكم والنضال.

وقال إنه كان من الطبيعي أن يقبل بالهدنة أو يدعو لها كفرنسي ولكن هـذا لا يعني القبول بالشروط التي فُرضت على فرنسا في (روتند). وبالنسبة للتهمة الموجهة بمنع ذهاب الحكومة إلى شمال أفريقيا، فقال إنه تحدث بصفته عضواً في البرلمـان ولم يكن يتمتع بـالنفوذ والقـوة اللـذين يحـولان دون تحقيـق مقاصـد الدولـة ونياتهـا. فالحكومة ذاتها لم تكن جادة في محاولتها.

أما مبررات عقد الهدنة من وجهة نظر ((لافال)) فلأن الجيش الفرنسي آنـذاك كان في حالة من الفوضى والضعف، بحيث عجز القائد العام عن إبـلاغ أوامـره إلى مختلف القطع المتقدمة التي كانت تقع باطراد في قبضة العـدو. والهدنـة حالـت دون وقوع بقية فرق الجيش بالأسر. وبالتالي خسران مئات ألوف اليد العاملة.

ومن التهم التي وجهت إلى (لافال)، أنه عمـل علـى تسـليم السـلطة الكاملـة

للماريشال بيتان، وهذا يعتبر جريمة اعتداء على أمن الدولـة وأن مثـل هـذا النظـام الفردي لا يمكن أن يتحقق إلا بمساعدة الغزاة الألمـان، وكـان القـانون الـذي حـرم اليهود من حقهم العام بمثابة خطوة أولى في طريق التقليد الذليل للغالبين.

أجاب ((لافال)): بأنه يجب أن نضـع حالـة فرنسـا عـام ١٩٤٠ بـين شـهري حزيران وتموز موضع النظر والتحقيق لنرى أن البرلمان لم يكـن بحاجـة إلى التهديـد والتآمر ليتنازل فيمنح الماريشـال السـلطات التامـة في الحكـم. فالبرلمـانيون أحسـوا إحساساً قوياً بآلام فرنسا لما شاهدوه من مناظر مؤلمة أثناء نـزوحهم إلى بـوردو مـن قوافل تسير بالعشرات والمئات وطائرات العدو تقـذفها دون رحمـة. وبالتـالي فـإن الأكثرية الساحقة من البرلمانيين والجماهير كانت تثق ثقة تامة بالماريشال بيتان. وقد قرروا حاقدين على رجال الحكومة السابقة وضع السلطات التامة في يد الماريشال.

هذا مع اعترافي كما يقول (لافال) بأن هنالك فئة من الفرنسيين بقيت تناضـل حتى تحقيق النصر.

وحمل (لافال) البرلمان ما قبل الحرب المسؤولية لأنه لم يستجوب الحكومة عما تملكه من عتاد وجنود ومدى استعداد البلاد لدخول حرب عالمية كهذه. وقـال إنـه أبلغ مجلس الشيوخ في الثاني من أيلول ١٩٣٩ بالامتنـاع عـن الاقـتراع إلى جانـب الحرب. ففرنسا لا تستطيع الدخول في الحرب دون موافقة البرلمـان والـذي لم يـدعَ للانعقاد لمناقشة الدخول في الحرب.

ثم يقول بأن النواب والشيوخ جميعاً يعلمون أن هتلر سيكون قاسياً مع رجـال السياسة فيما لو فاوضوه، لذلك عملوا على التقليل مـن الخسـائر بإعطـاء (بيتـان) سلطات استثنائية فإسمه كان على كل لسان في فرنسا.

ثم ينتقل (لافال) إلى نظرته للسياسة الداخلية أيام حكومة فيشي ويعلـن بأنـه

كان على خلاف مع الماريشال بشأن سياسة الوطن الداخلية. وكان من ذلك أن الماريشال كان يصدر القوانين والقرارات دون الرجوع لمجلس الوزراء. ويقول بأنه شعر بالخطأ لأنه وافق على منح (بيتان) سلطات استثنائية. وكذلك عارض (بيتان) لعدم إصداره دستوراً جديداً وتقدمياً لفرنسا.

ثم ينتقل (لافال) للحديث حول التهمة التي تقول بأن سلطته المطلقة لم تستقر نهائياً إلا بمساعدة الغزاة الألمان وتطبيق أساليبهم التعسفية. يرد على هذه التهمة بالقول بأن سلطات الماريشال (بيتان) كانت مطلقة. وأنه كان من أوائل ضحايا هذه السلطة حينما أبعد عنها من ١٩٤٠ – ١٩٤٢. وكما أنه لم يكن له الحق في اختيار الوزراء بل أعوان الماريشال، وهو الذي عبر عن روحه الديكتاتورية تعبيراً قوياً في القرارات التي كان يصدرها مبتدئة بقوله (نحن فيليب بيتان) وقد جهدت الدعاية في تصوير الماريشال بطلاً لفرنسا بكل وسيلة ممكنة، فامتلأت الساحات بتماثيله وصوره، وكانت الصحف تشير إلى كل حركة من حركاته، كما عرف الناس نشيد الماريشال ومداليات الماريشال وعملة الماريشال. حتى أن فرنسا لم تعرف في تاريخها مثل هذه الدعاية لشخص واحد. إذن فأنا لا يمكن أن أحاسب على أية إجراءات فقد عزلني الماريشال عملياً وأبطل كل سلطة لي في حقل السياسة الداخلية. لقد كان الماريشال زعيماً للدولة ورئيساً لها غير مدافع مع جهله بالإجراءات الوزارية هو ووزراؤه الجدد الذين انتخبهم وعمل معهم بصورة مباشرة. ولم تكن تعرض على المجلس الوزاري إلا المسائل ذات الأهمية الخاصة لتدرس من الناحية الشكلية فقط.

وقد أثبت اعتقالي في ١٣ كانون أول (ديسمبر) أول سنة ١٩٤٠ ضعف سلطتي هذه، وقلة شأني في كل قضية من القضايا العامة أما بالنسبة لمعاملة اليهود السيئة فيقول (لافال) بأنه لم يملِ القانون المتعلق باليهود، ولكن الألمان هم من

فرضوا هذه القوانين فرضاً.

ومن التهم التي وجهت إلى (لافال) بأن الألمان هم الذين ضغطوا على الماريشال لإعادته إلى الوزارة بعد أن أقصي عنها عام ١٩٤٠. وكان هذا الرجوع عام ١٩٤٢.

وحول ذلك يقول (لافال) إنه عاد بفضل مهارته ولباقته وبعد أن كسب ثقة المحتلين واحترامهم. وأنه كان يؤلمه أن يترك الحكم لمعاوني الماريشال الذين يصفهم بالخداع والكذب والجهل مع عدم الإخلاص لوطنهم فرنسا. ويقول بأن الألمان كانوا بحاجة لأمثاله لكي يكون التعاون بين فرنسا المحتلة والمحررة قائماً على نوع من التفاهم وحسن الإدارة والعلاقة، ولأنني كنت على يقين بأن هذا التفاهم مع الألمان سوف يمكنني من خدمة أبناء شعبي، وذلك بإطلاق الأسرى وتقليل تكاليف الاحتلال وإعطاء قسط من الحرية للفرنسيين سواء في فيشي أو في بقية أنحاء فرنسا المحتلة، إلى جانب المحافظة على وسائل الإنتاج الزراعي والصناعي في وطننا قدر الإمكان. وفي الوقت نفسه تخليص أكبر عدد ممكن من أبناء الشعب الفرنسي من قسوة الألمان لا سيما بعد أن وصلتنا أخبار هذه المعاملة في البلقان وغيرها. وإلى جانب ذلك فقد قال (لافال) بأنه لم يكن يعتقد بإمكانية هزيمة ألمانيا. وأنه فكر دائماً في أن فرنسا لا يمكنها أن تقبل باقتطاع أي جزء من إمبراطوريتها، وأن ألمانيا لا يمكنها أن تنظم أوروبا دون مساعدتنا. ولو انتصرت ألمانيا انتصاراً حاسماً وهي حليفة للروس لاستطعنا أن نجعل من الحكومة الروسية كفة ثقيلة نوازن بها ونقابل الكفة الألمانية الراجحة.

ثم ينتقل (لافال) للدفاع عن نفسه حول كون السياسة الفرنسية في عهده أصبحت سياسة ألمانية بحته – من اضطهاد لليهود والبنائين الأحرار (الماسون) والشيوعيين ورجال المقاومة وإلحاق رجال الشرطة بالجستابو (رجال الشرطة

السرية الألمان) ثم إيقاف نحو ٢٣ ألف رجل وامرأة في باريس ليل ١٥ – ١٦ تموز حول هذه التهم يقول (لافال): بأنه لم يشارك أبداً في إصدار القوانين المتعلقة باليهود سنة ١٩٤٠، وأن مشكلة اليهود في فرنسا كانت موضوعاً تهتم به بعض جماعات متناثرة أما في ألمانيا فإنها ذات صبغة رسمية لها جلادوها وموظفوها وفلاسفتها أيضاً، ولقد اختبأ عشرات الألوف من اليهود في فرنسا قبل الحرب، وكان من الطبيعي أن يخضعوا للسلطة الألمانية بعد انهزام فرنسا. ولقد حاولنا جهدنا الدفاع عن اليهود الفرنسيين وقمنا بإجراءات رحيمة ضدهم، أرضينا بها الألمان وأبعدنا عنهم جرائمهم القاسية. وقد أمرت بحل المنظمات المتعصبة والمتعاونة مع الألمان في القيام بأعمال ضد اليهود. ورفضت إصدار كثير من القوانين التي حاولت الهيئات الألمانية فرضها علي وكان من طبيعتها زيادة الضغط والشدة على اليهود وتقييد حريتهم المدنية والسياسية، كما امتنعت عن إصدار القوانين المتعلقة بإنصاف اليهود. وقد طلب مني الألمان بعد أن احتلوا جنوب فرنسا أن أصدر قانوناً يحتم وضع نجمة صفراء على صدر كل يهودي والإشارة إلى مذهبه في تذكرة الهوية للتفريق بينه وبين سائر أفراد الشعب، فرفضت الأول وقبلت الثاني. وبذلك حلت دون ذهاب اليهودي الفرنسي إلى ألمانيا للعمل في مصانعها. ثم أبيت على الألمان مصادرة أثاث المنازل اليهودية التي هجرها سكانها للتعويض بها على الفرنسيين والألمان الذين أصيبوا بقنابل الحلفاء. وكل هذا يؤكد صدق عزيمتي على تحرير اليهود الفرنسيين وكنت عندما أسأل الألمان عن الوجهة التي إليها يقصدون بضحاياهم أجابوني إلى بولونيا لتأسيس دولة يهودية فيها.

ولقد اتهمت أنا شخصياً يقول (لافال) بأنني يهودي ثم إن امرأتي يهودية برتغالية. إنني لم أكن يهودياً يوماً عدواً للسامية. وقد قمت بالاحتجاج على قرار الألمان القبض على جميع اليهود اللاجئين إلى فرنسا، وعملت على إنقاذ اليهود

الفرنسيين وترك الآخرين لمصيرهم.

أما بالنسبة لقضية الماسون فيقول (لافال) – بأنه لا علم لـه بالقـانون المتعلـق بهم الصادر سنة ١٩٤٠. وكانت قضيتهم أحـد الأسـباب للخـلاف مـع الماريشـال بيتان والذي كان يعتقد اعتقاداً راسخاً بأنهم هم سبب آلام فرنسا، وأنهم مجرمـون. وقد بينت له أنهم كغيرهم فيهم الصالح والطالح لا سيما وأنهم جمعية سرية وأنهم ليسوا أقل وطنية من غيرهم. ولقد حاولت حل ومقاومة منظمـات أنشـأها الألمـان لمحاربتهم وبتوجيه من رجـال الغسـتابو. ولم أوافـق علـى إذاعـة أسمـاء البنـائين في الصحيفة الرسمية فقد سببت أضراراً لكثير من رجالات فرنسا. وكنـت أود القيـام بعمل حاسم لصـالحهم ولكـن الألمـان والماريشـال كـانوا مصـممين علـى الموقـف المعادي لهم.

أما بالنسبة للشيوعيين فإنني لم أشارك يوماً في اضطهاد الشيوعيين وإخـراجهم إلى أفريقيا، وقد حذفت من القانون العرفي كلمة شيوعي وحررت آلاف الشيوعيين من المعتقلات كما كنت أطلب من المحافظين التمييز بـين رجـال المقاومـة والمجـرمين المخربين.

أما التهمة الموجهة إلى ((لافال)) بأنه (تمنى أن تنتصر ألمانيـا) فإنـه يقـول بـأن إطلاق الحكم لا يصح إلا بعد تقدير الظروف والمناسبات المحيطة، فكفة ألمانيا كانت راجحة عندما قلت هذا، ومن ناحية أخرى فقد كنت أعتقـد بـأن هـذا يخفـف مـن عنت الألمان وشدتهم، ولو لم أفعل هذا لنكبت فرنسا بما نكبت به كل بلدان أوروبا الأخرى. إن مثل هذا القول هو الذي كان يسمح لي بمعارضة الكـثير مـن مطالـب الألمان. فقد كنت أقول لهم: إنكم تعاملوننا معاملة الغالب للمغلوب ثم تطلبون منا أن نعمل كحلفاء معكم، إنكم تشكون الفرنسيين وأنتم أنفسـكم تـثيرون بمطـالبكم التهمة التي لا تتفق ومصلحة البلد، وكانوا دائماً يعـدلون عـن مطـالبهم بعـد كـل

مناقشة أو اجتماع.

ثم يقول: لا ننسى أيضاً أن باريس كانت تعج بالشخصيات المتعاونة مع الألمان والتي كانت مستعدة للسير معهم إلى النهاية، لو استطاعت إبعادي عن الحكم. ولقد عبرت في تصريحي هذا أي التمني بانتصار الألمان عن خوفي من انتشار الشيوعية في بلدان أوروبا، كما أنني استطعت بفضل هذا التصريح رفض اشتراك فرنسا الفعلي في العمليات الحربية.

وعندما نزل الأمريكان في شمال أفريقيا جاءني مندوب ألماني يحمل اقتراحاً من هتلر بالتحالف العسكري بين الحكومتين الألمانية والفرنسية وطالب بالجواب السريع الحاسم. وبعد الاجتماع مع بيتان قررنا رفض الاقتراح. وعاد المبعوث الألماني ليخبرني بأن علي الذهاب إلى ميونخ لمقابلة هتلر في اليوم التالي.

ويستطرد (لافال) قائلاً إن الألمان كانوا يعدمون مئة من الرهائن كلما قتل ضابط ألماني صغير، وتساءلت: ما الذي سيفعله الألمان عندما نخبرهم برفضنا التحالف معهم؟

يقول (لافال): إنه أخيراً اجتمع مع هتلر الذي كان هادئاً جداً. واكتفى بأن يوكد عزمه الصريح على طرد الأنجلو سكسون من شمالي أفريقيا، وقال يجب أن تعرف بأن فرنسا لن يبقى لها إلا المستعمرات التي أحسنت الدفاع عنها.

كان الاجتماع قصيراً جداً لم يحدث فيه ما كنت أتخوف منه لأن هتلر كان يأمل أن يشترك الجيش الفرنسي أو قسم مهم منه في مقاومة الحلفاء. وهكذا رفضت التحالف مع ألمانيا وإعلان الحرب على الحلفاء. وفي سنة ١٩٤٢ تسلمنا إنذاراً من الألمان بضرورة إعلان الحرب على أمريكا واشتراك الفرق الإمبراطورية في الأعمال الحربية في أفريقيا، على أن يكون الجواب خلال أربع وعشرين ساعة، وإذا تم

الرفض فسنعامل معاملة تشبه المعاملة البولونية، وأبلغنا الألمان بأن جيشنا قد تقطعت أواصره ولا أدري ما إذا كنا نستطيع تكوينه من جديد ثم اكتفوا باشتراك بعض عناصر متعاونة حاربت في الجبهة من مؤسسة دوربو المسماة (ب – ب – ف).

إذن أنا لم أتعاون مع الألمان يوماً، وكان المسؤول المباشر عن القوات هو الماريشال (بيتان).

وفي ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) جاءني أخبار استيلاء الألمان على الأسطول الفرنسي الموجود في ميناء طولون. وبالنسبة لهذا الحدث فقد اتهم (لافال وبيتان) بأنهما آثرا أن يخرب الأسطول ويفرق على أن يشترك في العمليات البحرية مع الحلفاء، ومع أن هزيمة ألمانيا أصبحت مؤكدة فإن (لافال) المعاند بقي يخطب على ملأ من الناس مهدداً الخونة والمارقين والمقاومين ومؤكداً انتصار ألمانيا التي لا تغلب. لقد سلم (لافال) بلاده إلى المحتل فخانها سياسياً وأخلاقياً. ويرد (لافال) على هذه التهم بالقول أن هذه أقرب إلى صحيفة معادية يومية منها إلى لائحة قانونية.

ويستطرد قائلاً: إنني لم أعرف ما حدث إلا بعد أن أبلغني الوزير الألماني صباح السابع والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤٢ بأن فرقة من الألمان قد أحاطت بالأسطول. كان الأميرال (دارلان) هو المسؤول عن القوى البحرية كلها فلما انتقل إلى شمال أفريقيا تحددت المسؤولية إلى الماريشال نفسه بالاتفاق معي. فلم يكن من واجبي إذن سوى الإشراف على الوزارات المدنية، هذا مع العلم أن الجيش قد حلت صفوفه وتناثرت بقاياه، فأصبح أثراً بعد عين.

احتججت بشدة وبتقزز عنيف، وقمت بالتداول مع الماريشال (بيتان) حول الموضوع.

إن أمر التخريب لم يصدر مطلقاً من قبلي ولكنه صدر عن (دارلان) بعد الهدنة مباشرة. فتلقى الضباط أمراً بعدم تسليم سفنهم إلى أية قوة أجنبية، لاسيما وقد وعدنا البريطانيين قبل الهدنة بألا نسمح للألمان باستعماله بأية طريقة ممكنة. وأما الألمان فقد اشترطوا علينا في اتفاقية (رتوند) بألا نسلم الأسطول إلى أعدائهم البريطانيين والأمريكيين وقبلوا بتركه بين أيدينا. وهذان الاتفاقان المختلفان هما اللذان دفعا بالحكومة والأميرال (دارلان) سنة ١٩٤٠ إلى منع تسليم القطع البحرية إلى أية قوة أجنبية.

كان من السهل الحديث من الجزائر أو لندن عن التعاون وضرورته، أما في فرنسا فكان ذلك مستحيلاً وكان وراءه إعدام عشرات الآلاف من الفرنسيين وخرق مواد الاتفاقية المعقودة يوم الهدنة.

والسؤال المطروح هنا لماذا لم تحاول قطع الأسطول الهرب؟

الفنيين يعتقدون بتعذر ذلك، ولكن بعض القطع استطاعت الإفلات.

لقد كان إغراق الأسطول ضربة شديدة حطمت أعصابي وأنا الذي كنت أنتزع المال من خزانة الدولة لتموين قطعه وجيوشه، إن الأسطول فخر فرنسا ومجدها الشاخص، فهل يعقل وأنا المتحمس للمحافظة عليه وتنميته أن أدعوا إلى إغراقه فأفسد بذلك على بلادي جهود سنوات طويلة وشاقة كما أبرهن بذلك على بؤس فرنسا وألمها الساحق.

إن اتهامي بإغراق الأسطول إهانة لا أقبلها. ولذلك فإنني أقول بأن مثل هذه التهم تسبب الآلام التي لا وصف لها والتي يتحملها كل من يخدم بلاده وهي بائسة منكودة. لقد حاولت جهدي أن أبقي فرنسا بعيداً عن المعركة، غير موفر في سبيل ذلك كل جهد وذكاء. لقد كنت أحاول إقرار السلام مع الألمان لتوفير دماء

الفرنسيين لا لبذلها رخيصة بالتعاون العسكري معهم. لقد كنت أمام رجال كهتلر ومساعديه وأنتم تعرفون من هم، لذلك لم أكن أملك من سند غير مصابرتي وشدة حزمي، كما أنه لم يكن لي غير سلاح التفاوض والإقناع، فاستعملت كل هذه الأساليب بكل ما وسعني من دهاء وذكاء. وقد لمست قسوة أساليب الخصوم فوضعت مقابل ذلك قلبي وتجربتي السياسية القديمة. لقد ناضلت طويلاً لأحول دون المصادرة وتسفير العمال والمزارعين أو لأعجل تحرير الأسرى وتخليص المحكومين، وبعبارة أخرى حاولت أن أبقي على فرنسا حيادها لتستطيع استعادة مجدها من جديد يوم تتحرر نهائياً من قيودها وذلها، ولكنني لم أستطع أن أحفظها من الألم والعذاب. لقد عملت خير ما يمكن أن يُعمل أمام تكتل قاسٍ شديد.

أما بالنسبة للألزاس واللورين واتهام (لافال) بأنه وافق أو سكت عن ضمهما لألمانيا فإنه يقول أعلنت في تصريح لي: أن هذه معضلة دقيقة وخطيرة لا توضع أو تحل إلا بفضل تفاهم ومصادقة متبادلين بين بلدين كبيرين متجاورين فالألزاس واللورين لا تحتاجان إلى وصي وهما جديرتان بتقدير مصيرها. إنني كنت أعلم بأن التعاون مع الألمان لا يعني انتزاع فلذة من لحمنا، كما لم أفكر يوماً في مفاوضة الألمان دون أن أضع الألزاس واللورين موضع الاهتمام. لقد كنت أمام الألمان، فلاح فرنسا متمسكاً بأرضها ومصمماً على الدفاع عن تربتها. وإذا ما ذكرت في التصريح بأن الألزاس واللورين تمثلان هدفنا التقليدي من معاركنا مع الألمان فإنني أعلن حقيقة تاريخية بسيطة.

ويضيف قائلاً: وأخاف أن نخضع مرة أخرى لقانون هذا التاريخ. وأن هذا لا يعني أننا تنازلنا عن المنطقتين ولكنه إشارة إلى الواقع وهو ترقب خسارتهما عندما نخضع لسلم لا نصنعه.

وملخص ما دافع به (لافال) عن نفسه: أنه كان يقوم بواجبه لخدمة بلاده

وحتى يبقى شيء من الكيان الفرنسي وأنه عمل على حماية ملايـين الفرنسـيين مـن الهلاك أو الأسر أو أعمال السخرة في ألمانيا.

يقول بأنه لم يكن يسعى لمنصب فمنصب رئيس الـوزراء احتلـه ثـلاث مـرات قبل الحرب، وأما المال فلديه منه الكثير.

ويقول في خطاب له أمام مجموعة من الفرنسيين: وأعلـن بـأنني أقبـل باجتيـاز الأخطار شخصياً لكي أهيئ لفرنسا أكبر حظ من السلامة.

أوروبا بنظر الرحالة المسلمين الأوائل

الطهطاوي - و « تخليص الإبريز في تلخيص باريس»

كان رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ – ١٨٧٣) أول عربي في العصر الحديث ترك لنا نصاً إضافياً عن رحلة إلى بلد أوروبي. أرسله محمد علي باشا، حاكم مصر، مبعوثاً وإماماً للصلاة صحبة عدد من المبعوثين لتعلم العلوم والفنون في باريس. وكان ذلك عام ١٨٢٦ ومكث في العاصمة الفرنسية حتى ١٨٣١. عاد بعدها إلى مصر ليتولى مناصب عدة في الترجمة والتعليم والتحرير والتأليف.

وكان قبل سفره تلقى العلم بالأزهر، ثم دخل في خدمة محمد علي كواعظ في (العساكر الجهادية). ويروي لنا أن صديقه الشيخ حسن العطار هو الذي أشار عليه بتدوين أخبار باريس وتسجيل ما يصادفه من الأمور الغريبة، والأشياء العجيبة. ثم يؤكد أنه من أول الزمان وإلى الآن لم يظهر أي وصف لمدينة باريس، كرسي مملكة الفرنسيين، ولا فى تعريف أحوالها وأحوال أهلها.

وكان هدفه حث المسلمين على البحث عن العلوم والفنون والصنائع لأن «كمال ذلك ببلاد الإفرنج أمر ثابت شائع والحق أحق أن يتبع». ولكنه يعود فيؤكد للقارئ أنه لا يستحسن ما يخالف نص الشريعة الإسلامية. فهو بهذا يناقش الأمور ويصفها انطلاقاً من ثقافته وتربيته.

والطهطاوي يصنف الشعوب إلى (الهمل المتوحشين) ثم (البرابرة الخشنين) وأخيراً (مرتبة الأدب والظرافة والتحضر والتمدن) والمرتبة الثالثة تضم بلاد الفرنجة وبلاد المسلمين وذلك على رغم ما يشوب الإفرنج من عدم اهتداء إلى الطريق المستقيم (الإسلام). ثم ينتقل بعد ذلك إلى إيراد لائحة ضافية عن العلوم

والفنون وفروعها ومواضيعها المختلفة الحديثة ونراه يقول (فإذا نظرنا بعين الحقيقة وجدنا أن سائر هذه العلوم معروفة معرفة تامة لهؤلاء الإفرنج، ناقصة أو مجهولة بالكلية عندنا).

ويلجأ الطهطاوي إلى تحييد العامل الديني عبر الإشارة إلى أن أكثر أهل مدينة باريس (إنما لهم من دين النصرانية الاسم فقط) لكنه يؤكد من جهة أخرى على حرية التعبد بسائر الأديان، فلا يُعارض مسلم في بنائه مسجداً ولا يهودياً في بنائه كنيس.

يصل الطهطاوي ميناء مرسيليا قادماً من مرفأ الإسكندرية ويبدأ في سرد ما استوقفه من أمور عجيبة وأشياء غريبة. يذكر أولاً (الكرنتيكا) أو الحجر الصحي على الوافدين إلى فرنسا من الخارج ثم يلاحظ ثانياً استعمال الجميع للكراسي عند الجلوس. فالقوم هنا يستغربون جلوس الإنسان على سجادة مفروشة على الأرض فضلاً عن الجلوس على الأرض.

ويكتشف ثالثاً أن تناول الطعام يكون بالجلوس على طاولة وعبر استخدام (سكينة وشوكة وملعقة) كما أن لكل منهم صحنه وقدح مائه، فلا يأكل الإنسان بيده أصلاً ولا بشوكة غيره أو سكينته أو يشرب من قدحه أبداً، ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة. واكتشف أيضاً أن الإنسان لا بد أن ينام على شيء مرتفع (سرير) فأحضروا ذلك لنا. أما لجهة خارج المنازل فاكتشف القصور والحدائق العظيمة والبناء المحكم وعربات الخيل، إضافة إلى المقاهي. ولفت نظره استخدام المرايا في القاعات والأورقة ودخل أحد المقاهي فوقع نظره على انتشار الصحف اليومية (لأجل المطالعة فيها).

وفي مرسيليا بدأ الطهطاوي (تعلم تهجي اللغة الفرنسية) وبعد المكوث نحو خمسين يوماً، توجهوا إلى باريس، وبين مرسيليا وباريس قرى كثيرة تكاد تكون

متصلة العمران والمسافرون غالباً في ظل الأشجار المرصوصة بشكل مرتب مطرد في سائر الطرق.

ويصف أهل باريس بـ (ذكاء العقل ودقة الفهم وغوص ذهنهم في العويصات) وهم يحبون دائماً معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه. لذلك طغى عندهم الميل إلى الإبداع والتولع بسائر الأشياء الجديدة. ونراهم يبدلون ملابسهم باستمرار، ويتشوقون إلى معاشرة الغرباء، والإطلاع على عادات البلاد الأخرى. يؤدون واجبهم بوفاء وينكبّون على العمل فلا يهملون أشغالهم (سواء الغني أو الفقير) ولكنهم أقرب إلى البخل، وأصل السبب كما يراه الطهطاوي (هو أن الكرم في العرب).

ويرى أيضاً أن لديهم بعض الخصال الرديئة مثل (قلة عفاف كثير من نسائهم) ويوجز رأيه قائلاً:

وبالجملة فهذه المدينة كباقي مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت مدينة باريس من أحكم سائر بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية. والعلوم البرانية هذه قائمة على تحكيم العقل وإنكار (خوارق العادات) حيث لم يعد للدين دور أساسي في الحياة.

والعلوم البرانية المقصود بها ما خرج عن نطاق العلوم الدينية، ثم ينتقل الطهطاوي ليصف بعض جوانب العلاقات البشرية، فيبدي إشفاقه على الرجال والخيل، وذلك أن النساء بها منعمات سواء بمالهن أو بجمالهن، وأما الرجال فإنهم بين هؤلاء وهؤلاء عبيد النساء، فإن الإنسان يحرم نفسه وينزه عشيقته، وأما الخيل فإنها تجر العربات ليلاً ونهاراً على أحجار أرض باريسية خصوصاً إذا كانت المستأجرة للعربة امرأة جميلة، فإن العربجي يجهد خيوله ليوصلها إلى مقصدها عاجلاً، فالخيل دائماً معذبة بهذه المدينة.

ويتوقف الطهطاوي طويلاً عند النظام السياسي الفرنسي ويترجم الدستور الفرنسي بمواده المختلفة، ولكنه وجد صعوبة فائقة بالترجمة لا سيما في إيجاد مرادفات عربية مقابلة لما في النص الفرنسي، وهو يبدي إعجابه بنظام فصل السلطات وإعلاء أهمية القانون حيث يتساوى الجميع أمامه. ويخلص بعد ذلك ليقول إن ما يسمونه الحرية هو عين ما يطلق عليه عندنا – العدل والإنصاف.

ثم ينتقل ليصف لنا أنواع المسارح وأهمية التمثيل كأداة للتثقيف وتوسيع المدارك، وإن كانت تصاحبها في بعض الأحيان النزعات الشيطانية، أما الرقص فهو بخلاف الرقص الشرقي فن من الفنون وليس جمالاً (لتهييج الشهوات) وفي باريس كل رجل عزم امرأة يرقص معها، فإذا فرغ من الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية وهكذا، وسواء كان يعرفها أم لا، وتفرح النساء بكثرة الراغبين في الرقص معهن، ولا يكفيهن واحد أو اثنان، بل يحببن رؤية كثير من الناس يرقص معهن لسآمة أنفسهن من التعلق بشيء واحد.

وعند الحديث عن العلوم الطبية والأطباء فيقول إن (الحكماء) في باريس كثيرون جداً، حتى يوجد في كل شارع عدة حكماء بل الطرق مملوءة بالحكماء.

وهذه الحياة الباريسية تقوم على محبة المكسب، والشغف به وصرف الهمة إليه بالكلية، ومدح الهمة والحركة وذم الكسل والتواني. وكلمة التوبيخ الشهيرة عندهم هي الوصف بالكسل والتنبلة. ويلاحظ انتشار المصارف وشركات التأمين والمصارف إما تابعة للدولة أو مستقلة، وكذلك انتشار المصانع وبيوت التجارة والصناعة. ثم يصف البريد ودقة وصول الرسائل وسرعتها وانتظامها. ولكن محبة الكسب والتجارة والعمل المتواصل لا تحجب عن الطهطاوي بعض السلبيات فيقول: ولولا أن كسبهم مشوب في الغالب بالربا لكانوا أطيب الأمم كسباً.

ثم يصف كثرة الصحف وأنها ذات مشارب ومذاهب سياسية واجتماعية

مختلفة ومتضاربة. وأن هذه الصحف مختلفة الأنواع والأصناف فيتخصص كل منها بموضوع معين أو علم محدد.

وعندما عاد الطهطاوي إلى بلاده قدم كتابه إلى محمد علي باشا الذي أمر بطبعه وترجمته إلى اللغة التركية.

ويستوقفنا في نص الطهطاوي ذلك الاعتزاز بأصله العربي والافتخار به في ظل طبقة حاكمة أغلبها من الأتراك والألبان والأرمن والإفرنج. وهكذا يلخص آراءه بعد جولته الباريسية. ظهر لي بعد التأمل في آداب الفرنساوية وأحوالهم السياسية أنهم أقرب شبهاً بالعرب منهم للترك ولغيرهم من الأجناس.

وهكذا نرى الطهطاوي يختزل رحلته وكل ما بها من العجائب والغرائب بأن أقام التماهي شبه التام بين العرب والإفرنج على رغم تقدم هؤلاء في العلوم البرانية (غير الدينية).

الشدياق يكشف الغطاء عن إنكلترا

رحل أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ – ١٨٧٧م) إلى أوروبا عام ١٨٤٨ م، عاقداً العزم على الاستقرار في إنكلترا وتدريس اللغة العربية هناك. غير أن أسباباً عدة حالت دون تحقيق هذه الأمنية، وكان الشدياق اعتنق المذهب البروتستانتي، وكلفته بعثة التبشير الإنجيلية في بريطانية بترجمة التوراة إلى اللغة العربية، وبعد أن قضى في مصر نحو عشر سنوات (١٨٢٥ – ١٨٣٤م) حيث تولى هناك رئاسة تحرير الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) ثم انتقل إلى مالطا، ومكث فيها إلى أن استدعته البعثة البروتستانتية إلى إنكلترا لإكمال الترجمة، وفي بريطانيا طلق الشدياق زوجته الأولى، واقترن بامرأة إنجليزية. وإثر انتهائه من ترجمة التوراة، استقر الشدياق في باريس، ثم انتقل إلى تونس في العام ١٨٥٧ واعتنق الإسلام، واتخذ اسم أحمد،

وتخلى عن اسم العائلة فأصبح منذ ذلك الحين أحمد فارس. وما لبث أن تلقى دعوة من السلطات العثمانية في إسطنبول للعمل هناك. وفي إسطنبول باشر الشدياق بإصدار جريدة (الجوائب) التي صدر العدد الأول منها في ٢ تموز ١٨٦١م توقفت عن الصدور في العام ١٨٨٤م. وحقق الشدياق عبر الجوائب شهرة عربية وإسلامية وعالمية.

إضافة لاستمراره في نشر الكتب والدراسات. ولعل أشهر كتبه شهرةً كتاب «الساق على الساق في ما هو الفارياق» الذي صدر في باريس عام ١٨٥٥م وكتاب «المخبا عن فنون أوروبا» (تونس ١٨٦٦م) وله أيضاً (الواسطة في معرفة أحوال مالطا) صدر عام ١٨٣٦م وفي كتابه «الساق على الساق» يركز الشدياق على مسألتين (إبراز غرائب اللغة) و (ذكر محامد النساء ومذامهن) كما يقول في مقدمة الكتاب. هذا عدا عن تضمين الكتاب نقداً لاذعاً لرجال الدين، وعادات أهل مصر، والأوضاع الاجتماعية في مالطا، وملاحظات متنوعة حول لندن وباريس والحياة الاجتماعية في إنكلترا وفرنسا. ثم عمد مرة أخرى في (كشف المخبأ) إلى التركيز على ما دعاه (شرح ما عند الأوروبيين من فنون) ومما يورده الشدياق في كتابه أنه ولحظة وصوله إلى الإسكندرية قادماً من بيروت، أثناء حكم محمد علي، لفت نظره تغطرس الأتراك ومعاملتهم للعرب معاملة تنطوي على السطوة والتجبر. رغم أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم عربياً والقرآن نزل باللغة العربية والأئمة والخلفاء الراشدون والعلماء كلهم عرباً.

وهو يهزأ أشد ما يهزأ من أمراء جبل لبنان، وأساليب معيشتهم وافتقارهم إلى فهم جوانب الحياة الحديثة وتطوراتها.

ويوجه اللوم إلى الأغنياء لاقتصار حياتهم على دفاتر البيع والشراء، وعدم إتقانهم اللغة العربية الفصحى. وعدم مساهمتهم في تطوير بلدانهم وقراهم.

أما في أوروبا فلعل الشدياق كان العربي الوحيد الذي عاين الريف الأوروبي وحياة سكانه عن كثب، إذ أنه سكن في قرية قرب جامعة (كامبردج) أثناء ترجمته التوراة وهو يورد على لسان زوجته التي يدعوها (الفارياقية) تذمراً من بلاد الفلاحين «حيث لا أنس للغريب».

ولاحظ من خضرة الأرض والاهتمام بها. ولكنه يمضي قائلاً: وقد كنت أحسب ونحن في الجزيرة (لعله يقصد مالطا) أن الإنكليز أحسن الناس حالاً، وأنعم بالاً، فلما قدمنا بلادهم وعاشرناهم إذا فلاحوها أشقى خلق الله. ولو نظرنا إلى أهل هذه القرى لما رأينا فرقاً بينهم وبين الهمج، يذهب الفلاح منهم في الغداة إلى الكد والتعب ثم يأتي في المساء بيته فلا يرى أحداً من خلق الله ولا يراه أحد. أما في وصفه لحال العمال واستغلالهم في المدن فيقول: «ومع ذلك إذا دخلت قصور الملوك وطفت في أسواق المدن وعاينت ما فيها من الصنائع البديعة والتحف العجيبة والآلات الظريفة والفرش النفيسة والثياب الفاخرة والأواني المحكمة ولا سيما مدينة لندن علمت أن صنّاعها هم القائمون بالدنيا وهم منها محرومون فإن دأب الصانع كدأب الفلاح من جهة أنه يشقى ويكد النهار كله، ولا حظّ له في الليل سوى إغماض عينيه».

ورغم إعجابه بالتقدم العلمي والتطور الصناعي في أوروبا إلا أن الشدياق ظل محتفظاً بروح نقدية جعلته يرى السلبيات إلى جانب الإيجابيات. فهو لا ينكر أن الدول الأوروبية تبذل في سبيل العلم قصارى جهدها، ولكنه يضيف ملاحظة هامة لم يلحظها غيره فيؤكد أن هذه الدول لا تحرص على تعميم المعارف على جميع رعاياها. إذ ليس من نفع الدولة ولا الكنيسة كما يقول أن تكون العامة متكيسة ومتفقهة ولا سيما عامة فرنسا، فإن معارفهم سبب في تخطئة الدولة ولهذا يقع بها من التغيير ما لا يقع في غيرها.

ويعقد الشدياق بعد ذلك مقارنة مطولة بين الإنجليز والفرنسيين من حيث الصفات والعادات. ويقول إن الطهطاوي لم يعطِ صورة متكاملة عن حياة الفرنسيين حتى في باريس أما بقية فرنسا فإنه لم يعطِ صورة متكاملة عنها.

ولذلك نرى الشدياق يورد معلومات غزيرة حول أنواع الطعام وكيفية بناء دور السكن والملاهي والشوارع ويقدم إحصائيات وافرة حول الزراعة والصناعة والتجارة.

لا بل يذهب إلى حد بعيد في تقدير القوة العسكرية لكل من فرنسا وإنكلترا ويقارن بينهما، ويفسر سبب ضخامة عدد الجيش في الأولى ومحدوديته في الثانية.

وعدد المزايا الإنجليزية التي أعجبته فإذا بها: عدم الفضول والصدق وغياب النميمة وتقسيم العمل والوقت والدقة في أداء الواجبات الخاصة والعامة، وعدم الشك في النساء من دون مبرر، واطمئنان الجميع إلى سيادة القانون: ويعجبني من الإنجليز خلال منها أنه ليس عندهم فضول وتكلف على الدخيل بينهم، بل على من هو منهم فلا يزورونه في غير وقت الزيارة، ولا يستعيرون منه ولا يتعرضون لما يأتيه. وإذا زارك أحدهم ووجد عندك امرأة أو مجموعة من النساء لم يهمه أن يسألك عن سبب زيارتهن مما لابد منها في بلادنا. وكذا لو رأوك تماشي امرأة في الطريق أو تخاصرها فكل منهم مشغول بهمه ومهموم بشغله. وإذا رأوا طبقاً مغطى لم يسألوا ما في هذا الطبق. فكل واحد منهم لا يهتم إلا بشأنه، ولا غرو أن يكون بعض الخلال ممدوحاً من وجه ومذموماً من آخر.

وبعكس أهل بلادنا، تأكد للشدياق أن الإنجليز يبتعدون عن الشماتة ونكاية الخصم والحسد.

ويروي الشدياق أن للفرنسيين عادات تجعلهم أقرب إلى الشرقيين بخلاف

الإنجليز.

ولفت نظره في بلاد الإنجليز استتباب الأمن في الشوارع خصوصاً عند الخروج ليلاً وللصغير والكبير الذكر والأنثى، وأن رجال الشرطة يقومون بواجباتهم خير قيام في خدمة الجمهور وإرشادهم إلى المكان الذي يريدون الوصول إليه.

ويستنتج الشدياق أن اطمئنان المواطن إلى ممثلي القانون والدولة وعدم الخوف منهم هو الذي يميز الغرب عن الشرق ويؤدي إلى نتائج تعكس نفسها على شتى مرافق الحياة.

هذا ورغم إطراء الشدياق للفرنسيين وقوله: إنهم أمة قديمة مشهورة ومشهور لهم بالفضل والتقدم والمساعي العظيمة، وإنهم حققوا كل علم وبرعوا في كل فن، إلا أنه أنكر عليهم عدم اعتقادهم بضرورة وجود الدين. وهذا يعتبر من أعظم ما يهين شرف الأمة ويخفض من قدرها.

كما استنكر حالة الفقر التي عاينها في أثناء سكنه في لندن، وعاب على الإنجليز جهلهم (بصنعة الطبخ) خاصة في المطاعم العمومية، وكال المديح لصحف الأخبار والكتب الصادرة في لندن. ولكنه رأى فيها عيباً كبيراً وهو عدم استقصاء أخبار البلاد الشرقية وسائر الممالك الإسلامية، وإذا كان هنالك خبر عنها فإنما هو مخصوص بالتجارة.

سليم بسترس

ومن الرحالة العرب الذين زاروا أوروبا في أوقات مبكرة «سليم بسترس» (١٨٣٩ – ١٨٣٣م) وكانت رحلته بدافع شخصي بحت، وليس نتيجة بعثة ديبلوماسية أو علمية. وقد سجل رحلته في كتاب بعنوان «النزهة الشهية في الرحلة السليمية» والذي طبع في بيروت عام ١٨٥٦م.

وسليم بسترس بيروتي المولد ينتمي إلى عائلة مسيحية أرثوذكسية. ذات نشاط تجاري معروف. وبعد القيام برحلته قرر سليم الإقامة النهائية في لندن حيث أنشأ هناك محلاً تجارياً.

بدأت رحلة سليم في اليوم السابع والعشرين من آذار عام ١٨٥٥م. حيث أقلع بالباخرة من بيروت إلى حيفا ثم إلى مدينة الإسكندرية حيث أقام بها أياماً زار خلالها مدينة القاهرة زيارة خاطفة. وعاد إلى الإسكندرية ومنها إلى مالطا فإيطاليا. ويكاد وصفه للمدن الإيطالية يقتصر على ما رآه من كنائس وآثار وحدائق عمومية. ولا يبدأ سرده كرحالة يكتشف أموراً جديدة إلا بعد وصوله إلى مرسيليا. حيث يتحدث عن المصانع والاختراعات الحديثة وتقدم العلوم والفنون، إضافة إلى الحياة الاجتماعية، ويكاد كتابه يخلو من أي تحليل سياسي.

يقول: بعد أن فرغنا من الفرجة على ممالك إيطاليا، توجهنا إلى فرنسا فدخلنا مرسيليا، وتفرجنا على معصرة للزيت تدور على آلات بخارية تعصر الزيت من السمسم وبزر الكتان وتصفيه. وعلى كرخانة للسكر تعصر الشمندر وتغليه في حلل كبيرة وتعرّضه على بخار العظام المغلية ليأخذ لون البياض المشرق ثم تصفيه وتسكبه في قوالب من النحاس. ثم ذهبنا إلى كرخانة أخرى للطرابيش فيها أنوال كثيرة تحيك نسائج من اللباد الأبيض السميك، ثم تركبه على قوالب مختلفة فيكون طرابيش تامة لا تحتاج إلا إلى الصباغ.

وبعد أن انتقل إلى (ليون) لفت نظره أيضاً وجود المصانع وما تصنعه، وهو يكتفي بهذين العنصرين أي المصانع والمنتجات ويتجاهل كل ما عداهما. (ولعل ذلك يعود إلى كونه تاجراً ومن عائلة غرقت بنشاطها التجاري ولم تمارس أي أعمال أخرى).

وينتهي بسترس على (ظرافة) مدينة (ليون) وحسن منظرها ولكنه لا يتغافل عن رداءة الهواء وانتشار العفونات وذلك بسبب ما بها من المياه وما يقع عليها من المطر. أما أهلها فوجدهم ذوي أخلاق ولطف وأنس وأدب.

وبعد أن وصل باريس وصفها قائلاً: (وجدناها جنة الدنيا وسلوة الغريب عن وطنه، أقمنا بها تسعة وعشرين يوماً، وكنا نقضي النهار وأكثر الليل بالجولات والتنزه والفرجة على مناظرها الجميلة، وكان كل ذلك وكأنه يوم واحد. ويذكر في موضع آخر سكك باريس وأسواقها فنجد أنها (عظيمة ومنتظمة للغاية)).

وبعد أن يورد إحصائية بعدد السكان، ويطنب في وصف حسن الأخلاق ولطافة الطباع وسهولة العشرة وحسن الإكرام والضيافة للغرباء، ورغبة الباريسيين في العلوم وإتقانهم بدائع الفنون، يمضي في وصف مدينة باريس، رغم شعوره بالعجز عن إيراد كل التفاصيل.

يقول: وبالحقيقة أن اللسان يعجز عن تفصيل ما في هذه المدينة من الترتيب والنظام، إن كان لجهة أسواقها أو أبنيتها أو متنزهاتها، أو طرقها وبساتينها أو نظام عيشها الرغيد. فنقول باختصار إنها تحتوي على ألوف من الشوارع والأزقة الواسعة، وبيوتها وحوانيتها كلها مدهون بالألوان المختلفة، وعلى كل جانب من الشوارع مسطبة مبلطة (رصيف) تمر المشاة عليها. ويقول إن هنالك ألوفاً من العربات التي تجرها الخيول (الكروسات) منها ما هو مقطور بأربعة أفراس، ومنها على اثنين، ومنها على فرس واحد. متتابعة بركض سريع. الذاهبة منها تمر على

الناحية اليمنى والقادمة على اليسرى.

عيش رغيد ونظام واحتشام ودقة في ترتيب سير المارة والعربات، ويقف القانون فوق الجميع ليفرض نفسه متى دعت الحاجة. وفجأة يعرض بسترس أمامنا لوحة اجتماعية أخرى، فيلاحظ الفقر والفقراء. يورد بسترس أولاً (أسباب المعيشة) في العاصمة الفرنسية فنعلم أن أكثرها مداخيل الأملاك والأسهم في الشركات والسكك الحديدية ونحو ذلك. لا بل تراءى له أن أهل باريس لا يتعاطون التجارة كثيراً، ويصرفون أكثر وقتهم في المتنزهات والملاهي. ثم يقدم الوجه الآخر للمدينة فيقول: وأما الأسعار فهي شديدة الغلاء في هذه المدينة، ولذلك نرى الفقراء فيها كثيرون، حتى يُقال إن كل ليلة ربما يبيت مقدار ستين ألفاً منهم لا يذوقون طعاماً. وقيل إن أناساً من ذوي الفقر الشديد لكثرة ما يتضايقون من حياتهم الشقية يقتلون أنفسهم، وهذا ما لم نسمع بشيء منه في بلادنا مع قلة الأغنياء فيها.

ومن باريس ركب بسترس سفينة بخارية واتجه إلى لندن حيث مكث بها ثمانية أيام بقي خلالها طريح الفراش في الفندق بسبب مرض ألم به. ولكنه رغم اعتكافه في غرفته نراه لا يتردد في إبلاغ قرائه بعض المعلومات عن أهل لندن. فيقول إنهم يتصفون بحس التدين وعندهم محبة وثبات في العلوم والصنائع أكثر من كل أهل الدنيا، ويضيف تفاصيل أخرى حول الحياة الاجتماعية فنكتشف أن صفات سكان لندن هي أقرب إلى مزاجه البيروتي. أهلها ما زالوا مزدحمين في الأسواق معتكفين على أعمالهم لا يلتهون عنها بالتنزه والخروج إلى الجنائن والبساتين. وهم يحبون الإحسان إلى الفقراء فيعطون كل سنة نحو ثلاثة ملايين ونصف من الليرات، عدا جمعية الصدقة التي تعطي سنوياً نحو ستة آلاف ليرة.

ثم ذهب بسترس إلى بلجيكا وزار بروسية والنمسا. ويتسم وصفه لهذه

البلدان ومدنها بالاقتضاب والملاحظات العامة.

بعد ذلك عاد إلى لبنان، ولكنه توجه مرة أخرى إلى إنكلترا حيث قضى هناك بقية حياته.

فرنسيس فتح الله مرّاش الحلبي وكتابه رحلة بارس

يخبرنا فرنسيس (١٨٣٥ –١٨٧٤م) أنه ترك مسقط رأسه في ٧ أيلول سنة ١٨٦٦. فاتجه إلى الإسكندرونة، ميناء حلب، على ظهر دابة ومنها استقل السفن البخارية إلى اللاذقية وبيروت، حيث شهد بداية نهضة في هذه البلدان كما يقول. ثم وصل إلى يافا. فأبدى أسفه لتدهور وضعها، ولكنه وجد الإسكندرية عندما وصلها في اليوم الخامس عشر من شهر أيلول ١ ٨٦٦ م «مدينة قائمة على ساق التجديد وأخذة طريق الاتساع والعظمة، وقد أوشكت أن تنضم في صف مدن أوروبا» ثم توجه إلى القاهرة ومكث بها ستة أيام يقول: أما أسواق المدينة فلا يوجد أقبح منها لشدة ضيقها وازدحامها، حتى أن البعض لشدة ضيقه يكاد لا يتسع لمسير اثنين معاً ولا يقبل الضوء.

إلا أن مرّاش يقول بأن ما شاهده من مظاهر التقدم في بيروت والإسكندرية ليس إلا مجرد نسخة باهتة عن الأصل. ومن هنا يهتف مرّاش وقد وصل إلى مرسيليا: انقض بي باشق البخار حيث وجدت نفسي مرتاحاً في حضن الغرب متحضراً تحت سماء أوروبا.

وبعد قضاء ثمانية أيام في مرسليا توجه بالقطار إلى ليون. وبين مرسيليا وليون بدأ مرّاش بقراءة الفصل الأول من كتاب فرنسا بعد أن قلب صفحات مقدمته في مرسيليا.

وصف مرّاش ما رأى فقال:

فأي أعين تشاهد تلك الأرض الممتد فيها ذلك الطريق (سكة الحديد) ولم تلبس حلة الاندهاش والتعجب، وتسكب على القلب سلسبيل الابتهاج والطرب، وتدفع إلى النفس أنوار الأدب والتهذيب. فاتحة أبواب أجمد وأمنع القرائح. فلا يسعني هنا الشرح عما رأيته من خصب وازدهار هذه الأرض السعيدة، وما يلوح عليها من بديع عناية البشر المتمدنة، ونتائج سمو أفكارهم، لأن ذلك يحتمل مجلدات كثيرة.

أما عن باريس وبعد وصوله إليها يقول:

وها أنا الآن في مركز مجد العالم وأعجوبته، هو ذا تيار البخار قد دفعني الآن في مدينة باريس، مصب أنهار العجائب وموقع أنوار التمدن والآداب، وها قد أخذت عيناي ترى ما كان يراه ذاك الذي خطفته أرواح الآلهة إلى السماء الثالثة.

وباريس علاوة على ذلك عروسة المدن، وشمس يدور حولها فلك العالم البشري. وبخلاف شوارع القاهرة وقبحها، فإن العاصمة الفرنسية ذات شوارع رحبة العرض، مستقيمة الطول، حسنة التمهيد والتخطيط، مفروشة على الجانبين بأشجار مستوفية النظام والنسق لكي ترد حرارة الشمس وتأذن لطروبة النسيم جامعة كل شروط النظافة والإتقان، فلا يقوم هناك للجيف الطاعونية انبعاث، ولا للأقذار الوبائية حشر، بل حدائق رياض وأزهار وساحات واسعة الفسحات، محكمة الأسلوب.

ويمضي مرّاش في وصفه لمدينة باريس قائلاً:

فما للكلل هناك موقع ولا للملل موضع، وما للأفكار تثاؤب على الأفواه أو نوم في أعماق الرؤوس، فهناك الجميع يتسابقون في ميادين التقدم والفلاح، وهناك

الجميع يجرون إلى الأمام الجميع يتحركون ويتسارعون والجميع يشتغلون، الجميع متعاضدون سوية ومنضمون إلى قوة واحدة للركض إلى اقتحام المصاعب والوصول إلى قمة الكمال والجمال، عالمين أن الهجوم إلى الأمام يورث مفخرة والحركة نمواً، والتسارع اعتباراً، والشغل ثروة وغناء، والاتحاد قوة وسطوة، والوصول إلى ذلك شرفاً واقتداراً، وإن التهاون يلد تأخراً، والسكون قهقرة، والبطء احتقاراً، والبطالة فقراً وفاقة، والانفصام ضعفاً وانحطاطاً.

هذا هو سر التقدم الغربي ومفتاح تفوقه: النظام والعمل الدؤوب والوحدة الاجتماعية والتلاحم الوطني. وهذه الصفة الأخيرة عاينها مرّاش وشدد عليها ودمجها بالحرية: «الأمة الفرنساوية تتموج على بعضها كقطعة واحدة بدون نزاع جزئياتها ولا انقسام في كلياتها، سابحة في بحور الأمن والسلام بدون خوف من واثب أجنبي، أو حسود غادر، وافلة بأذيال الحرية الكاملة بدون خشية من التعثر بأشواك سيادة بربرية أو سلطة ضارية».

أما العقل في فرنسا كما يقول مرّاش فقد تربع على قمة عرش كماله وأخذ يشن على العالم غارات قواته ليفتتح معاقل الطبيعة ويقلب ممالك الظلام.

ثم هناك المكتبات العامة المنتشرة في جميع أحياء المدينة والمعدة لقبول الجمهور مطلقاً كما يقول، إضافة إلى المتاحف. ويشترك كل من المواطنين والحكومات في تشجيع الدارسين والعلماء، وهكذا لا يوجد عندهم للجهل أدنى مجال.

رحلة مبعوث مغربي رسمي إلى الديار الإنجليزية سنة ١٨٦٠م

إنها رحلة المغربي أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي إلى لندن كمبعوث رسمي للسلطان عام ١٨٦٠م. وقد نشرت في كتاب عام ١٩٦٧م بعنوان «الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية» وقد قام بتحريرها محمد الفاسي رئيس

جامعة محمد الخامس، أي بعد مرور أكثر من قرن على صياغتها.

وتوجه رحالتنا إلى لندن ضمن وفد رسمي مغربي أرسله السلطان محمد بن عبد الرحمن (١٨٥٩ – ١٨٧٣م) بغية تسليم رسالة إلى الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا. وكانت السلطنة المغربية وقعت مع بريطانيا معاهدة تجارية حصلت بموجبها على امتيازات عدة لجهة إزالة احتكار السلطان حركة التجارة الخارجية. ومن ذلك الحين شكل التجار في المغرب دولة ضمن الدولة، وأصبحت بريطانيا هي صاحبة النفوذ في المغرب إضافة لتعرض السلطنة إلى الضغط الإسباني من جهة والفرنسي من جهة أخرى.

هذا ودامت الرحلة من وقت المغادرة إلى العودة سبعين يوماً بين ٤ حزيران (يونيو) و ١٨ آب (أغسطس).

يقول صاحب الرحلة بأنه بعد وصولهم إلى لندن بثلاثة أيام، جاءهم مبعوث من الملكة فيكتوريا «فسلم علينا ورحب بنا، وسألنا عن أحوالنا وكيفية ركوبنا في البحر، فأجبناه بما يناسب. وطلب منا كتاب سيدنا السلطان، وقال إن الملكة أمرتني بالإتيان به، فقلنا له إن من عادتنا أن ندفع كتاب سيدنا أيده الله بأيدينا حين الملاقاة فضحك وأجاب بالقبول، وقال: غداً في الساعة الثانية نرجع عندكم، فوعدناه وذهب».

وفي اليوم التالي يلتقي الوفد المغربي بالملكة فيكتوريا، فيظل مضمون الرسالة السلطانية سراً مغلقاً، ولا نعلم سوى الحركات الخارجية التي تدل على ترسيخ الصداقة بين البلدين، يقول صاحب الرحلة: «فمكناها من كتاب مولانا أمير المؤمنين، أدام الله له النصر والتمكين، فقبضته بملاطفة وأدب، وجعلته بين يديها تعظيماً له وإجلالاً لجنابه العلي، ومقامه السني، وبمثل فرح الملكة فرحت بنا الدولة، لأن الرعية على قلب راعيها».

هذا وكانت معظم مشاهدات الرحالة المغربي مرتبطاً ببرنامج رسمي أعدته الدولة الإنجليزية. حيث جرى اختيار الأمكنة التي تدل على عظمة بريطانيا وتقدمها.

يذكر لندن فيقول: «وهذه المدينة من المدائن العظام، ما رأيت أعظم منها ولا أحظى، حتى تكرر على أسماعنا أن طولها ستة أيام وعرضها كذلك، وبها سلطانة الجنس الإنجليزي».

وبعد أن يصف دورها وبساتينها وحدائقها يعلن «ولأهل هذا البلد خيول عجيبة مؤدبة، ومن آدابها لا تصهل عند الاجتماع ولا تمهمه، مع أنها فارهة، وعلى الركض شارهة، فسبحان من سخر لهم الأشياء، مع اتباعهم الأهواء، ليظهر صنع الله في العكس والطرد وليعلم العاقل أنه لا غرض له في القرب والبعد».

وتدعو الملكة الوفد المغربي إلى مأدبة عشاء في قصرها، فنعلم أن (الكفر) يرتدي في بعض الأحيان أشكال الرفاهية والبحبوحة.

«وفي الساعة العاشرة من الليل ذهبنا لدارها، فوجدنا عظماء الدولة هناك مع نسائهم. ووجدنا هناك من الحراس والحجاب والخدمة ما لم نجده وقت الملاقاة (أي عند تسليم الرسالة) ووجدنا أيضاً من الأواني الرفيعة والثريات من الذهب والفضة والكراسي المفروشة بالحرير والمرصعة بالذهب، ما لا يحصى ولا يعد ولا يُستقصى، وذلك كله مصداق لقول رسول الله ﷺ الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

ويشاهد استعراضاً عسكرياً في وسط لندن بحضور الملكة وأعيان البلاد وجمع غفير من الناس فعاين ترتيباً عجيباً وأسلوباً غريباً ربما اندهش رائيه، وهال بفنه ملاقيه «ويصف بعد ذلك أن أشكال المشاة والخيالة ولبساهم وكيفية تقدمهم

وسيرهم». إلى أن ينتهي الاستعراض بإطلاق المدافع «فمضت الملكة ومضينا لحال سبيلنا، والله يهلك القوم الكافرين، وينصرنا عليهم... آمين».

«والحاصل أنهم» دمرهم الله «يستعملون أشياء تدهش، سيما من رآها فجأة، وربما اختل مزاجه من أجل ذلك. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، كيف تحيلوا على إصلاح دنياهم، حتى أدركوا منها مناهم، واستعملوا لذلك قوانين وضوابط، وفيه إشارة إلى أن طيباتهم عجلت لهم، وذلك نصيبهم وحظهم، وفيه إشارة أيضاً إلى أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، والله يحفظ بيضة الإسلام ويحميها من كل مكروه، بجاه نبيه عليه السلام».

بعد ذلك يزور حديقة الحيوان وأحد مصانع السلاح، كما يزور قصر البلور والذي بني عام ١٨٥١م لإقامة معرض عالمي. ثم يزور الوفد المغربي متحف السلاح ومعرض النباتات وأحد المصارف ومعمل الزجاج ومكتب البرق وقنطرة لندن.

ولعل الرحالة المغربي، عبر إبداء تضجره وتذمره من زيارة «مواضع كثيرة» يريد إظهار عدم تأثره بمظاهر المدينة الثرية وبقائه على إيمانه الراسخ بتفوق الحضارة الإسلامية رغم تراجعها في ميادين صنع الأسلحة والآلات والتكنولوجيا. وكان يخشى وقوع بلاده فريسة هذا التفوق.

وكانت مغادرة الوفد لندن في (٢٨ تموز / يوليو ١٨٦٠م) بالقطار متوجهاً إلى بورتسموث، فينتهز الرحالة الفرصة لوصف المراكب والسفن الحربية وأنواعها ويقول: «إن عددها مئتان وألف فسبحان من قضى عليهم بالكفر وحتمه عليهم حتماً. ومن كان في هذا أعمى فهو في الآخرة أعمى».

محمد بيرم التونسي

أما محمد بيرم التونسي (١٨٤٠ – ١٨٨٩م) فيصف لنا اتساع المستعمرات البريطانية في مشارق الأرض ومغاربها فيشير إلى سببين «انتظامهم في داخليتهم، المثمر للغنى، المنير للقوة الحربية ثم حسن الإدارة في المستعمرات. ويصف الإنجليز بالسكون والرزانة والتجافي عن الغريب إلا بواسطة في التعرف، حتى لو بقي بين أظهرهم سنين فلا يكاد يقول له واحد أسعد الله صباحك. كما أن من طبعهم الإقبال على الشغل والجد فيه وعدم الإيمان بالقدر».

أما محمد بيرم هذا فإنه شخصية تونسية كان يعتبر رجل دولة ودين ومصلح اجتماعي من الطراز الأول. فهو ينحدر من عائلة تولت نقابة الإشراف في تونس، وخطة القضاء ومشيخة الإسلام، أما هو فتولى رئاسة جمعية الأوقاف، وأيد إصلاحات صديقه خير الدين التونسي بعد عام ١٨٧٣م. وسافر إلى أوروبا أكثر من مرة، إما بهدف التداوي كما يقول، أو نتيجة مهمة سياسية ديبلوماسية. واستقر في إسطنبول قبل احتلال بلاده من قبل فرنسا بقليل. وحظي برعاية السلطان عبد الحميد المالية والسياسية، ثم غادر إلى الديار المصرية حيث بدأ بنشر كتابه «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار» ثم أكمل ابنه نشر الكتاب الذي يتكون من خمسة أجزاء.

وكتابه هذا يمثل قمة أدب الرحلات العربية إلى أوروبا في القرن التاسع عشر، فهو يمتاز بدقة تقسيم المواضيع وشمولية السرد والحديث عن معظم الأقطار الأوروبية، إضافة إلى تركيزه على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في تونس ومصر والدولة العثمانية.

وقام بثلاث رحلات إلى أوروبا بين ١٨٧٥ – ١٨٧٩م، وهو يتحدث في كتابه

الذي وصف به هذه الرحلات (صفوة الاعتبار) كفقيه ورجل إصلاح، فنجده يتمسك بأهداب الدين الإسلامي من جهة، ويدعو إلى تدارك تدهور – العالم العربي والإسلامي من جهة أخرى.

يذكر بيرم أنه زار باريس ثلاث مرات (١٨٧٥ – ١٨٧٨ – ١٨٧٩م) ويقول عنها «باريس وما أدراك ما باريس هي نزهة الدنيا وبستان العالم الأرضي وأعجوبة الزمان، وهي أنموذج لغرائب مصنوعات البشر وحق للفرنسيين التفاخر بها ومباهاة الأمم بمحاسنها وجمالها وغناها ومعارفها ومصانعها».

ولفت نظره شوارع باريس كيفية إتقانها وتنظيمها لا سيما و «أنه يوجد فيها غالباً محلات للبول مصنوعة بشكل ظريف على هيئة قباب في وسط الطريق والماء بها جار، كما توجد محلات الخلاء في غاية النظافة، وهي أيضاً كثيرة وذلك من واجبات البلدان الكبيرة لبعد الماشي عن محله».

وكان بيرم قد وصل إلى فرنسا قادماً من إيطاليا بالقطار فلاحظ «العمران واتصاله وإتقانه».

ولفت نظره انتشار السكك الحديدية إلى جانب «الأسلاك الكهربائية» أو التلغراف كإحدى «وسائط رواج التجارة» وكذلك السفن البخارية التي حلت مكان السفن الشراعية.

هذا ونشر بيرم «صفوة الاعتبار» بعد أن احتلت فرنسا الجزائر وقضت بريطانيا على حركة أحمد عرابي في مصر، ودخلت تونس تحت الحماية الفرنسية. لذلك نراه يقارن بين الاستعمار البريطاني والفرنسي، ويذكر أن الإنجليز يتركون أهالي المستعمرات يجرون على حسب عقائدهم وعاداتهم وأحكامهم، ويعملون على إبطال بعض العوائد القبيحة بالعقل. فالاستعمار الإنجليزي يكتفي بالإشراف

على الكليات ويترك الجزئيات لمجالس محلية قائمة على الشورى. وهذا كله يساعد على رواج التجارة الإنجليزية. ولاحظ كذلك أن إنجلترا لا تغير القوانين والشرائع الأساسية للبلاد التي تستعمرها «فتجاري الأهالي في مقاصدهم وعاداتهم وأحكامهم وكبرائهم ودياناتهم» غير أنهم قساة وغلاظ القلوب أمام كل ثورة تقوم ضدهم، مع أنهم لا يستعملون الشدة والقسوة إلا بعد أن يستنفذوا كل الوسائل لإخماد الثورة وبأقل قدر ممكن من العنف وتوريط العسكر. وتكون النتيجة عادةً حلاً وسطاً يرضي الطرفين.

يبدو أن المؤلف يتحدث عن بدايات الاستعمار البريطاني وكيف كان يعامل الشعوب المستعمرة إلا أنه لم يدرك ما تركه هذا الاستعمار من ويلات للشعوب التي حكمها، حيث ما زالت تعاني ومنذ عقود ما خلفه الإنجليز من مشاكل في مختلف أنحاء مستعمراتهم من فلسطين إلى الهند وأفريقيا وغيرها من مناطق العالم المختلفة.

وعندما زار روما أعجبته المدينة لنظافتها وحسن تبليط طرقها ووصف كنيستها الكبرى المسماة سان باولو. والتقى هناك بالمطران درعوني (من نصارى الشام) فرتب له موعداً من البابا وتطوع لأن يكون ترجماناً أثناء الاجتماع. كما لاحظ تقدم الحضارة في شمال إيطاليا أكثر من جنوبها.

ويقول: «وليس من عادة أهل إيطاليا الحياء، مثل ما هو عندنا فنرى البنت تخاطب زوجها وتفاكهه أمام والديها، بل وتفعل ذلك مع خطيبها، وترقص مع الرجال أمامهم. هذا في البنات فكيف بالبنين. وعندهم أن الغناء ليس بمعيب من النساء، فنرى أكبر الأعيان يحتفل بداره بدعوة عامة، وتصير بنته أو زوجته أو إحدى النسوة الأعيان المدعوات تغني في ذلك الملأ، وترقص مع الرجال على أشكال شتى من معانقة ومخاصرة وغيرها، ولا تأثيم في ذلك بل يرونه إكراماً بحيث

أن المسلم الغيور يكاد يتفطر مما يرى».

ويقول عن سكان الدول الأوروبية التي زارها إنهم يؤمنون بالخرافات والبخت والتنجيم وهذا منتشر في القرى والأرياف وبعض المدن. ويقول إن الناس هناك ينقسمون إلى ثلاث طبقات، أهل الرفعة وأشراف القوم ويشكلون الطبقة العليا وهناك الطبقة الوسطى والسفلى. ويمدح صفات الطبقة الوسطى ملاحظاً أنها الأكثر انتشاراً وشيوعاً.

ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس والاستيطان الاستعماري الفرنسي

في الأعوام ١٨٥٢ و ١٨٧٨ و ١٩٠١م قام ثلاثة جزائريين برحلات إلى باريس بناءً على رغبة السلطات الفرنسية، وذلك كعمل دعائي هدفه إقناع الجزائريين بحسنات الاستعمار. انطلاقاً من إبراز ما تحتوي عليه الحضارة الفرنسية من معالم التقدم والحرية والعدل.

الرحلة الأولى قام بها سليمان بن صيام وألف حولها كتاباً طبعته السلطات الفرنسية على نفقتها وحمل عنوان «كتاب رحلة السيد سليمان بن صيام في بلاد فرنسا أو الرحلة الصيامية» والرحلة الثانية صاحبها أحمد ولد قاد، ولذلك دعاها «الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية» والرحلة الثالثة تمت عام ١٩٠١م حملت عنوان «الوفد الجزائري من رؤساء العرب ورحلتهم إلى محروسة باريس» وقام بتحريرها محمد بن الحسن بن الشيخ الغفور القسنطيني.

يقول سليمان بن صيام صاحب رحلة ١٨٥٢م إنه شد الرحال إلى باريس بناءً على طلب حاكم الجزائر (راندون) وذلك ضمن وفود من (رؤساء) العرب مثلوا المدن الجزائرية الرئيسية خصوصاً العاصمة ووهران وقسنطينة، وذلك لحضور عرض عسكري توزع فيه الجوائز والنياشين أمام الإمبراطور لويس نابليون الثالث

الذي حكم فرنسا بين ١٨٥٢ و ١٨٧٠.

وركب الوفد القطار إثر وصوله إلى ميناء سيت في جنوب فرنسا قاصداً مدينة موبيليه، ويشرح لقرائه هذه التجربة الجديدة فيعلن:

«وذلك اختراع عظيم بيانه أنهم جعلوا هذه الشرايط (أي سكة الحديد) في الأرض يميناً وشمالاً مربعة مرتفعة مقوسة في أسفلها الذي تحت الأرض، وفي المربع الأعلى ساقية تجري فيها (رودة الكروسة) أي عجلات القطار ولا تخرج عنها وإذا تعرض لهم جبل شاهق في الطريق يمنعهم من المرور دخلوا تحته بالثقب (أي النفق) فيكون حيطان تلك الثقبة من حجر منحوت وسقفه كذلك».

وكغيره من الرحالة العرب لفت نظره في كل مدينة عاينها أو مر بها الأشجار والأنهار وضخامة الأبنية، والمتاحف التي تضم لوحات زيتية وكأنها تكاد تنطق.

وفي مدينة ليون (ثاني كرسي دولة فرانصة كما يقول) لاحظ ظاهرتين اتفق الرحالة العرب على وجودها في معظم المدن الأوروبية دقة التنظيم والإنتاج. فمع كثرة عدد أهالي مدينة ليون «لم تجد شخصاً منهم غير مشتغل مع رفاهية عيشهم وعنايتهم بالصناعات المفيدة، كنسج الحرير والذهب بالآلات اللطيفة».

وعاين امتداد خطوط التلغراف بين ليون وباريس، فأضاف اكتشافاً جديداً أنبأ به قراءه.

«وفي مدة سفرنا رأيت بجانب الطريق نحواً من ستة خيوط من سلك الحديد أرق من الخنصر ممدودة في الأرض في ارتفاع نحو ذراعين، وفي بعض الجهات محمولة على أعمدة من الخشب سألت عنها فأخبرت أنها، تلك الخيوط، طرفها في باريس والطرف الآخر بمدينة ليون، يبعثون بواسطتها الخبر من باريس إلى ليون، ومن ليون إلى باريس في مدة طرفة عين. بل يحادث الشخص في باريس جليسه

بليون مع بعد المسافة بينهما. ولم ندرِ كيف يصنعون لأننا لا رأينا لها مثـل حركـات السينال (الإشارة) الذي عندنا في الجَزائر، وهذا أغرب ما رأيت، والأمر لله من قبل ومن بعد».

والتقى وفد صاحب الرحلة ببقية الوفود الجزائرية الأخرى في بـاريس، حيـث نزلوا في فندق على نفقة (أهل الدولة). ثم يصف مدينة بـاريس مشـيراً إلى الأنهـار والقناطر والبساتين والأشجار والميـاه العذبـة، ومعرجـاً علـى المكتبـات والقصـور والمتاحف.

ويتحدث عن صفات أهالي باريس ومزاياهم، يقول:

«وأما أهل باريس، فهم يختصون من بـين النـاس بـذكاء العقـل ودقـة الفهـم وغوص الذهن في الأمـور عامـة» ويضـيف «إنهـم يطلبـون معرفـة أصـل الشـيء والاستدلال عليه» ولذلك يبتعدون عن التقليد أو اجترار آراء السلف. ويجمل رأيه حول فرنسا فيشدد على اتصال العمران والنظافة وانتشار «الفراسة والحراثة» وهـذا كله مرده إلى النظام السياسي السائد وكيفية عمله، أي امتثال الفرنسيين لأهل الحـل والعقد أو لأمرائهم. مما نتج عنه تحقيق العدل والأمان.

ولا ينسى الرحالة الهدف الرئيس من رحلتـه فيـثني علـى الإمبراطـور لـويس نابليون، فإذا به عادل، وشجاع، جليل القدر، ذائـع الصـيت فـارس بطـل «المعظـم الأنجد سيدنا أطال الله مدتـه وأدام سـعادته» ويمعـن في إبـراز مزايـا وزيـر الحـرب الفرنسي وبطولات الجيش، ويعيد قوة فرنسا العسـكرية إلى اتصـاف ملـوك فرنسـا بالعدل والرفق بالرعية من جهـة، وامتثـال الرعايـا بـالأمور الصـادرة مـن أربـاب الدولة».

وهو بعكس بسترس والشدياق يؤكد لقرائـه عـدم وجـود الفقـر كمشـكلة أو

ظاهرة تلفت النظر وتستدعي الاستنكار ويشير إلى اعتناء الدولـة بـالفقراء. ويقـول إنه لم يرَ طوال رحلته إنساناً مد يده لأخذ الصدقة.

وبعـد الإسـهاب في وصـف الاسـتعراض العسـكري الـذي قـدم مـن أجـل مشاهدته يطنب في كيل المديح للإمبراطور بعد الاجتماع إليـه ويـزف لأبنـاء وطنـه نص حديث تفوه به أحد الوزراء وساوى به بين الفرنسيين والجزائريين، وإن كانـت مساواة غامضة لا تلزم قائلها بشيء محدد.

قال الوزير – الجنرال الفرنسي سان أرنو، مخاطباً الوفـد الجزائـري «يـا معشـر العرب نعلمكم أنكم بمنزلة إخواننا الفرنساوية ولا فرق بينكم وبينهم عندنا في المحبة والمكانة» وانتهت رحلة ابن صيام بعد أن استغرقت خمسة وثلاثين يوماً. واسـتمرت الدعوات الفرنسية لعدد من أعيان الجزائر لزيارة باريس وفق برنامج هدفه الترويج للتقدم الحضاري للدولة المستعمرة من جهـة وإبـراز قـدرتها العسـكرية مـن جهـة أخرى فها هو أحمد بن قاد يتوجه للمرة الثالثة إلى باريس لحضـور معـرض بـاريس لعام ١٨٧٨م، وقد تمت هذه الرحلة بعد تحول فرنسا إلى جمهورية في أعقاب هزيمتها العسكرية أمام الغزو الألماني سنة ١٨٧٠م.

ولا يذكر ولد قاد هزيمة فرنسا أمام ألمانيـا ولكنـه يشـير إلى نتائجهـا بأسـلوب يوحي بالثقة، ويبدد أوهام الذين حسبوا أنها فقدت قوتها العسكرية. يقـول: «وقـد كان العرب يظنون أن فرنسا عندما لحظتها عيون السوء انتقص شـأنها فلمـا وقفنـا بها وجدناها قذى في أعين الحاسدين، وأنها أجل قدراً وأعظم قوة مما كانـت عليـه، من كثرة الجيوش والإقامة والآلات الحربية، فحمدنا الله على ذلك» ولاحـظ أثنـاء سفره بين مرسيليا وباريس أن شعارات الثورة الفرنسية الحريـة والإخـاء والمسـاواة تكسو حيطان المدن والقرى وهتف قائلاً «يا لهـا مـن كلمـات يحـق أن تكتـب بمـاء الذهب» ثم أردف قائلاً «فلما استفسـرناها وتأملناهـا ازدادت قلوبنـا تعلقـاً بمحبـة

الدولة الفرنسوية، لما عُلمنا من حريتنا نحن العرب ومساواتنا مع النجباء أولاد فرنسا».

ونراه من خلال حديثه بأنه يأمل ببزوغ فجر جديد «يمتزج فيه العرب مع الفرنسويين ويصيرون كذات واحدة يعيشون مع بعضهم أكثر مما هم عليه الآن عيشة مرضية».

ورأى أن العقبة الوحيدة التي تحول دون هذا الامتزاج هي عقبة (الديانة) ولكنه ألغى الفوارق بين الأديان واعتبر أنها جميعاً تقوم على مبدأ واحد «أن الإنسان يحب لنفسه ما يحب لغيره ويكره لنفسه ما يكره لغيره» ولذلك لم يعد ثمة من مبرر للامتناع عن إيجاد مشترك بين شعبين جمعتهما سلسلتان متينتان «الاشتراك في الحروب سواء في المكسيك أو إيطاليا أو الجزائر نفسها واختلاف الأيادي على الطعام».

وفي الفصل الرابع والأخير من رحلته نرى ولد قاد يقدم لائحة بالمطالب التي يتوخى عرب الجزائر تحقيقها من السلطات الفرنسية، وتدل هذه المطالب أن صاحبها يؤيد مبدأ التمازج الكامل بين الشعبين وذلك وفق مبادئ الحرية والإخوة والمساواة وقد بين في هذا المجال الإجحاف الذي لحق بالجزائريين نتيجة مصادرة أراضيهم والاستيلاء عليها دون تعويض أو مبرر قانوني. كما ركز على ضرورة توعية أبناء الجزائر لكي يستطيعوا استيعاب القوانين والنظم الفرنسية ليتسنى لهم الدفاع عن حقوقهم ومعرفة كيفية عمل المحاكم والقضاء.

وطالب بتمثيل العرب في (ديوان المشورة) فيكون لديهم نواب يدافعون عنهم تماماً مثل الفلاحين الأوروبيين.

وينتهي إلى القول: «أفلا تكن مصالح العرب الذين يشتمل عددهم على نحو

الثلاثة ملايين تستحق النظر أكثر من مصالح الأوروبيين الذين عددهم يشتمل على نحو المائتي وعشرين ألفاً، وبأي وجه يحرم التماس النواب منهم للاستئثار معهم في المصالح العمومية إن كانوا رفقة الأخوة والمساواة كما هو الزعم».

كلمة أخيرة حول هذا الموضوع:

ربما عجب بعض القراء من مواقف بعض الرحالة لا سيما الجزائريون منهم ومدحهم لفرنسا وتقدمها ونظمها، وبأنهم لا يمانعون أن تكون الجزائر وفرنسا دولة واحدة. نقول إن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على طيبة نفس العربي وحسن ظنه بالآخرين، لا بل سهولة خداعه أحياناً. لا سيما وأن الفرنسيين دخلوا الجزائر عام ١٨٣٠ وشعبها يعاني من الجهل والتخلف وسيطرة الأمية على معظم أبنائها. لذلك لم يكن غريباً أن يبدي بعض من رحل إلى فرنسا من أبناء الجزائر هذا الإعجاب بفرنسا وما حققته من تقدم على مختلف الصعد.

هذا ولا ننسى أن هؤلاء نفر يعدون على أصابع اليد الواحدة وربما أن آراءهم لم تكن توافق رأي الأغلبية من أهل الجزائر والذين كانوا يعدون في ذلك الوقت ثلاثة ملايين من البشر. ومن الناحية الأخرى نرى أنه في آخر تلك الرحلات ولأحمد ولد قاد نفسه نراه يستنكر استحواذ المستوطنين الفرنسيين على أحسن الأراضي الزراعية في الجزائر دون وجه حق ودون تعويض أو مبرر قانوني وربما كانت هذه هي الشرارة الأولى التي وضحت لأهل الجزائر نوايا الفرنسيين الحقيقية وموقفهم من الشعوب المستعمرة. لذلك فلا عجب أن كل هذه المدائح لفرنسا لم تمنع قيام الثورات المتتالية في الجزائر لإخراج الفرنسيين من ديارهم والتي كان آخرها ثورة المليون شهيد والتي انتهت باستقلال الجزائر استقلالاً كاملاً ناجزاً ونيلها حريتها المطلقة بعد حوالي مئة وثلاثون عاماً من الاستعمار وملايين الشهداء الذين ضحوا من أجل حرية الجزائر واستقلالها.

أما ما أوردناه من نصوص حول الرحلات فلم يكن القصد منه سوى إبراز القيمة التوثيقية التي تشتمل عليها هذه الرحلات.

أما هذه النصوص حول الرحلات الجزائرية فقد جمعها الباحث خالد زيادة وقام بنشرها.

الأحوال العمومية في عكا
أواخر الحكم العثماني

قضاء مركز عكا قائم في الشمال الغربي من اللواء المسمى باسمه ويحده شمالاً قضاء صور وغرباً قضاء صفد والناصرة وجنوباً قضاء حيفا، ويحيط به من الغرب البحر المتوسط. وهو من الأقاليم الحارة المعتدلة.

السكان

كان شكل عكا أواخر العهد العثماني أي حوالي عام ١٩١٣ يبلغ ٩٤٧١ بين مسلمين ومسيحيين وقليل من اليهود (١٠٥ أشخاص) والبلدة محاطة بسور محكم، وبسبب منع البناء سابقاً خارج السور فقد أصبحت الدور متلاصقة متراكمة فوق بعضها، والأزقة عبارة عن أنفاق ضيقة، بعد إعلان الدستور العثماني سمح للأهلين بالبناء خارج السور فأنشأوا عدة بيوت حديثة.

وكانت عكا مخرجاً لتجارة حوران وما حولها، وكان ميناؤها يساعد على دخول المراكب الشراعية الكبيرة، فكان خير مسعف لها في المعاملات التجارية. يقال بأنه كان يخرج من مينائها سنوياً ٥٠ مليون كيلة من الحبوب. وقيل الحرب العالمية الأولى بقليل وصلها الخط الحديدي (سكة حديد الحجاز) وفرح به أهل عكا آملين بعث النشاط التجاري في مدينتهم، إلا أن هذا الخط خُرب خلال الحرب وقلعت خطوطه أيضاً.

المعارف في قضاء عكا أواخر الحكم العثماني

كان يوجد في مركز اللواء مكتب إعدادي يضم ٧٠ طالباً وأربعة مكاتب ابتدائية اثنان للذكور ومثلها للإناث وكان في مكتب الذكور الأول ١٨٤ تلميذاً وفي

الثاني ٦٨. وكان يشرف على هذه المكاتب مدرسون لا بأس بلغاتهم. أما في مكتب الإناث الأول فكان يوجد ٦٨ طالبة، وفي الثاني ١٥٢ طالبة وعلاوة على ذلك كان يوجد في المدينة مكتب ذكور ابتدائي للروم الأرثوذكس. ومكتب للحضانة تديره امرأة مسيحية. وفي كل مكتب منها كان يوجد من ٦٠ إلى ٧٠ تلميذاً. كما أسس في قرى الزيب وشفا عمرو وشعب ومجد الكروم وسخنين مكاتب ابتدائية وذلك من أصل ستين قرية كانت ملحقة بمركز اللواء.

وكانت مصاريف المعارف في لواء عكا تقدر بـ ١٧٤٠٢٢,٣ قرشاً.

الأحوال الاجتماعية في عكا

كان عدد سكان لواء عكا أواخر الحكم العثماني يبلغ حوالي العشرة آلاف نسمة منهم سبعة آلاف من المسلمين والباقي يتوزعون على مختلف الطوائف المسيحية كما كان يوجد عدد من اليهود. وكان معظم هؤلاء السكان يعيشون حالة مزرية من الفقر والتخلف، باستثناء أعداداً قليلة جداً كانت أحوالهم جيدة بسبب عملهم بالتجارة والزراعة وهؤلاء كانوا يعدون على أصابع اليدين. أما باقي السكان فكانوا يعملون بالمهن التي بالكاد تسد الرمق مثل الصيد والملاحة وبيع الخضر وبعض الصناعات اليدوية البسيطة.

أما لباس الرجال فيها فكان يتكون من القمباز وتحته السروال ومن فوقه حزام ثم جاكيب وطربوش أو عمامة، وكان معظمهم من الفقراء. أما النساء فكن يلبسن الأثواب الطويلة أو الملايات السوداء ويغطين رؤوسهن إما بخرقة بيضاء أو غطاء أسود يغطي الوجه.

وكان الأهلون يمضون أوقاتهم في المقاهي. حيث كان يوجد خارج السور ست مقاهي كانت تمتلئ ليلاً ونهاراً وهذا دليل انتشار البطالة وقلة الأعمال.

أما تعدد الزوجات فكان قليلاً جداً والسبب المباشر هو الفقر قبل أي شيء آخر. وأهل عكا لا يمكن وصفهم بأنهم من الجماعات المقتصدة في حياتها فهم يصرفون ما يجدونه وما تصل أيديهم إليه، ولا يفكرون كثيراً في المستقبل كما تم وصفهم. وهم متدينون ولكن دون تعصب، حيث كانت تمتلئ جوامع عكا الستة بالمصلين يوم الجمعة وانتشرت بها الطرق الصوفية مثل الشاذلية والرفاعية، وكانت تُسمع الأذكار التي تقام لا سيما ليالي الجمعة والاثنين من محلات متعددة.

ويتبع أهل عكا في مراسم الزواج وغيرها العادات المتبعة في عموم مدن الساحل، ويتبعون على الأخص طرق الزواج المتبعة في بيروت.

ويغلب على أهل عكا الذهاب إلى حوانيتهم أو إلى القهوات ومنها يعودون إلى دورهم، وهم لا يحبون الذهاب إلى محلات النزهة، ومن الصدفة خروجهم للنزهة على ساحل البحر. وهم يتكلمون العامية العربية فقط إذ لا يتجاوز عدد المتكلمين بالتركية الواحد في المئة. ويقال إن اثنين فقط من مسلمي عكا كانوا يتكلمون الفرنسية ومن المسيحيين الخمسة والعشرين. وليس لأهل عكا أغان خاصة بهم أو أمثال شعبية تمثل مختلف وجوه الحياة المنتشرة بين أبنائها.

أما الوضع الصحي في عكا أواخر الحكم العثماني فكان سيئاً، إذ كانت الملاريا والحمى المسماة (بالحمى الراجعة) لا تفارق أهل عكا وذلك بسبب وجود أكثر من منطقة مستنقعات تحيط بالمدينة، هذا إضافة لتلاصق الدور ورطوبتها وعدم دخول الشمس والهواء إليها، علاوة على وجود عدة مقابر وبضع خانات وعدة اصطبلات وعدة مواقد للحمامات، هذا كله أدى إلى زيادة الحالة الكريهة التي يصل إليها الهواء في هذه المدينة وما يسببه ذلك من أمراض.

وماء عكا في تلك الفترة كان رديئاً جداً فهو يخرج من قرية كابري في الجهة الشمالية البعيدة ثلاث ساعات عن مركز المدينة، ويوزع على الدور، إلا أنه معرض

لكل الأنواع التي تجعل منه ماءً غير صحي في الطريق التي يمر بها، لهذا كـان عنـدما يصل عكا نراه عكراً وطعمه فاسد والغالب أنه يكون مليئاً بالميكروبات المختلفة.

وكان أهل عكا قليلاً ما يتعاملون مع المشروبات الكحولية، وإن كانـت كـثيراً من السلوكيات غير المشروعة قد انتشرت أو تزايدت بسبب الفقر والضرورة. وكان يكثر الضعف في الأطفال وصحة النساء مؤلمة جداً.

طرق الحج في شرق الأردن في العصور الإسلامية المختلفة

الحج في الجاهلية والإسلام:

اعتقد الناس منذ القدم بأن للآلهة بيوتاً في أماكن معينة ومختلفة على الأرض تسكن فيها وتستقر، لذلك نرى أن عباد الله قد قاموا ببناء أماكن تليق بالإلهة، مثال هذه الأماكن أقيمت في بلاد ما بين النهرين وفي مصر وبلاد اليونان وبعض البلاد الأخرى، وحظيت هذه البيوت بالقداسة، وأصبح الناس يزورونها في مواسم معينة ويحجون إليها ويقدمون القرابين والهدايا ويقيمون الطقوس كل حسب معتقده وتقاليده.

وكلمة الحج من الكلمات السامية الأصيلة والقديمة، وقد وردت في كتابات مختلف الشعوب السامية، كما وردت في التوراة وجميعها تعني زيارة مكان مقدس.

بالنسبة للعرب أصبحت الكعبة في مكة محجهم الرئيسي، وعظمت في نفوسهم حتى اعتبروها بيت الله، تُمارس فيها شعائرهم الدينية هذا وقد تباينت أقوال الرواة في أصل الكعبة، ففي اللغة تعني البيت المربع، وكل بيت مربع عند العرب كعبة.

في الإسلام خصصت بالبيت الحرام بمكة، والكعبة الغرفة أيضاً، وقد كان لربيعة بيت يطوفون به، يسمونه الكعبات، وقيل ذو الكعبات كذلك تعني كلمة مسجد والمكان الذي يتعبد فيه، وقد استعملها الجاهليون بهذا المعنى.

وكعبة مكة هي الكعبة الوحيدة التي بقيت محافظة على اسمها ومقامها حتى اليوم من بين كل كعبات العرب في الجاهلية. فقد اندثرت وزالت كل الكعبات الأخرى مع ظهور الإسلام.

هذا وتعرف الكعبة كذلك بالبيت العتيق، والبيت المعمور وكانت معروفة عند

العرب خارج الحجاز، وكانوا يحجون إليها ويقدسونها، ويقسمون بها. وكان من هؤلاء زهير بن أبي سلمى الذي قال:

فأقمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

والذي عليه المسلمون الآن أن الكعبة بناها إبراهيم الخليل عليه السلام وابنه إسماعيل، وذلك تنفيذاً لأمر الله جل جلاله وعلا أن يؤذن بالناس بالحج، ففعل. ولكن بمرور الزمن وطول العهد وتباعد الأماكن اختلفت الأحوال وخالطت عقيدة التوحيد دين عقائد الشرك، فأصبح لكل قبيلة أو تجمع قبلي آلهة وكعبات يحجون إليها.

وقد حرصت القبائل العربية على وضع أوثانها وأصنامها في جوف الكعبة أو حولها لما لها من قدسية.

وكان للعرب موسم خاص للحج كان ينتظره أهل مكة بفارغ الصبر لما له من فوائد عظيمة تعود عليهم لاسيما الأسواق التجارية مثل سوق مجنة وسوق عكاظ وغيرها.

وللتيسير على الحجاج ابتدعت قريش السقاية والرفادة. وقد ميز العرب الشهر الذي يتم به الحج فأسموه شهر (ذي الحجة) أو «شهر الحج»، لأن الحج يقع فيه وهي تسمية ما زالت مستخدمة حتى اليوم.

وللتسهيل على الحجاج وإعطاء الامان لهم في ترحالهم وأمور معاشهم فقد جعلت الأشهر الحرم وهي: محرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة، وهي أشهر حُرّم فيها القتال.

ولدينا أخبار قليلة عن الحج قبل الإسلام وشعائره فقريش كانت تزور «العزى»، وتهدي لها وتتقرب عندها بالذبائح كما كانت قضاعة ولخم وجذام

وبعض أهل الشام يحجون إلى الأقيصر ويحلقون رؤوسهم عنده. أما الأقيصر هذا فهو صنم في مشارف الشام.

واتخذت قبيلة كلب «وداً»، بدومة الجندل. وكان الطواف حول البيت والدوران حول الأصنام أركان من أركان الحج.

وقد ذكر الإخباريون أن عرب قبل الإسلام كانوا يطوفون حول الرجمات، وهي حجارة تجمع على شكل كومة مرتفعة كالمنارة يطوفون حولها كما يطوفون حول الأنصاب والأصنام. كما ذُكر أن الأعراب كانوا يطوفون حول الذبيحة التي يقدمونها للآلهة كما كانوا يطوفون حول القبور وبخاصة قبور السادات والأشراف من الناس، ولعل في ذلك بقايا عبادة الأسلاف. والطواف من أهم طرق التعبد والتقرب إلى الآلهة، يؤدونه كما يؤدون الشعائر الدينية المهمة مثل: الصلاة وليس له وقت معلوم ولا يختص ذلك بمعبد معين ولا بموسم خاص مثل موسم الحج، بل يؤدونه كلما دخلوا معبداً فيه صنم أو كعبة أو ضريح، وهم يطوفون سبعة أشواط، فالطواف إذن من الشعائر الدينية التي كان لها شأن مميز عند الجاهليين.

وعدة الطواف عند الجاهليين سبعة أشواط وربما يكون هذا العدد ثابتاً في بقية أماكن عبادتهم كالرجمات والأنصاب والقبور. بعض طوائف العرب كانوا يطوفون عراة قاصدين من ذلك براءتهم من الذنوب معها. أي أنهم ارتكبوا الذنوب وهم يلبسون تلك الملابس فهي كأنها شاركت الإنسان في ذنوبه وآثامه، لذلك اعتقدوا أن الطواف بالملابس غير صحيح لأنها شاركته في آثامه فهي ملوثة نجسة.

وكان يرافق الطواف وتقديم المناسك التلبية التي تفيد تعظيم الحاج أو الزائر لمعبوده وتلبية لزيارته وتعظيمه، وكان لكل قبيلة أو مجموعة قبائل تلبية خاصة بها وبصنمها أو مكانها أو مكانها المقدس، وعلى سبيل المثال كانت تلبية نزار وهي تطوف حول الكعبة.

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك.

أما قبيلة كنانة فكانت تلبي وتقول: «لبيك اللهم لبيك، يا رب أقبلت بنو أسد أهل التواني والوفاء والجلد إليك». وذكر أن من الحجاج من كان يأتي بغير زاد، لا بل إن منهم من كان إذا أحرم رمى الزاد الذي يملكه، وبعض قبائل العرب كانوا يحرمون الزاد إذا خرجوا حجاجاً وعماراً، فقال بعض المفسرين إن آية ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، نزلت لتأمر من لم يتزود من الحجاج التزود لسفره.

ويذكر الأزرقي أن من تعظيم عرب الجاهلية للكعبة كسوتهم لها في كل سنة. كذلك من مناسك الحج في الجاهلية السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط حين كان صنما إساف ونائلة منصوبين. وهي مسافة المسعى حالياً. كان عرب الجاهلية يحجون البيت ويعتمرون، ويطوفون بالبيت أسبوعياً، ويمسحون الحجر الأسود ويسعون بين الصفا والمروة، وعرفوا كذلك الوقوف بعرفة والإفاضة إلى المزدلفة ومنها إلى منى. ومن مناسك الحج عند الجاهليين «رمي الجمرات».

أما في الإسلام فأصبح الحج الركن الخامس من أركانه. وإن تشابه الحج في طقوسه مع طقوس عرب الجاهلية إلا أن معاني الحج في الإسلام مختلفة تماماً، واجتماع الحجيج في الأماكن المقدسة في الإسلام له أهدافه السامية السياسية منها والاقتصادية. ويؤمن بالعدالة والمساواة بين بني البشر كافة.

أما طرق الحج التي كان يقصدها حجاج بيت الله الحرام ويمرون بها في الأراضي الأردنية لا سيما أولئك الذين يأتون من ناحية الشمال، فكان دخولهم يتم من عدة مناطق أولها كان مخرج درعا كما ورد في كتب المؤرخين المسلمين القدامى.

حيث ذكر بعض الجغرافيين المسلمين أن الحجاج كانوا يأتون من درعا إلى عمان دون ذكر محطات أخرى، وبعضهم قال إن المنزلة يعد درعا هي الزرقاء، وقال بعضهم درعا ثم بصرى ثم الزرقاء، وقال آخرون كانت الطريق تمر بالمزيريب قرب درعا ثم أذرعات، ثم المفرق فالزرقاء.

وذكر أحد الكتاب الكسوة – الضمير، إذرع، وادي الشجرة، وادي الظليل، وادي الزرقاء، ثم زيزا البلقاء (إبراهيم بن شجاع الحنفي الدمشقي (١٢٢٦م). وذكر بعضهم المفرق بعد أذرعات.

ولكن الطريق كان يتغير بعد فترة وأخرى وحسب الظروف الأمنية والمعيشية كما يبدو، ففي البداية كان الطريق يسير إلى الشرق من جبل العرب إلى شرق الأردن وإلى الجنوب من عمان.

في القرن السادس عشر توحدت الطرق في طريق واحد رئيسي بسبب عناية الدولة العثمانية بهذه الطرق وبنائها القلاع والحصون ومستودعات لحفظ المياه وحراسة الطريق وقوافل الحج عليها.

أما الطريق بين درعا والزرقاء فلم تأخذ اتجاهاً واحداً، بل تفرعت بحسب المصادر لعدد من المواقع ووصفت بأنها كانت منازل للحجاج وأنها تقع على دروب الحج، لذلك نرى ذكر أم الجمال وجرش وغيرها كمواقع على طريق الحج إلى جانبي ذكر منطقة جابر وصبحا وصبحية بين المفرق وجبل العرب.

من الزرقاء إلى زيزيا

ذكر الطبري أن الوليد بن يزيد كان يطعم من صدر عن الحج بمنزل يقال له (زيزا ثلاثة أيام، ويعلف دوابهم).

أما ابن شجاع الحنفي فقد ذكرها بعد الزرقاء، والصلاح الصفدي جعل الطريق من الأزرق إلى زيزا فالكرك، وابن بطوطة ذكرها بعد بصرى، الجزيري جعلها منزلة بعد الزرقاء.

أما ابن طولون فذكر المواقع بين الزرقاء وزيزا (الجيزة) على النحو التالي: الزرقاء – ماركا- عمان- الجارية- الأيدون (بين أم العمد وقرية الجيزا) القسطل – جيزا.

أما عمان فكان من الطبيعي أن تجتذب القوافل إليها، إذ كانت عبر العصور مدينة عامرة فيها القصور والمساجد وغدران المياه. المقدسي ذكر عمان كمنزلة من منازل الحج. وهو من المقلين في ذكر منازل الحج، إذ جعلها من دمشق إلى عمان وإلى معان وتبوك ثم إلى تيماء.

وفي حالة مرور القافلة بعمان فلا بد أن تأخذ الطريق إلى اللبن وأم الحيران ثم إلى القسطل ومن ثم إلى زيزا. أما إذا مرت القافلة غرب عمان فتأخذ الطريق إلى حسبان ومن ثم إلى مادبا. الطريق الشرقي من الأزرق إلى العمري ثم المدينة فالقريات كانت معظم القوافل تحرص على المرور بعمان قصد التسوق.

وهي التي وصفها المقدسي بقوله: وعمان على سيف البادية ذات قرى ومزارع، رستاقها البلقاء معدن الحبوب والأغنام بها عدة أنهار وأرحية (طوحين) يديروا الماء، لها جامع بطرف السوق، رخيصة الأسعار كثيرة الفواكه، غير أن أهلها جهال. وإليها الطريق صعبة.

أما طريق وبير (باير الحالية) فتأخذ من عمان إلى وبير ثلاثة مناهل، ثم إلى الأجولي أربعة مراحل، ثم إلى نجر منهلين ثم إلى تيماء ثلاثة مناهل.

كان في عمان بالعهد الإسلامي قوة آمن خاصة مهمتهما الحفاظ على أمن الطرق والمسالك، وحماية القوافل المتجهة إلى الحجار. هذا وامتازت عمان في العصر الأموي بقلعتها الحصينة.

في سنة (٣٠٦هـ- ٩١٨م) وردت أنباء إلى محمد بن طفح الأخشيدي والي عمان بأن أعراباً من لخم وغيرهم، أعدوا كميناً لركب الحج القادم من الديار المقدسة قاصداً الشام، فنهض الأخشيدي بقواته من عمان والتقى بالركب في نفس الوقت الذي تعرضوا فيه لهجمات الأعراب فأوقع بهم الأخشيد وبدد شملهم، وأسر عدداً منهم وقتل آخرين وهرب الباقين، وبذلك نجا الركب الشامي من العدوان.

وكانت عمان مركزاً لضرب العملة في العصر الأموي، وهنالك نماذج منها في متحف جبل القلعة.

وتظهر أهمية عمان والأردن بشكل عام خلال الحروب الصليبية، وذلك لكثرة ما تراه من قلاع ممتدة من الشمال إلى الجنوب منها ما بناه الصليبيون وأخرى بناها المسلمون.

ومن الأماكن الواردة كطرق الحج في الأردن: سحاب واليادودة والطنيب وأم العمد وهي كلها باتجاه واحد نحو الجيزة، أو نحو مدينة مادبا إن أرادت القافلة الاستراحة فيها.

أما إذا قصدت القافلة الطريق نحو الشرق فمن سحاب إلى الموقر ثم إلى قصر المشتى وقصر عمرة ثم إلى الأزرق.

الصلاح الصفدي جعل الكرك هي المنزل الثاني بعد زيزياء ثم الحسا والقطرانه ثم معان. وجعل ابن بطوطة (١٣٧٧م) اللجون بعد بركة زيزياء ثم حصن الكرك فمعان.

أما المسار الغربي لطرق الحج فيمر بمادبا ثم لب- ذيبان وادي الموجب – القصر- أدر – (وقد تمر القافلة ببلدة الربة)- الكرك – المزار- ذات رأس ثم وادي الحسا، وإلى الجنوب من وادي الحسا إما أن تواصل القافلة مسارها نحو العقبة فتمر شرق الطفيلة إلى الرشادية والشوبك وأذرح إلى بسطة ورأس النقب ثم الـ العقبة، وإما أن تنحرف شرقاً نحو معان لتأخذ الاتجاه إلى المدورة وتبوك.

الطريق الثاني يقع إلى الشرق من الطريق الأول وأهم معالمه هي: الجيزة- ضبعة – رجم قيال- خان الزبيب- سواقة- القطرانه رجم الأبياد- فريفرة- الحسا- جرف الدراويش- الدجنية- معان.

أما المسار الشرقي وهو المسار الثالث فيأخذ مساره إبتداء من الأزرق مروراً بالقصور الصحراوية: عمرة- الحرانة- الطوية- التليلات- باير – الجفر ثم معان.

وبعد الخروج من الحدود الأردنية كان هناك عدة منافذ كان أولها مدينة تبوك وهي إحدى المنازل الرئيسة.

وهنالك الطريق التي تتبع الساحل من العقبة ثم تتجه إلى الداخل عند حقل لتلتقي مع الطريق التبوكية عند (السقيا)- وادي القرى طريق ثالث ساحلي يتجه من العقبة إلى مكة مباشرة دون المرور بالمدينة.

وهنالك طريق حالة عمار التي تبعد عن تبوك ١٠٠كم وعن معان بنحو ١٤كم وعن حقل بنحو ٣٢٠كم. وقد ورد اسم حالة عمار كمنزل للحجاج في عدة مصادر تاريخية.

ونكتفي بهذا القدر من ذكر طرق الحج المارة بالأردن خلال مختلف الحقب الإسلامية. فالذي ذكر هو أهم الطرق والمواقع وليس هناك ضرورة لمزيد من التفصيل والذي لا داعي له.

هذا ومن المعروف أن الرسول ﷺ حج مرة واحدة سميت حجة الوداع بين للمسلمين فيها مناسكهم، وما يجب فعله في الحج وهي الأفعال التي استقر عليها الحج والعمرة في الإسلام.

طرق الحج الشامي في العصور الإسلامية

د. صالح درادكة

شاء الله سبحانه أن تكون أرض الأردن ممراً ومقراً لرسالة الإسلام الخالدة، مذ كانت مؤتة والشهداء الذين ضمتهم هذه الأرض في أحشائها بعد المعركة الأولى مع الروم لنشر الإسلام وتحرير الأرض. وبعدها خرجت جيوش المسلمين لتحرير العباد ونشر الإسلام في أرجاء المعمورة فكانت اليرموك الخالدة والتي تبعها فتح بيت المقدس لتتوالى زحوف المسلمين بعد ذلك وتأخذ من أرض الأردن ممراً ومستقراً لها. ولتضم تربته الغالية العديد من رفات الصحابة الأبرار والذين ما تزال أضرحتهم مزاراً لكل من يريد أن يشم عبق التاريخ ويتذكر أمجاد الأمة وهكذا استمرت الأرض الأردنية ملعباً للأبطال وممراً آمناً لأرض الحجاز، أرض الرسالة المباركة، فكانت وما تزال معبراً لآلاف الحجيج الذين يقصدون الديار المقدسة حاجين ومعتمرين وزواراً. وستبقى هذه الأرض دائماً بإذن الله ممراً ومقراً لكل المؤمنين والشرفاء من أبناء هذه الأمة لا بل ولكل إنسان برفع لواء الإنسانية.

وبالله التوفيق

التحولات في مدينة عكا بعد زوال الحكم العثماني وفترة الانتداب البريطاني

النشاط الاقتصادي

أصبح النشاط الاقتصادي في مدينة عكا يتمثل في قطاعات الصناعة والزراعة والثروة الحيوانية والمصارف والقطاع الحكومي والتجارة والزراعة والثروة الحيوانية والمصارف والقطاع الحكومي والتجارة جملةً ومفرق.

القوى العاملة في المدينة توزعت بين دوائر الحكومة الرسمية مثل القضاء والشرطة وسجن عكا المركزي ومحطة التجارب الزراعية والدوائر العقارية، والأوقاف الإسلامية ومؤسسات التعليم الرسمي للبنات والبنين، إضافة لمستشفى عكا وسكة الحديد. كما كان هنالك مصرف (باركليس) وبنك الأمة العربية هذا إضافة للعمل بالتجارة والخدمات المعيشية الأخرى ووسائل الترفيه.

بالنسبة للصناعة كان هناك معملاً للكبريت وآخر للمرطبات وكان يوجد مصنعاً للنسيج باسم معمل الأمعري تأسس عام ١٩٤٥م وكان ينتج النسيج القطني وبه قسم آخر لنسج الصوف الإنجليزي والذي كان ينتج أنواعاً فاخرة للألبسة الرجالية. وكذلك كان به وحدة إنتاج مخصصة لنسج الحرير. وقد استعان المعمل بعمال من حلب ودمشق وغزة. وكانت تلحق بالمعمل وحدة خياطة بها ٢٥ آلة خياطة كهربائية لصناعة القمصان. كما كانت هناك مصانع للألبان والحلويات والفخار إضافة للثروة الحيوانية والزراعة.

قطاع المواصلات

مركز مدينة عكا الجغرافي الهام أتاح لها تطوير وسائل المواصلات بمختلف أنواعها، فقد كان هناك محطة سكة حديد تربط عكا بمدينة حيفا ذات القاعدة الصناعية الهامة، كما كانت عكا صلة الوصل ما بين حيفا وبيروت.

وكان العمال الذين يقصدون مدينة حيفا للعمل يستقلون القطار والباصات وسيارات الأجرة ويعودون بالوسائل ذاتها مساءً.

كما تم في عكا إنشاء شركة لحافلات النقل كان يملك معظم أسهمها المرحوم عبد الرحمن المختار إضافة لشركاء آخرين. وقد وصل عدد الحافلات فيها إلى العشرة من أحدث طراز تلك الأيام. وقبل الهجرة بعامين تم تشغيل حافلتين للنقل داخل المدينة. كما كان هناك عدد من سيارات الأجرة.

قطاع المصارف

كان في عكا مصرفين اثنين أحدهما بنك باركليز البريطاني وكان مديره هو جميل غطاس، والبنك الآخر كان بنك الأمة العربية وأسسه أحمد حلمي باشا رئيس حكومة عموم فلسطين لاحقاً؛ وكان مديره المرحوم عبد السلام خورشيد.

مستوى وكلفة المعيشة في عكا

كان مستوى المعيشة الذي كان سائداً في فلسطين بالأربعينات من أرفع المستويات في البلدان العربية لتنوع مصادر الإنتاج ووفرة المياه والأراضي الصالحة للزراعة وكذلك بسبب الإنفاق الحكومي المرتفع لتحويل الجهد الحربي للحلفاء. هذا إلى جانب المنافسة بين العرب واليهود في مختلف المجالات الاقتصادية.

وكان مستوى الرواتب والأجور مرتفع نسبياً قياسياً بالرواتب والأجور في الدول المجاورة. كل هذا أدى لاجتذاب أعداد كبيرة من العائلات اللبنانية والسورية

إلى فلسطين مثل آل مجدلاني، ومسلم، والحوت، والشـامي، وبعاصـيري، وفـارس، وأبو فصيل، ومنيمنة، وأبو فاضل، والبستاني، وسرسق وغيرهـم. وكـان مـن أبـرز من عمل في عكا وحيفا النائب اللبناني ورئـيس شـركة (الكـات) لاحقـاً المهنـدس إميل البستاني والذي شيد عدداً لا يستهان به من المنـازل في عكـا الحديثـة (خـارج السور).

نموذج للرواتب الشهرية لبعض الوظائف في عكا عام ١٩٤٧م

قائم مقام	٨٠ – ١٠٠ جنيه شهرياً
حاكم صلح	٨٠ – ١٠٠ جنيه شهرياً
مدير دائرة حكومية	٥٠ – ٦٠ جنيه شهرياً
مهندس	٤٠ – ٤٥ جنيه شهرياً
مدرس	٢٥ – ٣٠ جنيه شهرياً
عامل ماهر	٢٠ – ٢٥ جنيه شهرياً
عامل شبه ماهر	١٥ – ٢٠ جنيه شهرياً
سائق	١٥ – ٢٠ جنيه شهرياً
شرطي	٢٠ – ٢٥ جنيه شهرياً

أما تكاليف المعيشة فكانت منخفضة نسبةً للمرتبات. التعلـيم الحكـومي كـان مجانياً. كلفة النقل داخل المدينة تكاد لا تذكر.

أجرة المسكن الجيد تـتراوح مـن ٢ – ٣ جنيـه شـهرياً. وكلفـة المأكـل كانـت منخفضة نظراً لكثرة الإنتاج الزراعي. والطبابة كانت مجانية في مستشـفى الحكومـة.

أما الأطباء الخاصون فكانت كلفة الفحص لديهم لا تزيد عن ٣٠ قرشاً. كان هناك من هؤلاء الأطباء الدكتور أوردكيان والدكتور ناجي بيضون.

لكل هذا كان مستوى الادخار لدى السكان مرتفعاً نسبياً وهذا ما ساعد قسماً كبيراً من أهالي مدن فلسطين خاصة أن يحافظوا على مستوى معيشتهم بعد الهجرة إن لم تكن قد ارتفعت.

الحياة الثقافية والاجتماعية

بعد زوال الحكم العثماني وأثناء فترة الانتداب ازدهرت الحياة الثقافية والاجتماعية والأدبية في مدينة عكا كما باقي المدن الفلسطينية. فقد ازداد عدد مؤسسات التعليم الرسمي والخاص وتأسست الأندية الثقافية والرياضية كما نشطت الحركة الأدبية، وتم بناء عدد من دور السينما والمقاهي والمتنزهات العامة. وكان من بين من عملوا في عكا الدكتور المرحوم المؤرخ نقولا زيادة أستاذ التاريخ سابقاً في الجامعة الأمريكية في بيروت والذي أمضى عشرة أعوام في عكا بين ١٩٢٥ إلى عام ١٩٣٥م كأستاذ في المدرسة الثانوية، وهي فترة يعتبرها من أجمل سني حياته. كما عمل في عكا الدكتور أمين موافي أستاذ الرياضيات سابقاً في الجامعة الأمريكية في بيروت، والذي عاش في عكا وعمل كمدرس للرياضيات في المدرسة الثانوية خلال الفترة من ١٩٤٢ – ١٩٤٤م. كما كتب عن عكا وذكرياته بها وعن معالمها التاريخية وشاطئها الجميل الدكتور المرحوم هشام شرابي المفكر العربي المشهور والذي عمل كأستاذ للعلاقات الدولية في جامعة (جورج تاون) وكان من تلاميذه الرئيس الأمريكي الأسبق (كلينتون).

كان أهل عكا يتعايشون بمحبة ودون نظر للفوارق الطبقية أو المذهبية، وكانت العطلة الأسبوعية للمدارس والدوائر الحكومية يوميْ الجمعة والأحد.

وخلال فترة الانتداب كان يوجد في مدينة عكا مدرسة ابتدائية رسمية وأخرى ثانوية للبنين، ومدرسة رسمية ابتدائية للبنات وكان عدد الطلاب يتراوح بين ٤٥٠ – ٥٠٠ طالب يتوزعون بين خمسة صفوف ابتدائية، وكل صف يقسم إلى قسمين أ، ب ويضم كل فصل من ٤٠ – ٥٠ طالباً. وكان الطلاب ملزمين بارتداء زي موحد (الكاكي) وحلق الشعر على الصفر حفاظاً على النظافة.

بعد الانتهاء من الصف الخامس كان التلميذ يتابع دراسته في المدرسة الثانوية الرسمية والتي كانت تقوم على الشاطئ الغربي في عكا قرب بوابة سجن عكا وبملاصقة منزل المرحوم الشيخ سعد الشقيري.

وفي هذه المدرسة كانت تتواجد فصول السادس والسابع الابتدائي ثم أول وثاني وثالث ورابع ثانوي.

أما مؤسسات التعليم الخاص فكان في عكا أربع مدارس خاصة على مستوى الروضة (قبل الابتدائي) كما كان هناك مدرسة ابتدائية تضم سبعة صفوف. وكان هنالك مدرسة تابعة للأوقاف الإسلامية (المدرسة الأحمدية) وكان مقرها في صحن جامع أحمد باشا الجزار وكانت تدرس أصول الفقه الإسلامي ومواضيع إسلامية أخرى، وكان يشرف عليها فقيه عكا الشيخ عبد الله الجزار حتى وفاته عام ١٩٣٨م.

هذا وتم تأسيس عدد من الأندية الرياضية الثقافية في مدينة عكا، كان أهمها نادي أسامة بن زيد وتأسس في مطلع الثلاثينيات وكان في البداية يحمل اسم (جمعية الشبان المسلمين). وكان تغيير اسم النادي بتدخل من سلطات الانتداب. وكان هدف النادي تشجيع النشاطات الثقافية والكشفية والرياضية إضافة لحفز الشعور الوطني.

كما تأسس في عكا النادي القومي الرياضي عـام ١٩٤٤م. وكانـت لـه نفـس أهداف النادي السابق. كما كان هنـاك النـادي الأرثوذكسـي والـذي تأسـس عـام ١٩٢٩م، وكانت له نشاطات رياضية وثقافية وموسيقية إضافة للنشاط الكشفي.

وفي عام ١٩٤٥م تم تشكيل اتحاد طلبة فلسـطين وبمبـادرة مـن بعـض طـلاب مدينة عكا، وكان يضم طلبة المدارس الثانوية والكليات المختلفة في فلسطين، وكان هذا الاتحاد يشارك في مختلف الأنشطة المدرسية.

وتأسست في مدينة عكا عدة دور عرض سينمائية منها سينما الزهرة (رويـال) وهـي أقـدم دار عـرض في عكـا حيـث بـدأت بعـرض الأفـلام الصـامتة أواخـر العشرينات ومطلع الثلاثينات. وكانت تقـع داخـل البلـدة القديمـة. وكـان يملكهـا شخص يدعى قيصر عـزام. أواخـر الثلاثينـات تحـول اسمهـا إلى سـينما (رويـال) وكانت تعرض أفلاماً عربية وأجنبية ناطقة. توقفت عن العمل عام ١٩٤٤م خاصة بعد بناء سينما البرج الأكثر سعة وحداثة.

كمـا كـان هنـاك سـينما الأهلـي والـتي بناهـا الحـاج أحمـد اللبابيـدي مطلـع الثلاثينات خارج السور، وكانت تعرض بها المسرحيات وتسـتقبل أشـهر المطـربين والمطربات من مصر ولبنان وسوريا إضافة لفنـاني فلسـطين. هـذا إضـافة لعـرض الأفلام العربية والأجنبية وكانت قد استقبلت الفنان فريد الأطرش مع تحية كاريوكا ويوسف وهبي مع أمينة رزق وباقي نجوم فرقة رمسيس للتمثيل. وكان هنـاك أيضـاً سينما البرج والتي يقال بأنها ما زالت مستمرة كسينما حتى الآن.

أما مقاهي عكا فكان عددها يزيد على الثلاث عشرة مقهى مثل قهوة "أبو قبـة" وقهوة الجرمان مقابل الأول ثم مقهى شـتات والـدلالين والجرينـة والبحـر وحـابو وغرناطة والطزيني وحديقة البلدية ومقهى خلف. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل

على أن المقاهي كانت من أفضل الأماكن للرجال لقضاء أوقات الفراغ واللقاءات اليومية وما يدور بها من أحاديث حول الأوضاع القائمة.

أما بالنسبة للصحف والمجلات فكان أهالي عكا يتوزعون في قراءة صحيفة الدفاع التي كانت تصدر في مدينة يافا ويملكها إبراهيم الشنطي وجريدة فلسطين والتي كانت تصدر في يافا أيضاً ويملكها عيسى داود العيسى. أما المجلات فكانت الأكثر تداولاً وهي المجلات المصرية والتي كانت تصل بانتظام عن طريق القطار من مصر وفي طليعتها "المصور" "والاثنين" و"الهلال" وكلها كانت تصدر عن دار الهلال في القاهرة، كما كانت تصل (آخر ساعة) و"أخبار اليوم" لصاحبيها علي أمين ومصطفى أمين. والأهرام والمقطم كانت تصل متأخرة يوماً واحداً.

وكان يُسمع في عكا أربع إذاعات الأولى – الإذاعة المصرية وكان مستمعوها كثر نظراً لما تقدمه من برامج منوعة ودون منافس تقريباً.

أما الإذاعة الثانية التي كانت مسموعة فهي "الشرق الأدنى للإذاعة العربية" وكان مقرها مدينة يافا. ثم إذاعة القدس وكان مقرها مدينة القدس. الإذاعة الرابعة هي إذاعة لندن.

ومن أسماء رواد الحركة الأدبية في عكا كل من الشاعر ناصر عيسى الراعي وعبد المطلب فضة وأسمى الطوبي وسميرة عزام الأديبة المعروفة. وبعد الهجرة ظهر اسم الأديب المرموق غسان كنفاني.

المعلم يعقوب سيرة خائن لبلاده
وكيفية تعاونه مع حملة نابليون على مصر

بعد قيام الثورة الفرنسية (١٧٨٩م) بسنوات قليلة قام نابليون بحملته المعروفة على مصر، وذلك في سياق الصراع الاستعماري بين دول أوروبا في ذلك الوقت.

ولم يكن مستغرباً وكما في كل الاحتلالات الأجنبية لبلدان عديدة أن يجد نابليون من سكان مصر من يتعاون معه ويخون بلاده، وبدوافع مختلفة منها ما تكون مادية أو طلباً للمنصب والجاه وربما ثأراً من مواطنين آخرين إلى غير ذلك من عوامل ودوافع تؤدي بالبعض لخيانة الأوطان والتعامل مع الأعداء.

وهنا سنقف على أنواع من العمالة لفئات مختلفة من سكان مصر ولا نقول أبناء مصر، ذلك أن مصر كانت في ذلك الوقت وما تزال موطناً لأناس كثيرين لجأوا إليها واحتموا بها وأكلوا من خيراتها. وفي هذه الوقفة سوف نركز على خائن ربما كان أشهر الخونة لبلاده وشعبه وهو المعلم يعقوب والذي سُمي (بالجنرال يعقوب) فهذا العميل اندفع في خدمة الفرنسيين بكل ما أوتي من حماسة وإخلاص، وبذل من الجهود ما عجز عنه حتى الفرنسيين أنفسهم. هذا الخائن زعم البعض أنه أول من فكر باستقلال مصر ونسجت عنه الأساطير والعجائب. وهو في حقيقته لم يكن أكثر من أجير وضيع أو من (أسافل القبط) إذا ما استعرنا لغة ذلك العصر، عمل في خدمة كل سيد، كما عمل أسافل الروم وأسافل المسلمين مصريين ومغاربة.

يصفه عميد المدرسة الاستعمارية (كرستوفر هيرولد) بأنـه أي المعلـم يعقـوب بن حنا ومارية غزال كان يتسـم بصـفة نـادرة بـين قومـه هـي الشـجاعة والكفايـة الحربيتان.

اشتغل من قبل ناظراً لدائرة زميل لمراد (زعيم المماليك) يدعى سـليمان بـك، كان خبيراً بطبيعة البلاد وبأهلها، وله في كل مكان صلات. مثل هـذا الجـابي عنـد المملوك (سلمان بك) آغا الانشكارية، شأنه شأن العملاء من أمثاله سرعان ما ينقل ولاءه أو كرباجه من يد إلى يد فور تغير السيد، فعندما جاء الفرنسيون عينوه جابيـاً على الصعيد الذي لم يكن خضع لهـم بعـد (أي الفرنسـيين) ولكـي تقسـم الجبايـة والتحصيل ألحقوه مرشداً وجاسوساً وجابياً بجيش (ديزيه) الذي تولى مهام إخضاع الصعيد المصري. وهكذا وبعد سنوات طويلة من عمره قضاها في خدمة الاسـتبداد المملوكي نراه وقد تولى خدمة المحتل الأجنبي وهكذا يؤكد عمداء ومنظرو الحملات الاستعمارية الفرنسية الحديثة بأن المعلم يعقوب كان شريكاً لديزيه في حملته ويؤكـد أحدهم أن أهل الصعيد كانوا يسمون فرقة ديزيه "جيش المعلم يعقوب" وهكذا سمى نابليون حملته على سوريا بـ (جيش مصر) كمـا سميـت الحملـة علـى الصـعيد بـ (جيش المعلم يعقوب) ويعقوب هذا كان هو الذي يتولى عمليات القمع والتحصيل المتصلة بالأهالي فديزيه الفرنسي كما أكد "هيرولد" كان يأنف من هذه المهام القذرة، والضرورية في نفس الوقت لجيش الاحتلال، وفي مثـل هـذه الحـالات فـإن النـاس عادة يهتمون بالعميل أكثر من اهتمامهم بالعـدو الأجـنبي فهـم يـرون بـأن أعمـال المحتـل مهمـا تكـن نوعيتهـا وقسـوتها فهـي أمـر طبيعـي لأنـه جـاء أصـلاً طامعـاً ومستعمراً.

يقول مؤرخ الحملة الفرنسية المصري (الجبرتي) "في خامس عشـرة سـافر عـدد كبير من عسكر الفرنساوية إلى جهة الصعيد وكـبيرهم (ديزيـه) وصـحبته (يعقـوب

القبطي) ليعرفهم الأمور ويطلعهم على المخبآت" مثل هذا التعريف هل يمكن أن يُفهم منه غير أن هذا الذي رافق ديزيه وحملته لم يكن إلا جاسوساً ومرشداً.

و" يعقوب" هذا يحمل الجرم الأكبر في كل الجرائم التي ارتكبها جيش (ديزيه) في الصعيد. والذي أصر البعض على أن يجعل منه رائد القومية المصرية بل هو أبو استقلال مصر. (كما صرح بذلك علناً د. لويس عوض، وربما أسر بهذا آخرون).

والغريب أن معظم جرائم يعقوب هذا وقعت في الصعيد سواء أيام المماليك أو الفرنسيين، وهذا يدل على أنه لم يفرق في أعماله القذرة بين مسلم وقبطي، فقسم كبير من أقباط مصر يعيشون في الصعيد كما هو معروف، وبالتالي فلا يجوز نسبة مواقفه للأقباط، فقد كان محتقراً من أكابر القبط المحترمين، كان مطروداً ومعتدياً بوقاحة على الكنيسة، يدخلها مقتحماً على صهوة جواده، وكان البابا المصري ضده، وحتى أسرته تبرأت منه، كان سبه للأقباط وللمصريين عموماً، نموذجاً للعمالة للمستعمر الغربي، والغريب أنه وجد من يدافع عنه من أولئك الذين يروجون لفكرة الاتصال بالغرب والأخذ بكل أساليب حياته بعجرها وبجرها، ويخطئون الدعوة إلى مواجهته ومقاومته فهو متفوق تكنولوجياً ولا قدرة لهذه الأمة على الوقوف في وجهه. وكأن هؤلاء لم يقرأوا ويسمعوا عن آراء الغربيين بأبناء هذه الأمة وعن ممارساتهم ضدها منذ حملة نابليون إلى الجزائر ثم فلسطين وبقية أقطار الوطن العربي وأفريقيا.

لنقرأ جانباً من ممارسات بعض رجال الحملة الفرنسية كما أورد بعض قادتها " لقد كان ديزيه مضطراً لفرض ضرائب والاستيلاء على الماشية والجمال والخيل، وكانت توسلات القرويين أن يُعفوا من الضرائب لأنهم دفعوها فعلاً لمراد (زعيم المماليك) تلقى الرفض في مقر القيادة بالقاهرة؛ الرفض بلا استثناء، ومع أن كثيراً من القرى المصرية دفعت الميري (الضريبة) المفروض عليها مرتين في تلك السنة فإن

السلطان سليم الثالث والذي كان الفريقان يجمعانها باسمه لم يرَ منها قرشاً واحداً، وبعد أن رأى «دينون» هذه العمليات المالية عدة أسابيع بدأ يرثي (للأهالي) الذين أتينا إلى مصر لنحقق لهم الرفاهية، ذلك أنهم إذا أكرههم الخوف على ترك قريتهم عند اقترابنا منها، ثم عادوا إليها، لم يجدوا فيها سوى الطين الذي بنيت حيطانهم منه، فأدواتهم ومحاريثهم وأبوابهم وسقوف بيوتهم، كلها كانت تستعمل وقوداً لطهي نسائنا، وقدورهم تكسر وقمحهم يؤكل ودجاجهم وحمامهم يشوى، وأينما وقفنا بقرية أمرنا هؤلاء البؤساء بالعودة وإلا عوملوا معاملة العصاة أو حلفاء الأعداء ليدفعوا الميري، كان رجالنا يخطئون أحياناً بسبب كثرة أعدادهم وما يحملون من عصي، فحسبوهم جماعة من الرعاع المسلمين وفي هذه الحال تطلق دورياتنا النار دون تردد، دون أن يتسع لهم الوقت لبيان غرضهم، ثم يدفن موتاهم ونظل أصدقاء حتى يجدوا الفرصة للثأر دون أن يتعرضوا للخطر، صحيح أنهم لو ظلوا في قريتهم ودفعوا الميري – لوفروا على أنفسهم مشقة الرحلة إلى الصحراء، وتمتعوا بمشاهدة طعامهم يؤكل بطريقة منظمة وتلقوا نصيبهم منه ليأكلوه، واحتفظوا بأجزاء من أبوابهم وباعوا بيضهم للجنود، واغتصب من زوجاتهم وبناتهم عدد أقل" والغريب أن الفرنسيين كانوا يجمعون الضرائب باسم السلطان العثماني تماماً كالمماليك.

" أما احتلال «بليار» لأسوان فقد بدأ في الأسبوعين الأولين نزهة يتخللها القليل من القتال واغتصاب النساء ".

هذا وبينما كان ديزيه متفرغ للأعمال العسكرية، نجد أن عميله يعقوب كان متفرغاً لأعمال النهب والتفتيش عن المخبآت أموالاً كانت أو فتيات صعيديات مسلمات أو قبطيات يقدمهن إلى سادته من الضباط والجنود الفرنسيين، هكذا كانت مهمته، وبعكس كل ما روجته المدرسة الاستعمارية فإن "دعاية القبطي

البارعة" كما يصفها (هيرولد) لم تجد أي صدى في نفوس الفلاحين المسلمين والأقباط. ولكنها لاقت نجاحاً بين صفوف المماليك الذين كانوا يهجرون جيش قائدهم مراد وينضمون إلى جيش ديزيه بعد أن فتنتهم ولا ريب دعاية القبطي البارعة ودب الشقاق بين البكوات.

فهل كان يعقوب يروج دعاية بين صفوف المماليك عن بعث القومية المصرية، وضرورة أن تكون مصر للمصريين وبذلك يكسبهم ويقنعهم بالانضمام إلى صفوف الفرنسيين.

إن هذا الانضمام المملوكي إلى جيش الفرنسيين في الصعيد سواء أكان بسبب نشاط يعقوب وهو غير مستبعد أصلاً بسبب صلاته القديمة بالمماليك، أو بسبب انهيار المماليك أمام التفوق الفرنسي وكنتيجة لانتهاء دورهم التاريخي قبل الحملة بسنوات عديدة، فهم كطبقة خارج التاريخ، لا يستغرب تحولها إلى مرتزقة وتخليها حتى عن الدفاع عن مصالحها والوطن الذي تحكمه. (ونحن نعلم أن العثمانيين عندما قاموا بفتح مصر وتغلبوا على المماليك، كانوا قد استعانوا بهؤلا على حكم مصر وفوضوا لهم كافة الصلاحيات التي كانت لهم أيام دولتهم «دولة المماليك»، ولكن أصبحوا يحكمون مصر باسم السلطان العثماني).

إذن وقف يعقوب ومن معه من العملاء والمماليك الهاربين إلى جانب الفرنسيين في قتالهم ضد فلاحي الصعيد المنهوبة أرزاقهم. وكان المماليك يتفردون بنهب القرى التي لم يصل إليها الفرنسيون فقد رأوا فيها أكثر نفعاً لهم.

وكان السيف من نصيب الفلاحين وحدهم. ورد في الرواية " فخف دافور – قائد فرنسي _ إلى المكان وفي أول مايو قتل ألفين من الفلاحين المسلحين في بني سويف، وكانت خسائر الفرنسيين ثمانية رجال وهو عمل مجيد بلا ريب، هكذا يقول هيرولد بسخرية مريرة. هذه الأعمال القذرة لرجال الحملة الفرنسية يصفها

البعض (لويس عوض وأمثاله) بأنها مهمة تحضيرية وبعث للقومية المصرية. إنه ولكي يبرئ العميل يعقوب ومن هم على شاكلته كان عليه أن يبرئ ساحة الحملة الفرنسية كلها ويدين الفلاح المقتول.

أما دور يعقوب ومواهبه إضافة إلى التجسس والقيام بدور المرشد والدليل للفرنسيين فقد كان يتجسد أصلاً في نهب جيوب المصريين إلى آخر قطعة عملة. وهنا ينبري المدافعون عن يعقوب بقولهم إنه كان يقوم بتنظيم مالية البلاد، ولكن نرى أن هيرولد ذاته قد سخر من هذا التعبير وفسر هذا التنظيم بأنه النهب والسطو الذي مارسه الفرنسيون والمماليك على السواء. وأثناء ثورة القاهرة الثانية قاد يعقوب الطابور الخامس المسلح الذي قاتل ضد مواطنيه الثائرين، ثم تولى بعد ذلك قهر الثورة بعمليات التنكيل والاعتصار المالي.

وفور توقيع وثيقة استسلام وجلاء جيش الاحتلال الفرنسي بادر يعقوب فخرج بمتاعه وعدى إلى الروضة، وكذلك جمع إليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى. واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا إلى الوجهاء والقائمقام وبكوا ورجوه في إبقائهم عند عيالهم وأولادهم فإنهم فقراء وأصحاب صنائع ما بين تجار وصاغة وعمال بناء وغير ذلك فوعدهم أنه يرسل إلى يعقوب أنه لا يقهر منهم من لا يريد الذهاب والسفر معه.

هذا النص يظهر أن الذين كانوا ينوون السفر مع يعقوب هم خليط من الذين ارتكبوا بأشخاصهم جرائم وعرفوا أنهم يستحيل لهم العيش مع مواطنيهم وفي بلدهم بعد جلاء الفرنسيين. وكان منهم من أجبرهم يعقوب على السفر معه رفقة الفرنسيين. كما سافر معه بعض المغامرين الذين خدموا في مؤخرة جيش فرنسا، وكانوا يطمعون في خدمات جديدة في مستعمرات جديدة. وبعضهم قاتل فعلاً في

خدمة جيش فرنسا بالجزائر رغم تقدم السن به، وبعضهم كان يحلم بعودة ثانية إلى مصر مع الجيش الفرنسي الذي طالما توعد وهدد الفرنسيون المصريين بعودته.

هذا الخليط هو الذي خرج إلى الروضة كما يسجل الجبرتي:

"وفي يوم الأربعاء تاسع عشر صفر الخير ١٢١٦هـ خرج المسافرون مع الفرنساوية إلى الروضة والجيزة بمتاعهم وحريمهم وهم جماعة كثيرة من القبط وتجار الإفرنج والمترجمين وبعض المسلمين ممن تداخل معهم وخاف على نفسه بالتخلف (أي إذا بقي) وكثير من نصارى الشوام والأروام مثل يني وبرطلين ويوسف الحموي وعبد العال الآغا الذي طلق زوجته وباع متاعه وفراشه وما ثقل عليه من أطقم وسلاح وغيره، ولم يحمل معه إلا ما خف حمله وغلا ثمنه" أمثال هؤلاء هم مخلفات الجيوش وأوساخ الاستعمار التي تتعلق بحذائه وترحل معه، يوجد منها العديد في عواصم كل الدول الاستعمارية مع زوال الاستعمار ورحيل قواته وأمثال هؤلاء يوجدون في كل زمان ومكان.

أما يعقوب هذا فإننا رأينا من خلال ما قام به من أعمال أفاقاً من أسافل القبط – كما كان الآغا عبد العال من أسافل المسلمين، عمل يعقوب في خدمة المماليك ثم رشحه الآغا لخدمة الفرنسيين، ولأنه سبق له الخدمة في الصعيد على عهد المماليك فقد ألحقوه بخدمة الجنرال (ديزيه) ليطلعه على المخبآت، فكان أداته وعميله في التنكيل الذي نزل بالصعايدة مسلمين وأقباط، ثم عاد إلى القاهرة حيث حول بيته إلى قلعة حربية ضمن الخطة الفرنسية التي أعقبت الثورة الأولى وهي تطويق القاهرة بالقلاع المحصنة تحسباً للتحرك المقبل وعندما وقعت الثورة الثانية أصلى مواطنيه ناراً حامية من قلعته هذه وبواسطة جنود فرنسيين كانوا بها بصفة دائمة فلما انتهت الثورة ظهر وأشرف على سلخ المصريين في العملية المعروفة باسم (جمع الفردة) (١٢ مليون فرنك) واستعان به الفرنسيون في تجنيد عدد من شباب

القبط حيث أرادوا بهذا الفيلق قصم الوحدة الأبدية بين عنصري الشعب المصري. وكانت علاقته سيئة بالكنيسة المصرية يتطاول على كبارها ولا يتردد في اقتحامها على ظهر حصانه شاهراً سيفه، وكان منبوذاً من عائلته، رفض إخوته الاعتراف بشرعية زواجه من امرأة كان يعاشرها وهجرها بنذالة عندما فر هارباً مع جيش الاحتلال.

المعلم يعقوب هذا كما كان يطلق عليه ولد في (ملوي) حول عام ١٧٤٥م من حنا ومارية غزال، والتحق في عهد علي بك الكبير بخدمة سليمان آغا الانكشارية أو رئيسها، ومن خلال إشرافه على أملاك رئيس الانكشارية استطاع أن يجمع ثروة كبيرة، وشارك في الحروب التي كانت تدور بين أمراء المماليك حيث ظهرت مواهبه العسكرية. كما هي الإدارية.

وعندما دخل نابليون بجيوشه أرض مصر التحق يعقوب بخدمة الفرنسيين في وظيفة إدارية بجيش الجنرال ديزيه وصاحب الجنرال أثناء حملته على الصعيد، فكان يشرف على عمليات تموين الجيش الفرنسي بالأغذية، ومختلف الاحتياجات، وكان يشترك في قتال المماليك بشجاعة وضراوة جعلت الفرنسيين يقدمون له سيفاً تذكارياً تكريماً له.

وهذا العمل الذي قام به يعقوب وجد من أبناء مصر مثل لويس عوض من يدافع عنه ويصفه بأنه تنظيم للتموين وإمداد الجيش بالأغذية، كأي متعهد في الجيش البريطاني وقت كان يحتل مصر. مع أن تموين الجيش كان يتم بنهب وحرق القرى المصرية على يد يعقوب ومن معه.

أما الذين كان يحاربهم ديزيه ومعه يعقوب فلم يكونوا المماليك وإنما طوائف من شعب مصر الكادح، فالمماليك تركوا شعب مصر في الصعيد وهربوا بجلودهم. لا بل إن الدور الحقيقي ليعقوب بالنسبة للماليك كان تجنيد من يستطيع منهم

للعمل مع الفرنسيين. وعندما غادر بونابرت مصر عاد المعلم يعقوب إلى القاهرة وكلفه كليبر بتنظيم مالية مصر وعينه قائداً للفيلق القبطي الذي شكل في مصر ليعاون الفرنسيين في حربهم ضد المماليك، ثم عُين مستشاراً لمسيو أستين مدير الإدارات العامة ورقاه القائد العام (عبد الله جال مينو) إلى رتبة جنرال وجعله مساعداً للجنرال بليار في مارس ١٨٠١م للدفاع عن القاهرة ضد هجوم الجيش التركي الإنجليزي. ومنذ ذلك التاريخ ارتبط مصيره ومصير الفيلق القبطي بمصير الجيش الفرنسي.

وعند تسليم القاهرة في يونيه ١٨٠١م دخل الجنرال يعقوب في اتفاقية التسليم " وهكذا غادر القاهرة ليبحر إلى فرنسا مع الجيش الفرنسي بعد ثلاث سنوات قضاها في التعاون مع الفرنسيين.

هذا وكان يساعد الجنرال يعقوب رجلاً آخر يدعى (الطاراني) وهو الذي تولى أمر اعتقال المسلمين وحبسهم ومعاقبتهم وضربهم، فكان يجلس على الكرسي وقت القائلة ويأمر أعوانه بإحضار الأفراد المحبوسين من التجار وأولاد الناس كما يقول الجبرتي فيبطحونه ويُضرب بين يديه ثم يردوه إلى السجن بعد أن يأمر أعوانه أن يذهبوا به إلى داره وبصحبته الجماعة من عسكر الفرنسيين ويهجمون على حريمه وأمثال ذلك.

ولقد بقي "مصطفى الطاراني" معاون يعقوب حتى تجرع نفس الكأس على يد العثمانية واستخرج منه صناديق لا حصر لها من المال (فقط استطاع هو أيضاً أن ينمي ثروته) ثم داروا به يتسول، وهرب منهم ليتعرف عليه أحد ضحاياه فقبضوا عليه ويسلمه. فقبضوا عليه وقتلوه وتركوه مرمياً تحت الأرجل وسط الطريق وكثرة الازدحام ثلاث ليال.

وقبل يعقوب كان قادة الحملة الفرنسية قد كلفوا رجلاً من أقباط مصر يدعى (شكر الله) بجمع الضرائب والأتاوات من أبناء الشعب المصري، فنزل بالناس منه ما لا يوصف فكان يدخل إلى دار أي شخص كان لطلب المال وصحبته العسكر الفرنساوية وأدوات الهدم بأيديهم فيأمرهم بهدم الدار إن لم يدفعوا له المقرر وقت تاريخه، وكان يحبس الرجال والنساء وينوع لهم العذاب ما لم يدفعوا.

الفيلق القبطي

يقول الجبرتي في تاريخه وهو شاهد عصر تلك الحقبة:

"ومنها أي حوادث عام ١٢١٥هـ (١٨٠٠ – ١٨٠١م) أن يعقوب القبطي لما ظاهر الفرنساوية وجعلوه سارى عسكر القبطية، جمع شبان القبط وحلق لحاهم وزياهم بزي مشابه لعسكر الفرنساوية مميزين عنهم بقبع يلبسونه على رؤوسهم مشابه لشكل البرنيطة وعليها قطعة فرو سوداء من جلد الغنم في غاية البشاعة مع ما يضاف إليها من قبح صورهم وسود أجسامهم وزفارة أبدانهم (المقصود هنا ربما أن يصور الجبرتي صورة المسخ العميل الذي يقلد سيده) وصيرهم عسكره وعزوته، وجمعهم من أقصى الصعيد، وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التي هو ساكن فيها خلف الجامع الأحمر وبنى له قلعة وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام، وكذلك بنى أبراجاً في ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية وجعل على السور المحيط والأبراج طيقاناً للمدافع وبنادق الرصاص وجعل الحراس الحاملين للبنادق يحيطون بالمعسكر ليلاً ونهاراً على طريقة الفرنساوية.

يقول شفيق غربال: كتب الجنرال مينو إلى بونابرت كتاباً يقول فيه "إني وجدت رجلاً ذا دراية ومعرفة واسعة اسمه المعلم يعقوب، وهو الذي يؤدي لنا خدمات باهرة ومنها تعزيز قوة الجيش بجنود إضافية من القبط لمساعدتنا".

هذه القوة كانت بلا شك من أدوات تثبيت الاحتلال وإلا ما كان سمح بإنشائها كما يقول غربال.

أما المماليك؛ والذي يقول البعض إن تشكيل الفيلق القبطي تم لأجل محاربتهم كانت فئات منهم غير قليلة تتعاون مع جيش الاحتلال الفرنسي مثل مراد وجماعته والذي دعا مجموعات من جيش الاحتلال وأكرمهم إكراماً زائداً وقبض منحة منهم وأهداهم الغنم، وتولى حكم الصعيد بأمرهم وتحت حمايتهم وبمرتب شهري له ولزوجته تقبضه في القاهرة.

ومن المماليك من أصبحوا يظهرون خلف كليبر في الاستعراضات بل ويتشفع بهم المشايخ عند الفرنسيين ليخففوا عنهم اضطهاد يعقوب ومطالبه المالية، ويسيرون في (ساري عسكر) كليبر ويأسف عثمان بك البرديسي لأن (مينو) لا يأخذ بنصائحه ويستعد لمواجهة الزحف التركي – الإنجليزي. ويقول إن قائداً مثل الجنرال مينو سيكون سبباً في ضياع الجيش الفرنسي. إذن البرديسي بك يأسف على ضياع الجيش الفرنسي.

والحقيقة أن موقف المماليك من الفرنسيين والإسراع لخدمتهم والتطوع في صفوف جيوشهم لم يكن أمراً غريباً، فهم غرباء عن مصر أصلاً جاء بهم الأتراك من مناطق متعددة من آسيا وجنوب شرق أوروبا، وكان الكثير منهم من غير المسلمين أصلاً ولكن أسلموا كباراً على يد الأتراك حينما تم أسرهم أو شراؤهم.

من أمثال هؤلاء المدعو "نقولا بابا زوغلو" الذي أصبح آمراً لكتيبة من المماليك ورقي لرتبة جنرال بعد إخماد ثورة القاهرة الثانية، وكان المذكور خادماً عند مراد بك قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر، حيث وضع نفسه تحت تصرف الفرنسيين وكان عدد أفراد كتيبة المماليك ١٥٠٠ مقاتل كما يقول الجنرال "رينيه" في كتابه (مصر بعد واقعة عين شمس).

يقول الجبرتي في تاريخه "كذلك اتخذ مراد بك أتباعاً لـه مـن النصـارى الأروام وجعل عليهم رئيساً كبيراً رجلاً نصرانياً وهو الـذي يقـال لـه نقـولا، بنـى لـه داراً عظيمة بالجيزة وأخرى بمصر وله عزوة وأتباع من نصارى الأروام المرتبين عسـكرياً وكان نقولا يركب الخيل ويلبس الملابس الفـاخرة ويمشـي في شـوارع مصـر راكبـاً وأمامه وخلفه قواسة يوسعون له الطريق في مروره على هيئة ركوب الأمراء".

التاريخ عرّف العملاء للمحتلين بمختلف مراحله الطويلة، وهؤلاء العملاء لا ينحصرون بطائفة أو ملـة أو جنسـية، فهـم أنـاس ضـعاف النفـوس يلـهثون وراء مصالحهم الشخصية وإشباع نزواتهم وأهوائهم المريضة. لذا فمن الغريـب أن نـرى مثقفين وحائزين على أعلى الشهادات العلمية وهـم يـدافعون عـن بعـض هـؤلاء العملاء لدوافع طائفية مقيتـة، متجـاهلين أخطـار العمـلاء ومـا يسـببونه لبلـدانهم وأوطانهم من مآس ونكبات.

نرى واحداً مثل الدكتور لويس عوض يدافع عن "الجنرال يعقوب" فيقول "إن المعلم يعقوب تشرب أفكـار الثـورة الفرنسـية في هـذه الاجتماعـات الكـثيرة الـتي اختلط فيها الضابط بالدوبلوماسي بالفنان فالتهبت روحه بحب الحرية لبلاده".

وهذه الحرية بينا جانباً منها في صفحات سابقة.

ويواصل لويس عوض تجميل تاريخ يعقوب فيقول:

"والمعروف أنه عندما تحالف الإنجليـز مـع العثمـانيين لاسـتخلاص مصـر مـن الفرنسيين وردها للباب العالي ازدادت ضرائب الاحتلال الفرنسي إلى درجة بشعة فأثقلت كاهل المصريين لمواجهة نفقات الحرب، فكان المعلم يعقـوب يتـدخل لـدى السلطات الفرنسية آناً لتخفيف عبء الضرائب، وآناً لتقسيطها".

والمقصود بالضرائب هنا أنه اسم مهذب للفردة والغرامة والأتاوة.

ونرى الدكتور لويس في موضع آخر يقول:

"ويعقوب كان يستطيع أن يبقى في مصر والراجح أنه كـان مؤمنـاً علـى حياتـه وأملاكه لحاجة الترك إلى خدماتـه، ولكـن الجنـرال يعقـوب كـان يحمـل في جعبتـه مشروعاً خطيراً كان في نيته عرضه على الإنجليز والفرنسيين وهو مشروع اسـتقلال مصر ولكن حقيقة هذا الأمر - أي سعي يعقوب لاستقلال مصر - هـو أمـر غـير صحيح بالطبع لأن ظروف مصر والصراع الاستعماري على مصر ومنطقة الشـرق العربي لم تكن تسمح لأي كان بـالتفكير في موضـوع الاسـتقلال، لاسـيما بوجـود الدولة العثمانية الضعيفة آنذاك.

الجنرال يعقوب وبإحساس العميل لكل جهـة يـرى أنهـا الأقـوى وتحقـق لـه أطماعه في السلطة والمال، رأى أن المستقبل في هذا الصراع هو لبريطانيا لذلك أخذ يتقرب من بعض قادة الإنجليز ويعرض عليهم التعاون معهم بحجة أن أي حكـم في مصر بنظره خير من حكم الترك.

وقد وصفه أحد الإنجليز ويدعى (لاسكاريس) برسالة له إلى مسؤول بريطاني بأنه " زعيم من زعماء طائفة الأقباط وأنه بحكم هذه الصفة يتمتع بمكانة عالية ونفوذ كبير في مصر " أما لاسكاريس هذا فإنه من أصل مالطي وكان ضمن الأقليات الـتي كانت تعيش في مصر ومثله مثل يعقوب كان يعرض خدماته على أي جهة تحقق له مصالحه.

وقد كلفه الجنرال مينو تنظيم شـبكة تجسـس بالتعـاون مـع يعقـوب تمتـد إلى سوريا. وكان من الطبيعي ذكر يعقوب في مثل هذه المهمات فهذه مهنته ولعبته.

وهذه الشبكة كمـا هـو ثابـت مـن رسـالة (منيـف إلى يعقـوب كانـت تتـولى التجسس على الأقباط كما المسلمين).

لا بل ويزيد الجنرال مينو الأمر وضوحاً في الأمر الذي وجهه إلى يعقوب فيقول له " أنت تعلم أنني قليل الثقة في عدد كبير من مواطنيك الأقباط، فراقبهم بعناية فائقة إذ أنهم غير مرتاحين إلى الإجراءات الإدارية التي اتخذتها والتي ترمي إلى إعادة النظام الذي لا يحبوه ".

فيعقوب إذن لم يكن مصرياً ولا قبطياً في ولائه ولكنه كان عبد نفسه وما تسول له، ولا يعمل إلا لمصلحته الشخصية. ومثل يعقوب كثيرون من الأقباط وغير الأقباط فقد أخبرنا مؤرخو تلك الفترة عن طوائف متعددة تعاونت مع الفرنسيين من مغاربة ومماليك وبعض أهل الشام الذين كانوا يسكنون مصر وكذلك مصريون آخرون لا بل وبعض المشايخ. فالتعاون مع المحتل ظاهرة لم تخل منها أي فترة من فترات التاريخ الطويلة فدائماً نرى الخونة وضعاف النفوس ومن يبحثون عن مصالحهم الشخصية وربما هناك من يتعاون عن قناعة ولدوافع في نفسه وإيراد قصة المعلم يعقوب لم تكن بأية دوافع، وإنما وردت كحادثة تاريخية عادية يجب الاطلاع عليها.

الدكتور (وليم سليمان) القبطي المصري نراه يدين يعقوب ويتبرأ منه بل ويعلن إدانته، وهذا هو ذات الموقف الذي اتخذته الكنيسة من يعقوب والذي أثبته تاريخ الأمة القبطية يقول " وتسجل كتب التاريخ القبطي تبرؤ الكنيسة المصرية من الشخص الذي ينحرف عن هذا التقليد التعريف (يقصد هنا ولاء الأقباط لوطنهم مصر).

ويستطرد الكتاب أي (تاريخ الأمة القبطية الصادر عام ١٨٩٨م) وصفه ليعقوب فيقول " إن يعقوب هذا سار في خطة تخالف ما كان عليه أبناء جنسه، فإنه فضلاً عن مخالفته لهم بالزي والحركات اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية، كما أن رجال الدين ولا سيما البطريرك لم يكونوا راضين عن تصرفاته

وأحواله، وأن بعض شيوخ الأقباط المسنين ولا سيما البطريرك نصحوه مرات عدة بالعدول عن تصرفاته فلم يقبل.

نهاية يعقوب

بعد فشل الحملة الفرنسية ورحيلها عن مصر اختار البعض من المتعاونين وكما هو الحال في كل زمان ومكان في العلاقة بين المستعمر والشعوب التي يحكمها فقد اختار بعضاً من هؤلاء المتعاونين وعلى رأسهم المعلم يعقوب مرافقة الحملة إلى فرنسا وكان من ضمن هؤلاء كما يقول الكابتن الإنجليزي ربان الباخرة التي استقلوها إلى فرنسا (كرستوفر هيرولد) وبعد أن استقصى أمرهم كانوا " ٧٦٠ من الأقباط والروم والمماليك الذين فضلوا أن يصحبوهم إلى فرنسا " – " وأما المماليك والأقباط والسوريون الذين تبعوا الفرنسيين إلى فرنسا، وكانوا صالحين للخدمة العسكرية فتألف منهم سلاح المماليك، وعاش الباقون عيشة الضنك على رواتب ضئيلة " ويقال إن من كان منهم صغير السن شارك في الحملة الفرنسية لاحتلال الجزائر عام ١٨٣٠م.

أما يعقوب فإنه لم يصل إلى فرنسا فقد أصيب بالحمى وهو في عرض البحر وكانت وفاته، وقيل إن جثته رميت بالبحر كما قيل أيضاً أنها وضعت في برميل للخمر، فقد كان أوصى بأن يُدفن إلى جانب (ديزيه) سيده الفرنسي المباشر أثناء وجود الفرنسيين في مصر.

ومن المفيد هنا ولتكتمل الصورة أن نبرز وجهاً آخر من وجوه العمالة للأجنبي ذلك هو (بارتملي) أو (برتلميو) والذي عينه بونابرت (كتخذا مستحفظان) القاهرة (أي نائب المحافظ) وكان يقود سرية قوامها مئة من الأروام والجزائريين والمغاربة إذ كلف بمهمة بوليسية لحفظ الأمن وراحة الفرنسيين. كان فارع القامة، لا

ينسى الناظر مظهره وهو يخرج على رأس أتباعه الأوغاد في عمامة بيضاء ضخمة تظهر بشرته البرونزية وعيناه تلمعان، وعلى شفتيه ابتسامة يجمد لها الدم في العروق وقد ارتدى ثوبه اليوناني الموشى بالقصب، وحزاماً أحمر وسراويل ضخمة، ومعطفاً تعلوه رمانتان يضعهما على كتفيه وكانت زوجته العملاقة الرهيبة تركب أحياناً إلى جواره. وكان بارتملي يحب العراك، لأنه يتيح له إظهار شجاعته والتباهي بثيابه، ولكن أحب الأشياء إليه قطع الرقاب بالجملة روي أنه إذا لم يجد من البدو المتمردين من يحمل رؤوسهم إلى القاهرة تذكاراً كان يعزى نفسه برؤوس الفلاحين عاثري الحظ الذين يجدهم أمامه. يقول مؤرخ قديم للحملة الفرنسية "كان في منظره وهو يسير إلى القلعة وقد جرد سيفه في يده ومن خلفه ضحاياه المكبلين ما يكفي لإخماد كل النوايا الشريرة في قلوب الكثيرين) وإن كان هذا الكلام ليس صحيحاً فالثورة لم تخمد في نفوس المصريين ضد المحتل والطغاة. ولم يرعبهم مثل هذا المرتزق المنحط. بل أطلقوا ضده لسان السخرية المصرية فسموه (فرط الرمان) هزءاً بالشارة العسكرية التي يضعها فوق كتفيه هذا وقد وصف لنا مؤرخ مصري صورة لهذا العميل فقال" قلدوا هذا العميل برطلمين وهو الذي يسميه المصريون فرط الرمان كتخدا مستحفظات وركب بموكبه من بيت ساري العسكر وأمامه عدة من طوائف الأجناد والبطالين مشاة بين يديه، وعلى رأسه حشيشة من الحرير الملون، وهو لابس فروة وبين يديه الخدم بالجراب المفضضة ورتب له بيوك باشي بأن عينوا له ولأتباعه مراكز بأخطاط البلد يجلسون بها وسكن المذكور ببيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين أخذه بما فيه من فرش ومتاع وجواري والمذكور من أسافل نصارى الأروام العسكرية القاطنين بمصر وكان من الطبجية عند محمد بيك الألفي، وله حانوت بخط الموسكي يبيع فيه قوارير الزجاج أيام البطالة.

هذه هي طبيعة المرتزقة والغرباء في كل زمان ومكـان، إنهـم في خدمـة السـيد مهما كانت أهدافه أو جنسه وعقيدته برطلمين هذا كان مرتزقاً في الجيش العثمـاني وهو من نصارى الأروام العسكريين، وخدم طوبجي (مدفعجي) عند المملوك محمـد الألفي، ولما جاء الفرنسيون تألقـت مواهبـه في قطـع رؤوس المصـريين. وفي حـال التبطل فإنه يبيع قوارير الزجاج.

جنود الحملة الفرنسية

كيف تعامل الفرنسيون مع نساء مصر

لعل من أكثر ما يواجه الجيوش الغازية في ابتعادها عن بلدانها والحلول في بلدان بعيدة أجنبية قلما يعلمون شيئاً عن معتقداتها وطبائع أبنائها وعاداتهم وتقاليدهم هي مشكلة النساء وكيف يتصرفون لتفريغ طاقاتهم وإشباع غرائزهم. لذلك فلا غرابة أن نسمع القصص والروايات المختلفة عن ممارسات الجيوش مع النساء وظهور الكثير من الأمثال والحكم الشعبية حول هذا الموضوع. هذا وقد قرأنا وسمعنا عن وجود دور خاصة للدعارة في عدة مدن في العالم، وربما كان بعضها مخصصاً للجيوش ولكن دون الإعلان عن ذلك وحتى في عهد الدولة العثمانية وجدنا الكثير من مثل هذه البيوت المنتشرة في أكثر من قطر ومدينة.

والآن سوف نقف على حال جيش غار وكيف كان تعامله مع النساء، إنه جيش الحملة الفرنسية على مصر وكيف تعامل مع نسائها سواء من المصريات أو من نساء الأقوام الأخرى التي كانت تعيش في مصر.

والغريب أن بعض الفرنسيين والمصريين أيضاً من أمثال (لويس عوض) يعتبرون أن عام ١٨٠٠م وهو العام الذي كان يوجد به رجال الحملة الفرنسية في مصر يعتبر عاماً لتحرير المرأة المصرية، أو كان بداية التحرير.

والغريب أنهم يستشهدون على هذا التحرير بوصف الجبرتي لأحوال النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء، وهو أنه لما حضر الفرنسية إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح

الكشميري والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة. فمالت نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبدل الأموال لهن، وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في إخفائه، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيين بولاق وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات وصرن مأسورات عندهم فزينوهن بزي نسائهم وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال.

فخلع أكثرهن من نقاب الحياء بالكلية وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر لاسيما عندما اجتمعت الخيرات في حوز الفرنسيين ومن والاهم، وما حل بأهل البلد من الذل والهوان. وقد لاحظت النسوة مدى رغبة الفرنسيين بالنساء وخضوعهم لرغباتهن وعدم مخالفة هواهن فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار، ومالت نفوسهن إلى الشهوات وخصوصاً القاصرات. وخطب الكثير من جنود الحملة بنات الأعيان وتزوجوهن. وكان أحدهم يظهر الإسلام في حالة العقد وينطق بالشهادتين لنيل ما يريد. هذا عدا عما شهدته البلاد من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيين ومصاحبتهن لهم في المراكب.

والرقص والغناء والشرب في النهار والليل في الفوانيس والشموع الموقدة، وعليهن الملابس الفاخرة والحلى والجواهر المرصعة، وبصحبتهم آلات الطرب وملاحو السفن يكثرون من الهزل والمجون ورفع الأصوات وخصوصاً إذا دبت الحشيشة رؤوسهم وتحكمت في عقولهم.

وأما الجواري السود فإنهن لما علمن رغبة القوم في مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجاً وفرادى وأزواجاً، فنططن الحيطان وتسلقن إليهم من الطبقات ودلوهم على مخبآت أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك.

إذن مثل هذه الممارسات إضافة للتكسب بالجنس تعتبر ثورة نساء وتحريراً للمرأة برأي البعض فيمن يرون في دول الغرب المثل الأعلى والقدوة في كل عمل يقومون به. ويزيد دعاة التحرر هؤلاء بالقول إن كل ما كان يجري كان برضى رجال مصر وبعلمهم. والحقيقة أن ما جرى كان بسبب ضغط الحاجة والشره إلى المكاسب، هذا إضافة لما كانت تعج به أرض مصر قبل الحملة من الغواني والراقصات والجواري وغيرهن من الفواحش واللاتي وجدن فرصتهن في وجود الفرنسيين بأرض مصر. وإن كن يحتجن إلى التكتم بممارسة ما كن يقمن به مع جنود الحملة الفرنسية حتى وان كان ذلك في بداية الأمر. وذلك تحرجاً أو خوفاً من انتقام المجتمع، ولكن مع الانهيار الشامل وسقوط القاهرة تحت أقدام الغزاة بعد الثورة الثانية وأسر بنات الأسر وتحويلهن إلى جواري وسبايا وإجبارهن على التحول إلى غانيات عندئذ سقط الحياء، فما دام أن بنات الأسر (تبهدلن) فهل تتعفف المومسات والفواحش. بالعكس فلم يبق أمامهن إلا أن يكشفن أكبر قدر ممكن من عوراتهن بعد أن حميت المنافسة بقيام أكبر سوق للحريم والجواري عرفه تاريخ مصر، وبعدما انهارت قدرة المجتمع على المقاومة وهو يرى بنات وزوجات شريفات يتحولن إلى رقيق في مواخير وخمامير ومعسكرات جيش الاحتلال.

إذن رجال الحملة الفرنسية بعد أن قاتلوا بولاق وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم فزينوهن بزي نسائهم وأجبروهن على طريقتهم في كامل الأحوال فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية، وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر. (هكذا يقول الجبرتي).

أما مؤرخ آخر يدعى نقولا الترك فيقول متحدثاً عن النساء المصريات في معسكرات جيش الاحتلال يؤكد أنهن «مملوكات من الإفرنج جهاراً ماشيين معهم

في الطريق قايمين في بيوتهم» ولو كن زوجات لما قال ذلك لأن الزوجة من الطبيعي أن تنام وتقوم في بيت زوجها.

أما (هيرولد) فيؤكد ذلك بقوله: واستولى الجنود على ما استطاعوا العثور عليه، بما في ذلك عدد كبير من النساء ظلوا يعاشروهن معاشرة الأزواج طوال سنة الاحتلال الباقية.

ظاهرة الانحلال ظاهرة عامة في المستعمرات وليس لها علاقة بمركز المرأة، فهي ظاهرة تنشأ عند قشرة المجتمع، عند نقطة احتكاكه بالمحتل الأجنبي، أما بقاؤها أو اندثارها فيرتبط بعوامل متعددة لا مجال هنا لشرحها. ولكن وعلى كل الأحوال فان المرأة لا تتحرر على يد جيش أجنبي غاز، يقتل وينهب ويهتك الأعراض ولا يترك فاحشة إلا ويرتكبها لا بل مارس الفرنسيون إسترقاق المصريات وعاملوهن معاملة الجواري، في الوقت الذي لا يفكرون به في أن يضعوا امرأة فرنسية في هذا الموضع (جارية) فهي صفة مرفوضة بالنسبة للفرنسية حتى لو كانت من واحدة من الثلاثمائة مومس التي كتب نابليون يطلب من حكومة الإدارة في باريس إسعافه بهن لإشباع غرائز ضباط الحملة وكبار مسؤوليها، استرقاق المرأة المصرية إذن مقبول، فالمصرية أقل من أوضع امرأة فرنسية.

فالفرنسيون لم يعبروا عن أي احترام للمرأة المصرية أو المقيمة في مصر، ولا حتى أولئك الذين اجبروا للزواج بهن زواجاً شكلياً لمجرد الحصول على جسد المرأة.

لا بل إننا نزيد ونقول إن المرأة في الشرق كانت أكثر تحرراً من نساء فرنسا وغيرها، فقد شهدت تلك الفترة بروز نساء شرقيات تولين الحكم لاسيما وفي مصر وفي الفترة المملوكية بالذات مثل شجرة الدر، التي تولت الحكم ودعي لها على المنابر وضربت العملة باسمها، وأهم من كل ذلك أنها قهرت (لويس) التاسع ملك

فرنسا وكذلك (نفيسة المرادية) زوجة علي بك الكبير ثم زوجة مـراد بـك وكانـت على جانب كبير من التثقيف والتهذيب وروعة الجمال (أصلها شركسـي) ولكنهـا أتقنت العربية قراءة وكتابة وأقبلت على الكتب العلمية تطالعها وتدرسها، فارتقت مداركها ونالت احترام الجميع من علماء وبكوات المماليك.

أما رجال الحملة الفرنسية فقد استغلوا وجودهم في مصر فامتلكوا الجـواري والغلمان ومارسوا ما نعتبره نحن من سلبيات عاداتنا وممارساتنا أكثر مما مارسه أهل الـبلاد أنفسـهم، وذلـك بـاعتراف بعـض جنـودهم في رسـائل بعثوهـا لزوجـاتهم وأصدقائهم في فرنسا.

حتى أن هذا الأمر لم يكن ليلق الترحيـب مـن كبـار المسـؤولين عـن الحملـة والذين كانت لهم وسائلهم الخاصة في الحصول علـى (الأنثـى) وكانـت لهـم ميـزة الاختيار من بين (مطلق الأنثى) لذلك فزعوا لما أصاب الجيش على يـد المومسـات المندفعات (لتحرير المرأة) فقد كتب الجنرال (ريجا) حاكم القاهرة إلى بونابرت:

«إن البغايا وباء تفشى في مساكن الفرنسيين، ولابد لإبعادهن من إغـراق مـن يقـبض علـيهن في الثكنـات. وكـان تعقيـب بونـابرت في الهـامش:- كلـف آغـا الانكشارية بهذه المهمة وتنفيذاً لهذا الأمر «قطعت رؤوس أربعمائة مومس وخـيّطن في غرائر وألقين في النيل».

هذا ويصف أحد معاصري الحملة ويدعى (هيرولـد) الوسـائل الـتي اتبعهـا الجيش الفرنسي ليحل المشكلة الجنسية لجنوده يقول:-

«أما الفرنسيون الزاهدون في الزواج، الذين لا يصبرون على العزوبية، فكانت أمامهم وسائل أخرى أكثرها غير واف بالغرض. فقد رافـق الجـيش إلى مصـر نحـو ٣٠٠ امرأة أكثرهن تسلل على السفن، ولكن الحسان القلـيلات مـنهن كـن حكـراً

للبعض. وكانت البغايا من السكان كثيرات، ولكنهن فيما- خلا قلة من صغيرات السن- كن غير مغريات قبيحات، مصابات بالأمراض. وقد حل كبار الضباط مشكلتهن دون أن يبذلوا جهداً يذكر، ومنهم الجنرال (بيريه) الذي كان في وسعه أن يكتب لصديقه الكابتن لوجواري «لقد ترك لنا الأمراء المماليك بعض النسوة الأرمنيات والكرجيات اللطيفات اللائي استولينا عليهن لصالح الأمة».

إذن لو نظرنا إلى الأمر بالنسبة للمرأة في تلك المرحلة وبتعقل ودون تعصب أو مماحكة للآخر، لرأينا أن ما كان سائداً سواء أكان للفرنسيين من جنود الحملة وضباطها ومرافقوها أو للنساء في مصر وهن أقوام مختلفة كما هي طبيعة العالم العربي والإسلامي دائماً، ما كان سائداً هو منطق تلك الفترة ومفاهيمها، وما كان سائداً بها ظروف عيش وعادات وتقاليد متعارف عليها. فالكل مارس ما تستهويه النفس الإنسانية وتميل إليه، لا سيما في حال ضعف المعتقدات الدينية والمثل والقيم السامية. فالإنسان مهما كان جنسه أو معتقده هو في النهاية إنسان بميوله وغرائزه ورغباته، وفي الميل لتحصيل المتع العاجلة إن توفرت له ونالها بالسهولة التي لم يكن يتصورها.

﴿تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ صدق الله العظيم

مصر وسوريا بين الوحدة والانفصال

حلم الوحدة العربية راود الأجيال العربية منذ انطلقت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف الحسين بن علي والذي قاد ثورته ضد الحكم العثماني المتهاوي لتحرير العرب وتوحيد بلادهم لبناء دولة عربية واحدة قوية ومتقدمة. واستمر حلم توحيد الأمة العربية بعد ذلك وأنشئت أحزاب لأجل تحقيق هذا الهدف السامي والذي بقي مستمراً وتعمل له الأجيال المتعاقبة، إلى أن تبدل الحال وانطفأ هذا الحلم وفقد بريقه منذ ثمانينات القرن الماضي.

أما أكثر المراحل التي شهدها التاريخ العربي المعاصر اندفاعاً وعملاً وتضحية من أجل وحدة العرب فكانت مرحلة أربعينات إلى سبعينات القرن المنصرم، حيث شهدت الساحة العربية تجارب وحدودية على أرض الواقع كان أبرزها الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨م والتي استمرت حتى ٢٨ أيلول ١٩٦١م حيث وقعت حركت انفصال في سوريا وقضي على نظام الوحدة. أما المحاولة الثانية فكانت الاتحاد العربي الهاشمي بين العراق والأردن عام ١٩٥٨م أيضاً والذي انتهى بقيام انقلاب في العراق أنهى النظام الملكي.

وفي الصفحات التالية سوف نلقي الضوء على ملابسات قيام الوحدة بين مصر وسوريا، ثم انفصال القطرين وعودة كل منهما إلى الوضع الذي كان عليه.

فمع بداية الخمسينات أخذت فكرة الوحدة العربية تزداد جماهيرية خاصة بعد أن تبنت مصر الثورة فكرة القومية العربية وأخذت تنادي بالوحدة العربية لاسيما في ظل زعامة عبد الناصر والذي امتلك من الكاريزما ما أهله لمثل هذه الفكرة والدعوة السامية.

أما في سوريا وبلاد الشام بشكل عام فقد نشطت عدة أحزاب وجماعات قومية وكان على رأسها حزب البعث العربي الاشتراكي وحركة القوميين العرب والحزب السوري القومي الاجتماعي، إلى جانب الحزب أو الأحزاب الشيوعية والتي كان لها رأي مخالف حول الوحدة العربية فالأحزاب الشيوعية كانت ترى أن الطريق إلى الوحدة لا يتم إلا بتحقيق الاشتراكية أولاً. وأن الاشتراكية هي الطريق إلى الوحدة، وكانوا يرون في الاتحاد السوفييتي النموذج الذي يجب أن يُحتذى، وان قيام الاشتراكية التي يريدون في قطرين عربيين كفيلة بقيام الوحدة بينهما.

أما بقية الأقطار فيجب قلب أنظمتها وقيام أنظمة اشتراكية بها لتسير جميعاً في وحدة شيوعية.

أما الأحزاب القومية فكانت ترى أن لا مانع من قيام الوحدة بين الأنظمة القائمة آنذاك ومن خلال دولة الوحدة تُبنى الاشتراكية.

وخوفاً من ازدياد النشاط الشيوعي في سوريا لا سيما في صفوف ضباط الجيش فقد أخذ الضباط القوميون ولا سيما البعثيون من الاتصال بمصر تمهيداً لقيام الوحدة والتي كانوا يرون الأخذ بالظروف الموضوعية لكل بلد. حيث اقترحوا في بيان أصدروه بتاريخ ١٣ كانون الأول ١٩٥٨ قيام اتحاد فيدرالي بين مصر وسوريا.

وإزاء هذه الصراعات الحزبية في سوريا تشكل مجلس عسكري لمراقبة الأوضاع وتطوراتها. وفي النهاية وأمام ما كان يتهدد سوريا من أخطار اتفق أعضاء المجلس العسكري وفي خطوة جريئة وغير مسبوقة وقد جمعت قلوبهم فكرة الوحدة وبهرتهم انتصارات عبد الناصر على كافة الأصعدة، فقرروا التوجه إلى مصر مباشرة راجين من عبد الناصر إعلان الوحدة بين سوريا ومصر فوراً. وهم بهذه الخطوة أرادوا وضع الحكومة السورية ورئيس الجمهورية أمام الأمر الواقع.

وفي ١٢ كانون الأول ١٩٥٨م توجه أربعة عشر ضابطاً من أعضاء مجلس القيادة إلى مصر وبدون علم الحكومة حيث كان سفرهم حوالي الساعة الثالثة صباحاً بعد ما أبلغوا السفير المصري ليقوم بإبلاغ القاهرة فوراً عن سفرهم.

وكان هؤلاء الضباط هم:

رئيس الأركان عفيف البزري، ومصطفى حمدون رئيس الشعبة الأولى وأحمد عبد الكريم رئيس شعبة العمليات، وأحمد الهنيدي وطعمة العودة الله وحسن حدة، وعبد الغني قنوت، ومحمد النسر، وياسين فرجائي، وعبد الله جسومة وجادو عز الدين، ومصطفى رام حمداني، وأكرم ديري وجمال الصوفي.

وغادروا البلاد تاركين وراءهم العقيد النفوري نائب رئيس الأركان لتقديم مذكرة إلى الحكومة لشرح أسباب رحلتهم هذه، وقام النفوري بتسليم المذكرة إلى وزير الدفاع آنذاك خالد العظم الذي أذهلته المفاجأة فاجتمع إلى مجلس النواب وناقش معهم هذه المذكرة التي قال عنها رئيس الجمهورية بأنها انقلاب من نوع آخر.

ولم يجد المجتمعون بداً من إرسال ممثلين عن الدولة ليراقبوا عن كثب مجريات الأمور، ووقع الاختيار على صلاح الدين البيطار الذي كان وزير خارجية ذلك العهد. ولكن البيطار بدلاً من أن يكون مراقباً وهي المهمة التي أرسل من أجلها نراه وقد انضم إلى الوفد المفاوض لإقامة الوحدة وكأنه واحداً منهم، وهذا ما جعل الحكومة السورية عاجزة عن اتخاذ أي موقف معارض.

وفي ٢٢ كانون الأول وعندما اجتمع مجلس الوزراء السوري للاطلاع على محضر الاجتماع الذي عُقد في القاهرة بين كل من الضباط والبيطار من جهة وبين عبد الناصر من جهة أخرى ذهل الكثيرون بنص المحضر الذي جاء فيه:

تتحد سوريا ومصر في دولة واحدة، نظامها جمهوري رئاسي يتولى السلطة التنفيذية فيها رئيس الدولة والسلطة التشريعية مجلس تشريعي واحد ينتخب انتخاباً حراً ومباشراً من الشعب. وأمام هذا الواقع الملزم حاول بعض الوزراء إيجاد طريقة ما للتخلص من فكرة الوحدة الاندماجية على الأقل.

فأوفدوا صلاح الدين البيطار إلى القاهرة مرة ثانية في ٢٥ كانون الثاني حيث عاد إلى سوريا بعد يومين ليقول: إن الرئيس عبد الناصر غير موافق على الاتحاد الفيدرالي، فأما قيام وحدة كاملة وفق شروطه المبلغة سابقاً أو لا شيء على الإطلاق. وللحقيقة والتاريخ وحسب كل المصادر الموثوقة فانه كانت لعبد الناصر تحفظات في البداية وقبل توقيع ميثاق الوحدة، فقد عرض على أعضاء المجلس العسكري الذي كان يفاوضه لتوقيع اتفاقية الوحدة جملة من المصاعب التي يجب تجاوزها قبل قيام الوحدة. فعلى الصعيد الدولي مثلاً قال لهم عبد الناصر إن الغرب وخاصة انجلترا وفرنسا وأمريكا لن يسعدهم قيام وحدة كهذه، ولن يتوانوا عن تمزيقها، وقد يسخرون (إسرائيل) كأداة لذلك مع العلم بأن (إسرائيل) ليست بعيدة عن دمشق. وكذلك أوضح لهم أن دولاً عربية كثيرة سوف لن ترحب بقيام الوحدة. ثم انتقل للحديث عن التجانس السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وأنه يجب معالجة كل ذلك قبل الوحدة الشاملة.

مما جعل الجميع يرضخون للأمر الواقع إلا الشيوعيين الذين غادر زعيمهم خالد بكداش سورية إلى موسكو رافضاً إعلان الوحدة.

وفي ٢٢ شباط (فبراير) سنة ١٩٥٨م تم الاستفتاء في سورية ومصر على انتخاب رئيس الجمهورية ففاز عبد الناصر بنسبة ٩٩,٢٥٪ وفي نفس اليوم وصل عبد الناصر إلى دمشق وأعلن عن قيام الجمهورية العربية المتحدة وسميت سوريا الإقليم الشمالي ومصر الإقليم الجنوبي وفي نفس اليوم قدمت له الوزارة السورية

استقالتها لإتاحة المجال أمامه لإصدار الدستور المؤقت وتشكيل الحكومـة الجديـدة. وفي ٥ آذار (مارس) أعلن عبد الناصر.

الدستور المؤقت للجمهورية المتحدة وأصدر في اليوم التـالي مراسـم تشـكيل الوزارة الوحدوية وكانت

١) عبد اللطيـف البغـدادي - عبـد الحكـيم عـامر- أكـرم الحـوراني - صـبري العسلي نواباً للرئيس.

أما وزراء الإقليم الشمالي (سوريا) فكانوا:

عبد الحميد السراج- داخلية.

عبد الوهاب حومد — للعدل.

أمين النفوري- للمواصلات.

أحمد عبد الكريم - شؤون بلدية.

فاخر الكيالي- وزيراً للمالية.

حسن جبارة للتخطيط.

صلاح الدين البيطار- وزير دولة.

خليل كلاس- اقتصاد.

كما وزعت الحقائب الوزارية في مصر. وعين عفيـف البـزري قائـداً للجـيش الأول في سورية. ومما هو جدير بالذكر أن عفيف البزري ترجـع أصـوله إلى مدينـة صيدا اللبنانية.

ثم وضع شرطين يرى أنهما إلزاميان لموافقته علـى قيـام الوحـدة الأول حـل كافة الأحزاب السياسية في سورية أسوة بمصر.

إضافة لحل المجلس العسكري السوري وإبعاد الجيش عن السياسة في سورية. وبعد مناقشات بين أعضاء الوفد السوري أعلنوا موافقتهم على شروط عبد الناصر. وهنا أعلن عبد الناصر موافقته على قيام الوحدة وقال: «فلنتوكل على الله» ثم قرأ الفاتحة مع أعضاء الوفد العسكري السوري. وبدأت بعد ذلك وبعد أن تم التوقيع على الوحدة بصورة عملية بدأت الأحزاب السورية وفي مقدمتها حزب البعث العربي الاشتراكي بالإعلان عن حل تنظيماته الحزبية. هذا وقد قوبل قرار حل الأحزاب وخاصة حزب البعث بانتقاد من بعض فروعه في الأقطار العربية التي يتواجد بها، وبتأييد من فروع أخرى لاسيما في سوريا والتي رأى قادة الحزب بها بأن نضال الحزب يمكن أن يستمر من خلال تنظيم قومي آخر هو الاتحاد القومي.

أما عبد الناصر فكان يخشى من الأحزاب ولا يثق بجديتها في الإخلاص والتفاني من أجل الحفاظ على الوحدة ودوامها واستقرارها. لذلك نرى الرئيس وبعد أيام قليلة من قيام الوحدة وتوليه للسلطة في سورية نراه وقد قام بتشتيت أقطاب حزب البعث ووضعهم في مناصب خارج سورية، وأتبع ذلك بحركة تنقلات بين الضباط حيث نقل بعضهم إلى مصر وتم توزيع البعض الآخر في سورية في مراكز غير حساسة في الجيش وذلك لإعادة التوازن داخل الجيش. أما أعضاء المجلس العسكري الذين ذهبوا إلى القاهرة لطلب الوحدة فقد تم توزيعهم بطريقة مدروسة يصعب جمعهم بعدها حيث حول جزء منهم إلى وزراء مدنيين، ونقل آخرين إلى القاهرة، ووزع بعضهم على مناصب داخلية في الجيش. كما جرى تبادل للضباط بين الجيشين المصري والسوري.

فقد نُقل كل من حافظ الأسد وصلاح جديد ومحمد عمران وعبد الكريم الجندي ومصطفى طلاس إلى مصر. حيث وصل عدد الضباط السوريين في مصر

إلى ستمائة ضابط منهم ستون ضابطاً بعثياً. وقد استلموا أماكن حساسة هناك فقد كان حافظ الأسد مسؤولاً عن مطار القاهرة العسكري على طريق الإسماعيلية ثم نقل إلى سيناء فالقاهرة.

وقد بدأ الضباط الخمسة الذين ذكروا بداية، حافظ الأسد وجديد وعمران والجندي التخطيط للانفصال حيث كانوا في مصر كما ورد في أكثر من مصدر.

وبعد مضي فترة من الزمن على قيام الوحدة احتدم الصراع بين البعثيين والشيوعيين داخل الجيش وأخذ ضباط كل منهما يرفع تقاريره لعبد الناصر، أما الضباط المستقلون والوحدويون الحقيقيون فكانوا يريدون تقليص نفوذ كلا التنظيمين وإبعاد الجيش عن السياسة عموماً وهذا ما كان يريده عبد الناصر. وكان عبد الناصر يميل لتسريح الضباط الشيوعيين أولاً وهذا ما حصل فعلا، ومما أدى لاستقالة عفيف البزري والذي كان محسوباً على الشيوعيين وارتاح البعثيون، وحاولوا بسط نفوذهم على سورية باسم الوحدة من خلال التعيينات الواسعة التي تضم عناصر بعثية ودون الأخذ بعين الاعتبار لمدى أهلية هؤلاء لتولي المناصب والوظائف التي يعينون بها، وهذا آثار الخوف في نفوس التنظيمات الأخرى. وعندما أدرك عبد الناصر أبعاد مجريات الأحداث أصدر قراراً ينص على ضرورة تشكيل لجنة للإشراف على عمليات التوظيف وضرورة اجتياز الاختبارات اللازمة للمتقدمين لكل وظيفة. وهذا ما أزعج البعثيين وشعروا بأن القاهرة تحاصرهم فأخذو ينتقدون بعض تصرفات القيادة في القاهرة. وكان نتيجة ذلك أن أرسل عبد الناصر إلى دمشق عبد الحكيم عامر ليتولى فعل ما يراه مناسباً.

فقام عبد الحكيم بنقل أربعين ضابطاً سورياً إلى القاهرة منهم عشرون بعثياً.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٩ أصدر الرئيس مرسوماً يقضي بتشكيل ثلاث وزارات إحداهن مركزية ومقرها القاهرة، واثنتان بمثابة مجلسين تنفيذيين

يختص كل واحد منها بإقليم. وقد ضمت الوزارة المركزية عناصر من الإقليمين السوري والمصري حيث شملت من سورية كل من أكرم الحوراني وصلاح الدين البيطار وأمين النفوري وأحمد عبد الكريم وبشير العظمة وحسن جبارة. ولكن وفي أواخر ١٩٥٩م كان الخلاف البعثي مع عبد الناصر قد استفحل مما جعل الوزراء البعثيين يقدمون استقالاتهم لعبد الناصر وكانوا أربعة هم أكرم الحوراني وصلاح الدين البيطار ومصطفى حمدون وعبد الغني قنوت.

وفي هذه الأثناء كانت هناك شخصية ترقب مجريات الأحداث وتحاول أن تكون لها السلطة الأولى في الإقليم الشمالي (سورية) ولم تكن هذه الشخصية إلا عبد الحميد السراج رئيس المكتب الثاني ثم وزير الداخلية، وكان موضع ثقة كاملة من الرئيس عبد الناصر لا سيما بعد أن أعلن عن كشف النقاب عن مؤامرة الملك سعود لاغتيال عبد الناصر، وكان ذلك في فترة الاستعداد لإعلان الوحدة، وكان هذا الرجل على قدر كبير من الدهاء والذكاء وقد كان نجمه بدأ يلمع منذ أن كان مرافقاً للرئيس أديب الشيشكلي. وكان السراج دائماً يتحاشى الصدام العلني مع أي طرف من الأحزاب المحلية. وعندما تم تشكيل الاتحاد القومي في سوريا أسندت سكرتاريته في سورية لعبد الحميد السراج مما أضاف إليه مركزاً سياسياً مرموقاً إلى جانب مركزه السلطوي، فقد كان وزيراً للداخلية ورئيساً للمخابرات ومديراً للدعاية والأنباء بما فيها من صحافة وإذاعة وتلفزيون. ومن هنا كثر أعداؤه ومنتقدوه في سورية بحق أحياناً وبدون حق أحياناً كثيرة، فصاحب السلطة كثيراً ما يصبح هدفاً للنقد والتجريح وكثرة إطلاق الشائعات حوله بحيث يُضخم كل خطأ أو هفوة أو زلة تقع منه.

وقد وصلت لمكتب عبد الناصر شكاوي وانتقادات كثيرة حول ممارسات السراج، مما دفع عبد الناصر لإرسال عبد الحكيم عامر للنظر في موضوع

الشكاوي، وهذا ما دفع السراج للدفاع عن موقفه وإفشال مهمة عامر وذلك ببث الأخبار والشائعات حول سمعة عامر الشخصية والتسلط المصري في سورية. وعند هذه النقطة قام الوزراء العسكريون السوريون أكرم ديري وجمال الصوفي وجادو عز الدين وطعمة العودة الله وأحمد جنيدي بتقديم اقتراح وصل إلى مكتب عبد الناصر يرون فيه ضرورة توزيع المسؤوليات المركزة في يد السراج على مسؤولين متعددين بغاية التخفيف من سلطته مما جعل عبد الناصر يطلب من الضباط بما فيهم السراج الاتجاه إلى القاهرة لمقابلته.

وبعد أن استمع عبد الناصر لأراء الضباط أعلمهم بعزمه على تشكيل حكومة جديدة ترضي كافة الأطراف. ويبدو أنه كان في قرارة نفسه يحاول التخلص من السراج أو الحد من سلطته.. وفعلا أصدر بتاريخ ١٦ آب (أغسطس) ١٩٦١م قراراً بتشكيل حكومة واحدة للإقليمين مما أحرج السراج وجعله يرضخ للأمر الواقع، فقد عُين في الوزارة الجديدة نائباً للرئيس للشؤون الداخلية على أن يكون مقره القاهرة. وعين عباس رضوان وزير داخلية للإقليمين. ثم تلا ذلك صدور قرار بتوحيد المخابرات بين الإقليمين.

ولم تمضِ أيام على هذا الوضع حتى بدأ السراج يتململ من وضعه الجديد حيث شعر منذ الأيام الأولى لوجوده في القاهرة أنه معطل عن العمل بالقياس إلى ما كان يقوم به في سورية، أي أنه لم يعد يمارس أي عمل سلطوي إلا تلقى التقارير اليومية الصادرة عن وزارة الداخلية في الإقليمين.

وأخيراً تقدم السراج باستقالته لعبد الناصر الذي قبلها على الفور وذلك بتاريخ ٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٦١م أي قبل الانفصال بستة أيام، وهذا ما جعل معظم أبناء الشعب السوري يعتقدون أن السراج كان وراء عملية الانفصال.

الانفصال

بعد حدوث الحركة الانفصالية في سورية تبين أن هنالك أكثر من مجموعة من الضباط تعد لحركة انفصالية.

ومن هذه التنظيمات:

١- تنظيم حيدر الكزبري: ويضم وحدات البادية المحمولة وبعض العسكريين المتعاطفين معه والمبعثرين في القطعات القريبة من دمشق.

٢- تنظيم أكرم ديري والذي حرص بعد خروجه من الجيش إلى الوزارة على أن يبقى صلته قائمة مع عدد من الضباط الدمشقيين وعلى رأسهم محمد منصور وعدنان الشيخ فضلي ومأمون القضماني.

٣- تنظيم المقدم عبد الله شيخ عطية: وكانت هذه الفئة تضم عدداً من الضباط الحريصين على بقاء الوحدة واستمرارها، وكانت تبحث عن أسلوب تستطيع به طرح المشكلات التي تواجهها. ولكن النحلاوي والذي كان كاتم أسرار هذه الفئات الانفصالية والعالم بوجودها وتحركاتها داخل الجيش لم يكن مرتاحاً لهذه المجموعة التي تريد استمرار الوحدة فعمل على نقل عبد الله الشيخ إلى الكويت كملحق عسكري ثم قام بتشتيت مجموعته.

٤- تنظيم عبد الكريم النحلاوي: وكان الأقوى بين كل تلك المجموعات فقد كان يضم أكثر التشكيلات العسكرية وتشمل المراكز الحساسة حيث تتمركز القوات الموالية له في قطنا والقابون والكسوة. وقد أتاح له منصبه وتأثيره على قائد الجيش مما يخدم هدفه ويكفل له النجاح. وكان يعتمد على الضباط الدمشقيين مما جعل الجيش ينفر منه وينقلب عليه فيما بعد وكان من ضباط تنظيمه: فايز الرفاعي- مهيب الهندي- سعيد العاقل - فخري

عمر - هشام عبد ربه - شرف الدين زعبلاوي - برهان الدين بولس - تيسير الطباع - موفق عصاصة - عبد الغني دهمان.

كانت هذه هي التنظيمات العسكرية التي كانت تسعى للانفصال وتعمل له وتحشد كل الإمكانات المتاحة للقيام بذلك العمل الخسيس.

وفي صباح الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر) ١٩٦١م فوجئ الشعب السوري خاصة والعربي عامة بالبيان الكارثة من إذاعة دمشق، حيث أعلن البيان رقم (١) عن قيام (الانتفاضة المباركة) وإنهاء حكم الوحدة والتسلط المصري وبدأت محطة دمشق تعزف النشيد الوطني السوري (حماة الديار). وقاد عملية التمرد هذه حيدر الكزبري قائد قوات البادية وقد تحرك من منطقة الضمير، وكان الهدف استراحة المشير عامر وقتله إذا كان هنالك أية مقاومة ثم المقدم مهيب الهندي رئيس أركان اللواء المتمركز في قطنا وهو أقوى لواء في الجيش السوري آنذاك، وهو لواء محمول يضم في تشكيله دبابات ومدفعية ميدان ومدفعية مضادة للطائرات، ومهيب الهندي هذا هو صهر عبد الكريم النحلاوي. وكانت مهمة هذا اللواء الإحاطة بمبنى الأركان والإذاعة والهاتف الآلي، وكذلك تأمين بعض مداخل دمشق لحماية الانقلاب من قوى مضادة.

وقد أصدر النحلاوي تعليماته بالقبض على الضباط المصريين الذين كانوا يعملون في وحدات الجيش السوري للحيلولة دون قيامهم بأي نشاط معاد. وكذلك كان الطيران السوري بقيادة موفق عصاصة مهيأ لمثل هذه المهمة.

وقبل أن تبلغ الوحدات المتحركة دمشق كانت شعبة المخابرات العسكرية قد علمت بالتحرك فأخطرت المشير عامر في استراحتة فقام فوراً بالاتصال باللواء جمال فيصل قائد الجيش وبرؤساء الشعب في الأركان كي يتوجهوا فوراً إلى مبنى الأركان. كذلك أعطى أوامره كي يجري اتصال مع الوزراء العسكريين ليأتوا إلى

مبنى الأركان حيث وصل الوزراء العسكريون إلى الأركان وهم طعمة العودة الله وأحمد حنيدي وجادو عز الدين.

وحوالي الساعة الرابعة صباحاً سُمع صوت تبادل إطلاق النار في استراحة المشير عامر، ثم وصلت دبابات اللواء الأول المتحرك من قطنا إلى مبنى الأركان والإذاعة وأحاطت بها وكان معهم عبد الكريم النحلاوي قائد الانقلاب.

وقد كلف المشير عامر العقيد جاسم علوان الاستفسار من قائد اللواء المحاصر للمبنى أن يستفسر من النحلاوي وجماعته عن أهدافهم. فأجاب النحلاوي أن حركته تستهدف إجراء بعض الإصلاحات في الجيش، وأنه حريص على وحدة الإقليمين وعلى الاعتراف برئاسة عبد الناصر للجمهورية الواحدة وبقيادة عبد الحكيم عامر للقوات المسلحة في الإقليمين.

وفعلاً تم لقاء بين المشير والنحلاوي الذي أوضح أن حركته لا تهدف إلى الانفصال وإنما تريد تخفيف عدد الضباط المصريين إضافة لإجراء بعض التنقلات في الجيش. كما طلب الموافقة على ترحيل كل من اللواء أنور القاضي والعقيد أحمد علوي والعقيد أحمد زكي والعقيد محمد استنبولي رئيس شعبة المخابرات السورية وهو ضابط سوري إلى القاهرة إضافة إلى الوزراء العسكريين الذين أشرنا إليهم والذين كانوا مع المشير في قيادة الأركان. وقد رحل الوزراء فعلاً إلى القاهرة حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر. واتفق الطرفان على إنهاء حالة العصيان بمجرد إتمام عملية الترحيل. حيث صدر بعد ذلك البيان رقم (٩) والذي يعلن انتهاء عملية العصيان وأن الأمور عادت إلى طبيعتها بعد تحقيق الحركة لأهدافها وتفهم القائد العام لكافة الأمور. فابتهج الشعب لدى سماعه البيان وبدأت مظاهرات الفرح تعم مدينة دمشق.

ولكن وبعد فترة قصيرة أصدر النحلاوي البيان رقم (١٠) الذي يلغي

مضمون البيان السابق. مما اتضح أن البيان رقم (٩) كان مناورة من النحلاوي لكسب الوقت. فقد فرقت قوات النحلاوي المتظاهرين بالقوة، ثم قاموا بترحيل المشير بعد ساعتين من ترحيل الوزراء. وبدأوا على الفور بتشكيل حكومتهم الجديدة برئاسة مأمون الكزيري. علماً بأن مناطق حلب والساحل السوري بقيت مؤيدة للوحدة وإذاعة حلب تذيع باسم الجمهورية العربية المتحدة لمدة ثلاثة أيام بعد بدء الحركة الانفصالية في دمشق. وقد أرسل الرئيس عبد الناصر قوات مصرية بحرية إلى اللاذقية بقيادة العميد جلال هريدي قائد قوات الصاعقة المصرية.

ثم أعاد القسم الأكبر منها من وسط البحر ووصل هريدي ومعه قواته إلى مصر سالمة.

• وعمت المظاهرات المؤيدة للوحدة معظم المدن السورية مما دفع بالقوات الانفصالية لاستعمال العنف مع المتظاهرين وقمعهم بالقوة. هذا وقد تم اعتقال بعض الضباط السوريين في القاهرة لاسيما ممن ينتمون إلى حزب البعث وكان منهم الفريق حافظ الأسد الذي أعتقل لمدة ٤٤ يوماً في سجن أبو زعبل ثم أعيد مع زملائه إلى دمشق في إطار تبادل الضباط بين القطرين وقد تم تسريح معظم هؤلاء من الجيش ومنهم حافظ الأسد الذي نقل إلى إدارة النقل البحري التابعة لوزارة الاقتصاد.

وفي ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦١م تم الإعلان عن دستور جديد للبلاد وفي الأول من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦١م أنتخب مجلس للنواب مدة ولايته أربع سنوات. وأصبح ناظم القدسي رئيساً للجمهورية في ولاية تمتد خمس سنوات. وتسلم معروف الدواليبي رئاسة الحكومة.

هذا وقد حدث تغيير جذري في القيادة عندما قامت قيادة الجيش بتاريخ ٢٨ آذار (مارس) باعتقال السياسيين الذين تولوا السلطة بعد الانقلاب الانفصالي.

حيث صدر أمر بإبعاد قادة الانفصال عبد الكريم النحلاوي ومهيب الهندي وتعيينهما ملحقين عسكريين في كل من فرنسا وايطاليا. وكان سبق هذه الحركة أن قام النحلاوي باعتقال زميله حيدر الكزبري وأودعه سجن المزة. ثم تم ترحيل النحلاوي نفسه مع مجموعة من أنصاره. حيث تواروا بعد ذلك عن الأنظار خجلاً ولم يظهروا في صحف أو مجلات أو مذكرات فقد انكشف أمرهم وظهرت على الملأ سوأتهم. فذهبوا إلى أوروبا وأمريكا وكندا حيث عاشوا بما قبضوه من أموال السحت الحرام. وللآن لا يدري أحد مصير أياً منهم. بعد أن باعوا أحلام الأمة وأغلى أهدافها بدراهم معدودة. فمنذ ثورة العرب الكبرى على يد الشريف الهاشمي الحسين بن علي وأعز أماني أمة العرب الوحدة والتحرر وإنشاء دولة عربية واحدة قوية عزيزة الجانب بين الأمم.

ربما حدثت بعض الأخطاء في دولة الوحدة وهذا ليس بالأمر المستغرب بين قطرين فرقت بينهما سنوات طويلة، كما أن المسافة بينهما ليست بالقصيرة ومع وجود الحواجز المعادية وللحقيقة فان الوحدة كانت متعجلة وقامت على إعجاب بشخصية الزعيم أكثر مما كانت وحدة لها أهداف إستراتيجية مدروسة وبعيدة الأهداف، ورغم استمرار الوحدة لأكثر من ثلاث سنوات فان الدمج الكامل بين مؤسسات الدولة الواحدة لم يحدث ولاسيما في المجال الاقتصادي والنقدي. وخير دليل على ما نقول أن الانفصاليين لم يجدوا مصاعب كبيرة في فصل سوريا عن مصر فكل ما فعلوه أنهم قاموا بإعادة النشيد الوطني السوري القديم (حماة الديار) وكان يحفظ في صناديق دار الإذاعة السورية، وهكذا أعلنوا الانفصال دون أية مصاعب أو عقبات.

أما الرئيس عبد الناصر فقد فرط بالكثيرين من زعماء سوريا وحتى الذين ذهبوا إليه لإتمام الوحدة وكان آخرهم عبد الحميد السراج والذي ظُلم كثيراً

وحُمل من المسؤولية عن الانفصال ما لم يتحمله حقيقة، لقد بقي مخلصاً للوحدة حتى آخر لحظة وأظنه لا يزال إن كان حياً.

كانت عيونه مفتحة على أعداء الوحدة في سوريا وكان يرقب الأحداث ومجريات البلد مراقبة الخبير، ربما حصلت منه هفوات ولكنها ضُخمت كثيراً وبولغ فيها أكثر، فقد أعلن عبد الناصر بعد الانفصال وتحدى بأن يكون الانفصاليون قد وجدوا أكثر من سبعين سجيناً سياسياً في السجون السورية.

أما الرئيس عبد الناصر رحمه الله فانه لم يقدّر ظروف الشعب السوري ويدرس نفسيته بالشكل الصحيح واللازم فلم يبق زعيماً سورياً معروفاً إلى جانبه، حتى أنه في أواخر أيام الوحدة كان نائب الرئيس شخصية سورية مغمورة هو المهندس نور الدين كحالة والذي ليس له أي تاريخ سياسي في سوريا. كان رحمه الله يعتمد على الكاريزما التي يتمتع بها. وفي الحقيقة هذا لا يكفي للاستمرار في عملية جبارة مثل الوحدة بين قطرين كبيرين بعد تباعد بينهما دام مئات السنوات.

نهاية القول حول هذا الموضوع أن الأجيال العربية التي عاشت فترة الوحدة عاشت أزهى أيام حياتها وأكثرها عزة وفخراً، هذا الشعور امتد في كل أنحاء الوطن العربي من خليجه إلى محيطه، أيام زهو ومجد لم ترها الأجيال العربية منذ أن حدث الانفصال، لا بل نرى أن الأمور تزداد سوءاً يوماً بعد آخر. واقع مؤلم تعيشه الأمة وتكرسه كل القوى المعادية الخارجية منها والداخلية.

ولكن الآمال كبيرة فقد تعرضت هذه الأمة عبر تاريخها الطويل لعثرات وانتكاسات استطاعت التغلب عليها وتجديد شبابها وقوتها. وهذا هو طريق الأمم الحية.

المجاعة في بلاد الشام خلال الحرب العالمية الأولى

مجاعة فظيعة عمت بلاد الشام وبلدان عربية أخرى خلال الحرب العالمية الأولى وفي أواخر حكم الدولة العثمانية، وكان سببها انقطاع موارد الرزق انقطاعاً يكاد يكون تاماً لا سيما في لبنان لضعف زراعته، واضطراره إلى الاعتماد على البلاد المجاورة في كل أسباب العيش، وكان الأمر كذلك في المدن العربية والتي كانت المجاعة بها أشد فتكاً بسبب اعتمادها على الأرياف والقرى في تحصيل رزقها، أما القرى والأرياف فكان الأمر فيها أكثر سهولة بسبب كونها مصدر الإنتاج الزراعي والحيواني.

أما ما زاد المجاعة سوءاً في لبنان فيعود إلى حجز الحكومة العثمانية لسائر الحبوب التي تأتي إلى لبنان من أنحاء سوريا إلا أقلها، وتوزيع الدقيق توزيعاً ظالماً بحيث أن نصيب العائلة لم يكن يكفيها ولا يسعف جوعها، حتى بلغ ثمن رطل الحنطة ١٦ قرشاً ذهباً في السنة الأولى من الحرب (والقرش الذهبي كان يطلق على الليرة الذهبية) أما الرطل فكان يساوي ٢،٥ كغم (والمعروف أن الأوقية الشامية تساوي ٢٠٠ غم وليس ٢٥٠ كما هو في الأردن وفلسطين، وكان هذا يسمى الأوقية النابلسية).

أما في السنة الثانية من الحرب فبلغ سعر الرطل عشرون قرشاً وفي الثالثة ٣٤ قرشاً وفي الرابعة ستون قرشاً ذهباً.

وعلى غرار هذه الأسعار كانت أسعار بقية الحاجيات، حتى أن راتب بعض الموظفين لم يكفِ لشراء أربعة أرطال من الخبز ولما قل المال في البلاد أخذ الناس يبيعون ما عندهم من الأثاث فباع متوسطوا الحال كل أراضيهم، ثم منازلهم وبعد

ذلك مقتنيات المنزل وأثاث البيت.

وذلك بأسعار دون أسعارها الحقيقية بالنصف في أكثر الأحيان وكان الفرد يقترض ليرة من الورق التركي على أن يردها بعد سنة ليرة ذهباً أي خمسة أضعاف قيمتها، يضاف إليها الربا الفاحش أي ثلاثين أو خمسين أو مئة فتصبح المئة الواحدة ٧٠٠، وكثيراً ما كان الدائن لا يرضى بهذا الربح حتى يؤمن دينه برهن الأرض، فإذا حان وقت الرد ولم يكن للمديون ما يدفع به الدين ذهبت أرضه إلى الدائن فأخذ هذا مئته ألفاً أو أكثر، كل هذا ولا يجد المحتاج أحياناً من يدينه على هذه الصورة لعله ينجو هو وعائلته من الموت جوعاً، وقد أخذت النساء تبيع حليها ثم أثوابها وكسوتها حتى لا تكاد تبقي على ما يستر عورتها، وكان هنالك في الأسواق والحارات أطفالاً وأحداثاً وبنين وبنات عراة لا يسترهم شيء يرتمون على وجوهم إلى الأرض طلباً للحرارة أو البرودة في الليل والنهار. أما البيت فلم يبق فيه شيء مما له ثمن وأخرجت إلى السوق في المزاد الأمتعة والأواني والكراسي والحصر والفرش واللحف والطناجر والصحون فأخشاب النوافذ والأبواب ثم ما على السقف من قرميد وخشب. أما الحجارة فكان سوقها كاسداً لذلك لم يتمكن أحد من بيعها.

هذا وقد نزح عدد كبير من سكان لبنان إلى المدن طلباً للأقوات وذلك الرجل الذي كان سيداً في قومه أصبح اليوم وفي يده مكنسة يكنس بها الشوارع في المدينة لينال من البلدية قليلاً من الخبز يسد به رمقه.

أما الفقراء فكانوا يمدون أيديهم طلباً للمساعدة سواء في الشوارع أو طرق الأبواب والكثير منهم خجلين ووجوهم يملأها الحياء فكم منهم من كان صاحب سعة وجود وعز وعطاء، ومثل هؤلاء ربات الخدور وذوات الترف والنعم يخدمن في بيوت القادرين طلباً للعيش، واللواتي كن لا يخرجن من بيوتهن إلا بالحفاوة

والإكرام تراهن يجلن في أسواق المدينة متسولات ويجلسن إلى زوايا الشوارع يبعن الخبز أو الترمس أو شيئاً من الفواكه والخضر ليكسبن ثمن رغيف خبز، وبعضهن مع أشقائهن أو آبائهن يجرون عجلة مشحونة من مدينة إلى أخرى بدلاً من الدواب التي أخذتها الحكومة أثناء الحرب وكل ذلك لقاء أن يعطين شيئاً من الشعير للغذاء.

كان المار في شوارع دمشق وفي كثير من المدن السورية يرى مئات من الناس وقوفاً على أبواب الأفران من الفجر حتى الظهر يطالبون بنصيبهم من الخبز على حسب ما بأيديهم من وثائق الإعاشة هذا الزحام من الناس لم يكن يخلُ من الشتم والضرب واللكم.

أما نوعية الخبز الذي يتقاتلون عليه فتلك قصة أخرى.

المهم أنه وبعد كل تلك المعاناة فقد كان ذلك الواقف أمام المخبز يرجع إلى البيت إما بخفي حنين أو بربع حاجته من الخبز لطعام عائلته في ذلك اليوم، وليس في السوق خبز ليشتري المحتاج حاجته بل يضطر إلى الاغتذاء بما تيسر إذا تيسر له شيء، وكانت المعاناة تتجدد تقريباً كل يوم لعامة الناس الذين لم يتمكنوا من شراء ما يلزمهم في الوقت المحدد.

أما في لبنان فالحال وصل إلى درجة لا توصف من السوء والمعاناة، فنرى أعداداً كبيرة من السكان كانوا يلتهمون البلوط والخروب من الجبال، وأصول النباتات والأعشاب مما تأكله البهائم، ويذكر أن امرأة عاشت في حرش أربعين يوماً وهي تقتات ما تيسر لها من عشب الأرض، وكانوا يبتاعون بزر المكانس والقنب فيطحنونه ويصنعون منه خبزاً، ولم يعد شيء يعاف الجياع أكله حتى لحم الجرذ والقطط والكلاب، والبعض ذهب في لبنان إلى مدن الساحل كبيروت وصيدا وطرابلس ليقتاتوا بقشور الليمون والبرتقال، والبعض كان يبحث في النفايات

وكناسة البيوت علهم يجدون شيئاً من بقايا طعام أو قشور الخضر والفواكه لسد رمقهم، حتى بلغ الحال أنه إذا قشر شخص ما برتقالة في الشارع لحق به عشرة من الجياع يتسابقون إلى القشور. حتى وصل الحال بالبعض إلى أكل الجيف أسوة بالغربان والنسور.

سُمع شخص يشكو إلى الله شدة جوعه ويقول: يا رب أكلة عدس وأموت، لأن ألوفاً من الناس لم يذوقوا شيئاً طُبخ على النار مدة أشهر طويلة، ولم يكن أحد يجرأ على الأكل علانية أمام الناس، إذ من يفعل ذلك يحيط به عشرات من الجياع لا يستطيع دفعهم عن طعامه، والويل لمن حمل رغيفاً في يده فإنه لا يعلم أي يد تنشل الرغيف منه، ولم يعد أحد يؤمن أن يرسل عجينه إلى الفرن وحبوبه إلى الطاحون ما لم يحتط لذلك بكل ما لديه من الوسائل لمنع الجائعين عن طعامه عملاً بناموس تنازع البقاء.

أما النهب والسلب والخطف والتعدي على باعة الخبز في الأسواق إن وجد فتلك قصة أخرى، ولم يبق أحد يأمن على بيته وحانوته وزرعه وشجره فاضطر كل من له شيء أن يحرسه متسلحاً الليل والنهار، وقل من نجا من سرقة رزقه حتى من قبل الخدمة الذين يعيشون في بيته أو حانوته ثم تألفت عصابات اللصوص وجعلوا يهجمون علناً على ذوي الأموال فيغتالونهم في بيوتهم أو في الطريق أو يرسلون إليهم الأوامر بدفع مبلغ وافر من المال في محل معين وإلا فلا نجاة لهم من الموت.

أما الحكومة فكانت أعجز من أن ترد هذه التعديات ولم تعد تعاقب أحداً في سرقة لعلمها أن الجوع علة طبيعية للسرقة فضلاً عن أنها هي اللص الأكبر الذي ابتز مال الرعية بلا رحمة، فالغريب أنه وبعد هزيمة الدولة العثمانية وجد أن مخازنها مليئة بالغلال والذي كان يكفي ليوزع بطريقة عادلة ومنع تلك المجاعة وإبقاء السكان في حالة لا بأس بها من العيش والحياة الكريمة.

هذا الوصف الذي مر لحالة المجاعة ورد في مجلة «الحرب العظمى» والتي يملكها ويحررها عمر أبو النصر، ويصدرها في بيروت العدد «٤٨».

وربما كان في هذا الوصف شيء من المبالغة، أو وقع كما أسلفنا في مدن معينة، أما الحال في الأرياف والقرى فإن ما كنا نسمعه من الآباء والأجداد كان الحال أقل سوءاً مما ذكر، وإن كنا سمعنا بأن الناس حتى في القرى كانوا يبحثون في روث الحيوانات عن بعض الحبوب للإفادة منها ولكنهم كسكان أرياف وقرى ربما كانوا يتدبرون معيشتهم بطريقة أو بأخرى بما كانوا يملكون من ماشية وطيور وزراعة وغيرها.

والغريب أنه هنا في الأردن وكما ورد في مذكرات المرحوم محمد حجازي والتي نشرت في صحيفة الرأي على شكل حلقات مطولة فإننا نرى أنه لم يصف الحالة كما مر معنا، إنه كان يعيش في مدينة اربد، وكثيراً ما تطرق إلى موضوع الغذاء والأطعمة وحتى أثناء سنوات الحرب، وكثيراً ما جاء على ذكر تناول الكباب وبعض الحلوى ولم يتطرق أبداً لذكر أي أزمة غذاء أو نقص في المواد. بل كان يصف الحال على أنه من أفضل ما يمكن.

فهل كانت مدينة اربد والقرى المحيطة بها في مأمن من المجاعة وكان إنتاجها يكفي لا بل ويزيد عن حاجة المواطنين كما هو الحال اليوم.

سؤال نتركه للمزيد من البحث والاستقصاء لكل من يهمه الأمر.

السلطان عبد الحميد

كيف قضى حياته بعد عزله

خُلع السلطان عبد الحميد، سلطان الدولة العثمانية يوم الثلاثاء ٢٧ نيسان ١٩٠٩م، وهو الذي كان اعتلى عرش السلطنة في أواخر شهر آب (أغسطس) ١٨٧٦م، عقب خلع أخيه الأكبر مراد الخامس، وقد دام حكم السلطان عبد الحميد ثلاثة وثلاثين عاماً، وكان السلطان الرابع والثلاثين في سلسلة سلاطين بني عثمان.

وبعد خلعه أمضى بقية حياته في سلانيك ثم في قصر بكلربكي في إستانبول، إلى أن توفي في العاشر من شباط (فبراير) ١٩١٨م.

والحقيقة أن السلطان عبد الحميد ربما كان أكثر سلاطين الدولة العثمانية مثاراً للخلاف في الرأي وتقويم أعماله وربما كان ذلك بسبب قرب عهده بعالمنا المعاصر، فقد عايشه جيل الأجداد منا ومنهم من خدم في جيشه.

السلطان عبد الحميد كان وربما لا يزال مثار خلاف بين المؤرخين العرب والمسلمين، فمنهم من يرى أنه كان حامياً للديار الإسلامية محافظاً على وحدتها خادماً لها لا سيما موقفه من قضية طلب اليهود إليه بمنحهم قسماً من أعز وأقدس أراضي دولته وهي فلسطين مقابل مبالغ مالية كبيرة بالنسبة لذلك الوقت، وهو موقف لا يزال يسجل له في تاريخه مواقفه. وان كان مثل هذا الرفض غير كاف للوقوف في وجه الأطماع الصهيونية، فقد كان من المفروض أن يهتم بأرض فلسطين بشكل خاص بعد هذا الطلب، لا أن يتركها بيد ولاة وموظفين فاسدين مرتشين، فالكثيرون من العرب والمسلمين يعرفون رفض السلطان بيع أراضي فلسطين لليهود، ولكنهم لا يعرفون أن عدة مستوطنات يهودية أقيمت أيام حكمه

في فلسطين برشوة كبار المسؤولين والموظفين الأتراك العثمانيين، فالوقوف في وجه المخططات الصهيونية لا يكون بالشتائم والرفض اللفظي ولكن بتطوير البلاد وأوضاع العباد بالعلم بداية ثم بالبدء بنهضة شاملة تشمل كافة مناحي الحياة وهذا ما لم يحدث. فقد تركت الدولة العثمانية أكثر من ٩٨/ من الشعب العربي في حال من الجهل والأمية والتخلف، مما مكن اليهود وبمساعدة القوى الاستعمارية الغربية من التمكين لليهود في فلسطين وإقامة الدولة اليهودية على أرضها بعد طرد القسم الأكبر من سكانها.

وربما كانت الصفة الأكثر التصاقاً بالسلطان عبد الحميد هو عدم ثقته بأحد من رجالات الدولة أو من يتعامل معهم، وقيل إنه اتبع أساليب التجسس والإبعاد من ولاية إلى أخرى خوف التمرد عليه، وربما يرجع ذلك إلى وفاة أمه وهو في سن الصبا، وإطلاعه في ذات الوقت على أساليب رجالات الدولة في ضرب بعضهم ببعض ونفاق المقربين من السلطان.

هذا الخليفة المثير للجدل والذي أطيح به عام ١٩٠٩ كيف قضى بقية حياته إلى حين وفاته عام ١٩١٨م؟

لنعد قليلاً إلى الخلف لنروي لحظات عزل السلطان وكيف تمت.

تقول السيدة عائشة ابنة السلطان عبد الحميد في مذكراتها: في الثالث عشر من شهر نيسان (ابريل) وصلت حركة التمرد العسكري ضد السلطان إلى السراي (قصر الحكم) والذي بدأ الاضطراب يدب به، وكان سكانه يسمعون في منتصف الليل عبارات تقول «العساكر يذهبون، العساكر يريدون الشريعة» وبدأ إطلاق النار، وكان السلطان في هذه الأثناء مضطرب ويزرع الأرض جيئة وذهاباً بين أجنحة القصر، ويتحدث مع بعض المحيطين به لمحاولة فهم ما يجري، ولما دخل دائرة الحريم ورآهن قال" لقد حدث ما كنت أخشاه، وكان في حالة يؤسف لها من الحزن.

وفي اليوم التالي استقال الصدر الأعظم حسين حلمي باشا ولما يمضِ عليه في المنصب سوى فترة قليلة جداً، وحل مكانه توفيق باشا والذي عمل طويلاً في الشؤون الخارجية أثناء سلطنة عبد الحميد، وكان هذا شيئاً أسعد السلطان وحاشيته. ولكن السلطان كان مهموماً إلى درجة كبيرة وأرسل أحد أعضاء الحاشية (جواد بك) ينصح المتمردين بالتعقل، وراح ينتظر ماذا سيحدث. وعاد جواد بك إلى السلطان دون نتيجة تذكر.

فقد عاد التمرد واشتعل في اليوم التالي، وتباحث السلطان حول الوضع مع المشير أدهم باشا الذي عين على نظارة الخارجية (وزارة الخارجية) وكان هو نفسه قائد حرب اليونان، وأرسله هو الآخر إلى المتمردين، غير أن ذلك لم يأتِ بنتيجة أيضاً.

وكان السلطان واثقاً أن هذا الأمر سوف يسفر عن خلعه عن العرش، وأخبر الصدر الأعظم توفيق باشا رغبته بالتخلي عن منصب السلطنة لأخيه رشاد أفندي.

وأخيراً صار جيش حركة التمرد على مقربة من إستانبول وبقي السلطان ينتظر حتى يوم خلعه، وفي هذه الأثناء راح يتردد عليه الباشاوات المخلصون له، ويعرضون عليه المواجهة بالسلاح، إلا أنه كان يرد عليهم بقوله «لا يجب لأجل شخص واحد أن يذهب ألف شخص، وأن يضرب الأخ أخاه، ويجب جمع الأسلحة من العسكر وعدم إطلاق النيران، ولا أريد أن تنزف أنف رجل واحد وليفعل المتمردون ما يشاؤون». وفي هذه الأثناء كان القصف مستمراً على مكان تجمع السلاح قرب السراي والذي كان محاصراً هو الآخر، وفي هذه الأثناء جاء سفير روسيا عارضاً على السلطان تحقيق رغباته كلها ودون التعرض لشعرة من جسده وأنه ينتظر الأوامر. ولكن السلطان رفض هذا بشدة قائلاً إنه راض بكل

مصيبة تأتي على رأسه، وأن قبره سيكون حيثما وجد قبر أجداده وقام جيش الحركة بتشديد الحصار على السراي، ولما انقطعت صلته بالخارج أصدر السلطان أمراً قال فيه «فليرفع علم التسليم فوق السراي» غير أن أحداً لم يشأ أن يرفع هذا العلم، ولكن في النهاية قام «جركس محمد علي بك» أحد الياوران بهذه المهمة، وتم رفع علم التسليم، كانت آخر أيام السلطان بالحكم إذن، وأحاط الجيش بالسراي من كل جانب. وانقطع التيار الكهربائي وانطفأت لمبات الغاز وقطع الماء، وكان جميع عمال وموظفو السراي قد غادروه أثناء الحصار.

وأخيراً وصلت هيئة من (المجلس الوطني) وهم مجلس الثوار وكانت تضم أربعة أشخاص، وقفوا أمام السلطان وحياه كل منهم ورد السلطان التحية وكان القادمون هم أسعد طوبتاني الأرناؤوطي، وعارف حكمت باشا الاظ، والأرمني آرام أفندي، واليهودي قراصو أفندي.

وبادر أسعد طوبتاني الواقف في مقدمتهم بقوله «لقد عزلتك الأمة» ورد عليه السلطان بالقول إنكم تريدون القول: إنها خلعتني، حسنا ما هو السبب الذي تستندون إليه؟ وفي تلك اللحظة راح الشخص الثاني «عارف حكمت» يقرأ صورة الفتوى، والتي بدأت بدعم إبطال بعض المسائل المهمة في الشرعية من الكتب الشرعية، ومنع وحرق الكتب المذكورة، وما أن قرأ الرجل كلمات وأحرق الكتب الشرعية، حتى قال السلطان بصوت مرتفع «أي كتب شرعية أحرقت حسبنا الله» وراح ينصت للفتوى حتى نهايتها، ثم سأل، من أي منصب صدر هذا القرار، فأجابه من المجلس الوطني، وسأل السلطان ومن يترأس هذا المجلس؟

فقيل له إنه رئيس الأعيان سعيد باشا.

ورد السلطان قائلاً: «لقد عملت ثلاثة وثلاثين عاماً من أجل الأمة والدولة، ومن أجل سلامة البلاد، وخدمت قدر طاقتي. إنني حاكم يحاكمني الله ورسوله، إنني

أسلمكم البلاد بمثل ما وجدتها عليه، ولم أفرط أبـداً في شـبر مـن أراضـيها لأحـد، وأترك للمولى عز وجل تقدير خدماتي ومـا حـيلتي إن شـاء الله أن يـدع لأعـدائي فرصة إسدال ستار أسود على كل خدماتي، والعجيب أنهم وفّقوا أيضاً في ذلك».

وأخيراً جاء جواد بك ليخبر السلطان بنقله إلى سلانيك.

ونصحه بتنفيذ الأمر. وحاول السلطان الرفض ولكن رجلاً من الهيئـة أخـبره بضرورة الرحيل وإلا فاستعمال القوة، وقال له إن الجيش سيتكفل بتأمين حيـاتكم ويعمل على راحتكم وسأل السلطان زوجاته وأولاده عن مـدى رغبـتهم بمرافقتـه، فوافقوا جميعاً.

وأخيراً توجه السلطان ومن معه ليسـتقلوا القطـار الـذي سـوف ينقلـهم إلى حيث الإقامة الجديدة في قصر (غلاتيني) وصل ركب السلطان وحاشيته إلى القصر، حيث وجدوا أمامهم أعلى السلم ضابطاً شـاباً هـو (فتحـي أوقيـار) والـذي جـاء كقائداً للحرس الخاص، وأعلمهم أنه صاحبهم منذ خروجهم وحتى هذا المكان.

دخل الركب من باب القصر حيث أغلقت الأبواب من خلفهم.

وجـدوا أنفسـهم وحيـدين وأخـذوا يفكـرون مـاذا سـيفعلون الآن؟ ومـاذا سيحدث؟ وكيف ستكون حيـاتهم في هـذا المنـزل؟ بعـد أيـام أدرك الجميـع أنهـم أصبحوا سجناء في هذا المكان فقـد أغلقـت النوافـذ بقطـع ضـخمة مـن الخشـب، وانقطعت الصلة بالخارج. ولكن وأخيراً بدأوا بتنظيم حياتهم في هـذا المكـان، فقـد اختار السلطان غرفته، وكذلك فعل الباقون.

وقد تم سحب مقعدين إلى غرفة السلطان الجديدة ووضعا متلاصقين أحدهما بـالآخر حتـى يصـلحا لنـوم السـلطان. ثـم راحـوا يبحثـون عـن المـاء والصـابون والشموع، وعندما علم فتحي بك بذلك سارع بإرسال كل ما يلزم.

ثم وصلهم الطعام، إلا أن السلطان لم يأكل شيئاً وطلب شيئاً من الزبادي والمياه المعدنية.

بعد ذلك صعدت بعض بنات السلطان إلى الطابق العلوي حيث وجدن في إحدى الغرف سريراً من الحديد وبعض الأشياء الصغيرة المنسية مثل المناشف والأغطية وغيرها، كما عثروا على بعض المقاعد، وأنزلوا الأشياء جميعاً إلى حيث يقيمون في الطابق الأول، وحملوا السرير إلى غرفة السلطان. ثم أرسل لهم فتحي بك بعض اللحف والوسائد من أحد الفنادق.

وتقول ابنة السلطان بأنه لم يكن هناك شيئاً من السجاد أو أي فرش أرضي آخر، فجعلوا يلفون أنفسهم بالألحفة وينامون على أرض المنزل الخشبية الخشنة.

وفي الصباح استفاق الجميع وذهبوا لتحية السلطان أولاً والذي أخبرهم أنه لم ينم إلا قليلاً وأنه متعب، وسألهم عن طعامهم فأخبروه أنهم لم يحضروا شيئاً للآن ولكنهم لا بد فاعلون.

وطلب السلطان مقابلة فتحي بك للتحدث معه، وبعد اللقاء أخبرهم السلطان بأن فتحي بك أخبره بأن كل شيء سيكون عل ما يرام، وأن بعض الطباخين وخدم السراي سوف يحضرون وأن اليوم سيبدأ صرف المصروفات وغداً يطهون الطعام وبعد قليل أرسلوا للسلطان والمرافقون القليل من الخبز والجبن واللحم المبرد، والقهوة والزبادي والمياه المعدنية.

في اليوم الثالث لم يعد هنالك مشكلة في الطعام، ثم تقرر أن يذهب فتحي بك إلى إستانبول ويأتي للجميع بما يلزم من ملبس وغطاء. وعاد فتحي بك ومعه بعض خادمات السلطان ومرضعات بناته وفرح الجميع بذلك. وإن كن قد أخبرن بأن دائرة السلطان تحولت إلى عدم، وأنه تم نهب كل ما خف وزنه وغلا ثمنه، وأن

الصناديق والخزائن كانت تخرج من السراي ليلاً. وأن نساء القصر الباقيات والأمراء قد خرجوا من السراي إلى بيوت أصدقائهم هنا وهناك، وإن السراي تحول إلى فوضى. بعد ذلك تم تخصيص ثمان مئة ليرة للسلطان وزوجاته وبناته. وطلب السلطان أن تصله الصحف ولكن طلبه رُفض بحجة أنها تهاجمه كثيراً وأنه سوف يضيق بها ولكن السلطان قال إنه معتاد على ذلك ولا يعبأ بشيء منها.

ثم أحضرت بعض الآلات الموسيقية والتي يتقن العزف عليها الكثيرون من المرافقين، وأصبحت إحدى وسائل التسلية للجميع.

الاستيلاء على أموال السلطان المودعة في البنك

أقدم الذين خلعوا السلطان على الاستيلاء على أمواله المودعة في البنك الألماني. وكانت السلطات تخبر السلطان ببعض ما سيحصل له بواسطة راسم بك والذي تولى الإشراف على السلطان وحاشيته بعد فتحي بك. وكان راسم بك هذا يتردد على السلطان مراراً كي يحصل على إجاباته.

بالنسبة للأموال قال السلطان: «إنني رب أسرة كبيرة العدد، وكنت عندما اعتليت العرش أعطيت قسماً من مالي الخاص الذي عملت وكسبته أيام ولايتي للعهد (بقشيشاً للجلوس)».

«يبدو أن المقصود هو الجلوس على عرش السلطنة» ولم أكن مثل بقية إخوتي عاطلاً، بل عملت في مزارعي، وأودعت النقود التي كسبتها في البنك حتى يأخذها أولادي وعيالي من بعدي، ولقد حافظت على المجوهرات الخاصة بالخزينة، فلم أهب أحد شيئاً منها فهي من أموال الدولة، ولم أعطِ أولادي شيئاً منها. ووفقني الله التخفيف من ديون الدولة أيام سلطنتي. وقد اشتريت بيتاً لكل بنت من بناتي وزوجاتي ليس في أيديهن شيئاً من النقود على الإطلاق وكذلك أولادي الذكور

عبد الرحيم ونور الدين وعابد. ولهذه الأسباب لا أستطيع إعطائهم نقودي المودعة في البنك ولكنهم كلما رفض السلطان ذلك زادوا من ضغوطهم عليه وقالوا «لا بد أن تعطينا النقود، إنكم مجبرون على ذلك» وأخذ المسؤولون عن القصر يعاملون العمال وبعض حاشية السلطان معاملة سيئة إلى حد ما، وكان السلطان يرغب بذهاب ابنتين من بناته إلى إستانبول للزواج، إلا أنهم كانوا يقولون بأن شيئاً من الطلبات لن يتحقق ما لم تعطنا النقود.

وساد التوتر أجواء القصر، وأخذ الخوف يدب في النفوس وبدأ الجميع يشعر بأن هذه النقود سوف تكون سبباً لمصائب كثيرة ستحل بهم، وأخذت بنات السلطان يقلن بأن على الوالد أن يعطي لهم النقود حتى يسلم الجميع. وأدرك السلطان أنه أخطأ عندما أودع النقود باسمه ولم يوزعها على أولاده وزوجاته ليضعها كل باسمه وكان أبناء السلطان وبناته وبعض زوجاته قد اعتلّت صحتهم وأصابهم نوع من التعب النفسي، وكان السلطان يلحظ ذلك عليهم، ونصحته إحدى زوجاته بإعطاء النقود حفاظاً على سلامة الجميع.

وفي النهاية تقرر إعطاء النقود ووقع السلطان على ذلك.

إلا أن إدارة البنك رفضت قبول الورقة المرسلة إليها بتوقيع السلطان، وأصروا على الحضور إليه والتوقيع أمام أعينهم، وتسليم النقود له شخصياً.

ولكن السلطان كان له شروط هي:

١. أن يعود ابنه عبد الرحيم أفندي إلى استانبول لتحصيل العلم، وأن تذهب الأميرات أيضاً ليتزوجن.
٢. منح الحرية للعمال الموجودين معه.
٣. أن يخصص له قدر كاف من النقود، وشراء قصر علاتيني.

٤. أن يتركوه في راحة حتى وفاته، ويتكفل الجيش بحمايته.

قبلت السلطات هذه الشروط، وجاء أحد مديري البنك لأخذ التوقيع. وفي يوم التوقيع وقبل وصول مدير البنك والقنصل الألماني بدأ ضباط الحرس بحركات غير عادية ملؤها التهديد، ويقصدون من ذلك أن لا يخبر السلطان هؤلاء بكل ما جرى. وكان يجلس إلى جانب السلطان عند التوقيع ابنه الأصغر (خمس سنوات) وهو عابد أفندي بعد أن اعتذر الابن الأكبر عبد الرحيم عن ذلك.

وفي النهاية دخل إلى الصالون القنصل ومن خلفه ثلاثة مديرين وهادي باشا وعلي رضا باشا وراسم بك.

وقام الجميع بإلقاء التحية على السلطان، فرد عليهم التحية وكانوا يحملون معهم ست حقائب كبيرة من النقود والسندات، وراحوا يصفونها على الأرض.

والتفت المديرون إلى الباشوات وإلى راسم بك ثم قالوا «إننا نريد الانفراد بجلالته، إذ يلزم أن نتباحث معه في أمر خاص، وبهذه الصورة فقط يمكننا إتمام الإجراءات، دهش الباشوات وراحوا ينظرون إلى بعضهم، واضطروا إلى مغادرة الصالون والنزول إلى الحديقة وفي النهاية خرج القنصل والمديرين. ثم سار السلطان نحو الشرفة وصاح على الضباط «خذوها»

فركض عدد من الضباط ودخلوا الصالون وشرعوا يحملون الحقائب.

وبعدها جمع السلطان أولاده وأخبرهم عن أسفه لأنه لم يستطع أن يبني لهم مستقبلاً.

وفي أحد الأيام أطلق يوزباشي المدفعية سالم الكردي أحد ضباط الحرس رصاصةً على السلطان وهو في الشرفة ولكنها لم تصبه، وعندما سُئل لماذا فعلت ذلك قال «لنتخلص منه جميعاً».

خروج النساء من قصر علاتيني

لاحظ السلطان أن صحة بناته وبعض زوجاته أخذت تتدهور، وكلف طبيب القصر عاطف بك بكتابة تقرير حول ذلك وإرساله إلى إستانبول، فعل الطبيب ذلك وكتب تقريراً وأرسله، وبعد مدة وصل الإذن بالخروج من علاتيني والذهاب إلى استانبول، رحبت البنات بذلك وبنفس الوقت تألمن لأنهن سيتركن السلطان وكانت الأميرة عائشة الأكثر تألماً لأنها ستترك والدتها كذلك.

ولكن والدتها شجعتها على الخروج، وقالت لها إن بقاءك هنا إهدار لشبابك، وانك يجب أن تتزوجي ويكون لك زوجاً وأولاداً، ويجب أن تخبرينا بذلك إن شاء الله.

وبدأ الاستعداد للخروج، وإحضار ما سوف يتم إرساله لاستانبول من حاجيات. ثم كان يوم الوداع وذهبت الأميرة عائشة صاحبة المذكرات لوالدها تودعه وكان مما قاله لها «إن أسرتنا أسرة معذبة، مرت بها مثل هذه المصائب، ولكن يجب التسليم للقدر فقد تعذبتم معي تسعة أشهر، ولا أريد أن تضحوا أكثر من هذا. وإن أعظم نصيحة لك وآخرها هي أن تحافظي على عِرض العائلة وشرفها أكثر من حفاظك على روحك ولا تنسي دائماً أنك ابنتي، واحذري كل تصرف يسيء إلي، وحافظي على نفسك ولا تلطخي اسمي بالطين.

إنك فتاة ذكية يا ابنتي، ولا أنتظر منك إلا الخير، وأدعو لك بالسعادة، ولتكن دعواتي من نصيبك. وان عمك اليوم يحتل مكاني، واحترامك له هو الآخر، بقدر احترامك وطاعتك لي يجعلني سعيداً غاية السعادة. أطلب منك أن تطيعي كل أوامره.وإذا وجد أن أزواجكن غير مناسبين لدواع سياسية فلا تعترضن وكن عفيفات مدى عمركن، وطلبي إليكن أن تكتبن لي كثيراً ما أمكن وتخبرنني

بأحوالكن وصحتكن».

ثم ودعت والدتها ومعها بقية أخواتها وبعض زوجات السلطان الذاهبات إلى استانبول.

وقبل الركوب في العربات جرى تفتيش المغادرين بكل دقة وكان موكب المغادرين يتكون من إحدى عشرة عربة وركب كل اثنين عربة حتى وصلوا إلى محطة القطار والذي انطلق بالركب نحو استانبول، وكان مجموعة من الجند يقوم بحراستهم، وكان مجموع القادمين تسعة عشر فرداً، أربع من أبناء السلطان ثلاثة بنات وولد واحد. وثلاثة من حريم السلطان، والباقون من الخدم والمربين وبعض العاملين بالقصر. وبعد الوصول توجهوا إلى قصر ناظم باشا الذي استأجروه لهم.

وبعد أسبوع ذهبت الأميرة عائشة وقابلت عمها السلطان رشاد في سراي (طولمة باغجة) فسألها عن أحوالها وأحوال أخيه السلطان عبد الحميد وهل له طلبات معينة. وبعد فترة قام السلطان بإتمام إجراءات زواج الأميرة عائشة من أحمد نامي بك بناء على طلب من السلطان عبد الحميد.

وتقول الأميرة إن أبناء وبنات السلطان عبد الحميد بصفة خاصة كان يروعهم التردد على السراي والاقتراب من السلطان خوفاً على والدهم فقد ازداد نفوذ الاتحاديين وكان السلطان عبد الحميد أسيراً لديهم وخوفاً من تعرضه للأذى إزاء أي تصرف خاطئ يقومون به.

حياة السلطان في سلانيك بعد رحيل البنات

بعد رحيل بعض زوجات السلطان وبناته مرض السلطان كما تقول بعض الزوجات الباقيات، فقد هزه من الأعماق ذلك الفراغ الذي خلفه ذهاب الأولاد بصورة خاصة، والصمت الذي خيم على القصر.

ولكن بعد عودة راسم بك مشرف القصر من استانبول وتسليمه الخطابات التي يحملها، سعد السلطان كثيراً إلا أنه جزع عندما علم أن أخاه السلطان الذي يثق به لم يتكفل بهم كما يجب ويهتم لأمرهم، فالسلطان عبد الحميد كان يتكفل ببنات أخيه وزوجاته وكذلك بنات الأمراء والأميرات حال احتياجهم لذلك لظرف يصيبهم أو لآخر.

وكان السلطان في هذه الأثناء يقوم ببعض أعمال النجارة التي يهواها، وفي المساء يخرج إلى الشرفة فيجلس بها قليلاً وينظر فيما حوله بنظارة مكبرة، وكانت بعض زوجاته تجلس أمامه.

ثم قامت حرب البلقان وحضر السلطان رشاد إلى سلانيك ولكنه لم يزر أخاه الأكبر عبد الحميد وإنما أرسل من يخبره بتحيات السلطان، والذي رد التحية بمثلها وطلب التوفيق لأخيه السلطان.

وبعد أيام جاء من يخبر السلطان بأن الدولة تدخل في حرب مع أربعة دول وأنها على وشك أن تنهزم (هذه الدول اليونان وبلغاريا وصربيا والمجر).

لذلك فإن عليه أن يغادر سلانيك، «فقال السلطان إن سلانيك هي بوابة استانبول، فهل تُترك للعدو إنني لن أبرح المكان وأريد بندقية كي أقاتل، ثم سأل من مِن القواد يدير هذه الحرب؟ إنني لست ذاهباً من هنا مهما كان الأمر، وعليكم أن تعلموا ذلك».

ولكن في صباح اليوم التالي جاء من يخبر السلطان بضرورة مغادرة القصر، وأنه أمر صدر من الحكومة، وفزع السلطان وقال بصوت منخفض «إنها كارثة، الإمبراطورية تنهار» وفي تلك الأثناء بدأت تُسمع أصوات المدافع، وساد القلق والاضطراب على كل من في القصر.

وأخذت حريم السلطان وخدمه في الاستعداد للخروج وجمع كل ما يحتاجون إليه من أمتعة، وكذلك استعد السلطان وتمت مغادرة قصر علاتيني، وكانت هناك باخرة ألمانية تستعد لنقل السلطان ومن معه خاصة زوجتيه وابنه وصهريه، وما أن صعد السلطان حتى حياه طاقم السفينة تحية رسمية، وجاء الربان وأبلغه تحية الإمبراطور (الألماني) وقال له إن الإمبراطور أمرهم أن يكونوا مستعدين لنقله إلى الجهة التي يريدها، وأن يكونوا رهن أمره وكان يتحدث مع السلطان بالفرنسية. وأبلغه السلطان بأن ينقل تحياته إلى الإمبراطور وشكره على الصداقة والمودة التي أظهرها، وقال له إنه يريد العودة إلى الوطن. ثم جاء القنصل الألماني وتحدث مع السلطان هو الآخر.

ثم صعد ربان السفينة وطلب من السلطان أمره بالإبحار فأشار بيده نحو استانبول. وكان هناك جندي ألماني يقف عل باب مقصورة السلطان ولا يسمح بالدخول لأحد دون إذن.

وأخيراً وصلت السفينة إلى مياه (غاليبولي) وراح الربان ينتظر الأمر من الحكومة، ولما جاءه راحت السفينة تسير نحو مياه قصر بكلربكي، وألقت مراسيها هناك، وقام الألمان بنقل السلطان إلى القصر بقوارب السفينة، وأدوا له التحية الرسمية، وقبلها كان السلطان قدم شكره للربان، وكذلك طبيب السفينة وطاقمها، وطلب من الربان أن ينقل شكره إلى صديقه القديم إمبراطور ألمانيا، ثم غادر السفينة.

الحياة في قصر بكلربكي

في البداية بدأ أحد أولاد السلطان (عابد) يدرس في المدرسة الحربية وكان للسلطان مبلغ ستين ألف ليرة مودعة في بنك كريدي ليونيه فطلبها أصحاب السلطة، وأصر هو على بقائها لأولاده، إلا أنهم ألحوا عليه واستولوا عليها

بتوقيعه.

كان السلطان ينتظر بناته كل عيد أضحى. وذات مرة سمحوا لأولاده الذكور بزيارته. وقال لمحمد أكبر أولاده "«إنك أكبر أولادي وكل أمالي فيك» ثم دعا له.

وكان السلطان يقضي معظم أوقاته في قصر بكلربكي في قراءة الصحف وأحياناً في الكتابة.

ثم قامت الحرب العالمية الأولى وأخذ السلطان يتابع أخبارها من خلال الصحف، فيستقبلها أحياناً بالدهشة وأخرى بالجزع وكان يقول إن دخولنا الحرب ضد ثلاثة دول كبرى شيء ليس من التعقل، إنني أخشى نتائجها الوخيمة.

وكان كثيراً ما يردد كيف يحدث هذا، إنه جنون. ولما أعلنت الدولة العثمانية الجهاد سخر منها، وكان يقول بحزن «ليس الجهاد نفسه، ولكن اسمه فقط كان سلاحاً في أيدينا، ولطالما هددت به السفراء الأجانب».

رسالة من السلطان رشاد إلى السلطان عبد الحميد

وصلت رسالة شفوية من السلطان رشاد إلى أخيه عبد الحميد قال فيها «على أخي أن يستعد، إذ يجب نقله إلى بورصة أما أنا فسأذهب إلى قونية» وهنا وقف عبد الحميد غاضبا وقال «ماذا يفعل أخي: لا يجب على أحد أن يترك العاصمة وخصوصاً هو، إذ يتحتم عليه أن يظل حتى الموت، والأسرة كلها صغيرها وكبيرها يجب أن تدافع عن البلاد حتى الموت، وهل نعجز أن نكون أنداداً لآخر أباطرة بيزنطة أبداً لن أغادر استانبول، وأنا راضي بالموت هنا».

وكان الحزن يسيطر على أفراد الأسرة العثمانية بكاملها في تلك الأيام. ولكن عاصمة الدولة بقيت سليمة وبقي كل في مكانه وفي أحد الأيام زار مصطفى كمال

أتاتورك وذلك أثناء الحرب الأولى في قصر بكلربكي وحلّ ضيفاً على صالح بك أحد ضباط الحرس في القصر، ولما رآه السلطان عبد الحميد من النافذة سألهم: من يكون هذا الضابط الوسيم؟ ولما علم أنه ينزل هنا ضيفاً قال يومها: «إنه لا يشبه الضباط الآخرين، ولا بد أنه شخص آخر يختلف عنهم».

وقد قيل بأن مصطفى كمال كان خلال إقامته هذه يجلس في الحديقة، ويتحدث مع عابد نجل السلطان عبد الحميد حتى أنه أهدى إليه زوجاً من الغزلان الصغيرة. والتي فرح السلطان بهما كثيراً عندما عُرضتا عليه من قِبل نجله.

مرض السلطان ووفاته

بعد فترة وجيزة من كل هذه الأحداث التي سبقت، لم يعد السلطان عبد الحميد كسابق عهده، فقد تدهورت صحته وصار يشكو من الإرهاق، وكان كل شكواه من الجهاز الهضمي وفي التاسع من شباط (فبراير) مساء السبت ١٩١٨ جلس على مائدة الطعام مع زوجتيه، وتحدث عن فقدان شهيته وتناول قليلاً من الطعام، وما أن نهض على قدميه حتى أشار إلى صدره وقال لزوجته «أشعر بألم في الطرف الأيسر يمتد حتى الطرف الأيمن» وعند استدعاء الطبيب وهو بالمناسبة طبيب أخاه الأصغر وحيد الدين (السلطان فيما بعد) أخبرهم بأن السلطان عبد الحميد يعاني من بوادر سل خطير. وقد تأكدوا من ذلك باستدعاء أكثر من طبيب فحص السلطان. وكانت حالة السلطان في منتهى الخطورة.

وفي الصباح أصر على أخذ حمامه اليومي، وأصبح يقول إنه في حالة جيدة.

وقام بعض الأطباء بالكشف عليه أكثر من مرة. وفهم السلطان رشاد من الأطباء أن لا أمل في حياة عبد الحميد وأرسل يستدعي ابنه الأكبر محمد سليم أفندي لزيارة والده.

وطلب السلطان المريض فنجاناً من القهوة أخذ منه رشفة وقبل أن يأخذ الثانية أسلم الروح وانسكبت بقية القهوة على كف وملابس زوجته الذي سقط رأسه بين ذراعيها.

وكان ذلك في ١٠ شباط (فبراير) ١٩١٨. وكان عمره ست وسبعون عاماً.

وبعد يومين من الوفاة وصل بكلربكي أنور باشا على رأس هيئة، وقام راسم بك ففتح الغرفة، وفتحت الهيئة خزانة كانت تقف عند سرير السلطان، وأخرجوا منها الحقيبة التي كان أتى بها السلطان من قصر يلدز، وفتحوها فوجدوا فيها كمية كبيرة من الأوراق، ودفتر ومذكرات السلطان، وعلبة في شكل مصحف مختومة بخاتمه وما أن فتحوها حتى وجدوها مليئة بالجوهرات.

أما الأوراق والدفتر فطواهما أنور باشا ووضعهما في جيب معطفه، وقالوا إن هذه الأوراق هي الأوراق التي أخذها من البنك الألماني عندما كان في سلانيك، ومن بنك كريدى ليونيه عندما كان في قصر بكلربكي، ثم فتحوا كل الخزائن وفتشوا جيوب الملابس ولكنهم لم يعثروا على شيء فيها ولم ينس أنور باشا عند انصرافه أن يطلب أختام السلطان.

وكان السلطان قبل وفاته سلم الأختام لإحدى زوجاته وتم أخذها منها بعد مدة.

أما حقيبة المجوهرات فقد حملها أنور باشا إلى السلطان رشاد فقال السلطان «إن هذه الحقيبة ليست لي، وهي ملك أخي ويجب تسليمها إلى أولاده، وعلى هذا تم تسليمها إلى محمد سليم أفندي. ووزعت محتوياتها على أولاد السلطان وبناته وزوجاته. وكان نصيب كل واحد من الأولاد والبنات ما قيمته عشرة آلاف ليرة من المجوهرات (لم تذكر صاحبة المذكرات أنه كان للولد ضعف نصيب البنت بل

قالت إن نصيب كل واحد منا كان كذا).

وكان نصيب كل زوجة ما قيمته خمسة ألاف ليرة.

وهكذا انتهت قصة السلطان عبد الحميد وثروته.

هذه الثروة التي تقدر بمئات الآلاف من الليرات. وكانت تلك قصة السلطان بعد خلعه ونفيه أما ما قبل ذلك وأثناء توليه السلطنة فإن حياة البذخ التي كان يحياها سلاطين بنو عثمان تكاد لا توصف، من قصور فارهة ومئات الخدم والمربيات وعشرات الزوجات والمحظيات. واستعمال أواني الذهب في مختلف وسائل الأكل والشراب والمخصصات الكبيرة لأفراد الأسرة الحاكمة وغير ذلك.

بينما كانت رعية السلطان لا سيما في الوطن العربي تعيش حالة مزرية من التخلف والفقر والجهل، وإهمال شؤون البلاد والعباد، فلا مدارس ولا طرق معبدة ولا ماء للمنازل ولا كهرباء، ورحلت الدولة العثمانية وتركت وراءها ٩٨٪ من الشعب العربي لا يعرف القراءة والكتابة. هذا إلى جانب انعدام الأمن وتحكم الوالي العثماني وقائد الحامية برقاب أبناء الولاية التي يلتزم عليها فيثقل كاهل الإنسان بكثرة الضرائب على الأراضي والمزروعات والحيوانات وغيرها. مما جعل الكثير من أبناء الولايات العربية يتركون الزراعة وغيرها من وسائل الإنتاج المتوفرة.

هذا إلى جانب سوق أعداد كبيرة من أبناء البلاد العربية للجندية والحرب دون تدريب أو تسليح أو حتى طعام مناسب.

والمقصود من كل ما ذكرنا أن لا يُغلب أبناء هذا الجيل لا سيما من يقولون عن أنفسهم إنهم إسلاميون العاطفة ويدافعون عن سلوكيات الدولة العثمانية وسياساتها بحجة أنها دولة إسلامية، وأنه تم التآمر لإسقاط الخلافة، فالدولة التي

يسودها الفساد والتخلف والظلم وعدم محاربة الجهل والسير بخطى التقدم لا يمكـن الدفاع عنها حتى ولو كانت تحمل اسم خلافة أو إسلامية وغير ذلك. فالإنسان هو الجوهر وإقامة العدل والتقدم والتمتع بالقوة هو الغاية.

وقد قيل إن الدولة الكافرة العادلة تتفـوق علـى الدولـة الإسـلامية الطاغيـة والظالمة.

وأمور الشعوب تُساس بالعدل والحكمة لا بالعواطف والتمنيات.

أفراد العائلة العثمانية

أين ذهبوا عندما طلب منهم الخروج من الأراضي التركية؟

صدر قرار بإخراج كل أفراد أسرة آل عثمان خارج تركيا بعد إلغاء السلطنة (١٩٢٣) ثم الخلافة (١٩٢٤) فأين ذهب أبناء هذه الأسرة بعد هذا القرار. هذا ما سوف نتتبعه في الصفحات القادمة.

بعد هذا القرار بدأ أفراد العائلة بفتح أبوابهم ليبيعوا بالمزاد أثاث بيوتهم استعداداً للرحيل، وكان البيع بغير القيمة الحقيقية للأشياء بسبب العجلة أولاً ثم قلة الخبرة بهذه الأمور من الناحية الأخرى.

ثم حان وقت الرحيل. فالأميرة عائشة ابنة السلطان عبد الحميد وصاحبة المذكرات مع زوجها الثاني محمد علي رؤوف بك قرر أن أنسب الأماكن للرحيل إليها هي فرنسا، حيث عدم المعاناة من مشكلة اللغة، وإتاحة الفرصة للأولاد ليتعلموا ويتربوا بصورة أفضل.

وبدأت الرحلة إلى باريس وقد أعطت السلطات لكل واحد ألف ليرة لنفقات الطريق مع السماح لهم بنقل بعض حاجياتهم، ووصلت الأميرة عائشة إلى باريس وأقاموا في فندق (كيرس). وكان العثور على منزل للشراء بسعر مناسب في باريس أمراً صعباً بسبب إقامة دورة الألعاب الأولمبية بها عام ١٩٢٣م.

ولكن زوج الأميرة كان يعرف فرنسا جيداً، فرأي أنه من الأنسب استئجار منزل في ضواحي المدينة. فتم استئجار منزل صغير قرب فرساي، وتم الانتقال إليه في اليوم الثامن عشر من الوصول إلى باريس.

بعد مدة من الاستقرار وتسجيل أكبر الأبناء في إحدى المدارس جاءهم خبر

وفاة أخو الأميرة عائشة الأكبر محمد سليم أفندي في بيروت، وكان الحزن عليه كبيراً. وبعده بقليل توفيت الأميرة رفيعة وهي في سن الشباب أيضاً في بيروت ثم كانت وفاة محمد رؤوف بك في باريس وهو أول شخص من آل عثمان يتوفى بها. وقد قام جامع باريس بعمل كل ما يلزم من مراسم إسلامية للجنازة وقام عدد من المسلمين المغاربة بالصلاة عليه، ولف بالعلم التركي ودفن في مقابر المسلمين في باريس.

وفي هذه الأثناء قامت الحرب العالمية الثانية، وضاقت سبل العيش بسبب انقطاع الموارد من الابن الأكبر عمر كما تقول فقد أغلقت الطرقات وأصبحت أجواء الحرب هي المسيطرة.

واضطرت الأميرة عائشة كما تقول أن تبيع كل ما وصلت إليه يداها من أشياء، كما أصبحت تصنع بعض اللوحات لا سيما الإسلامية منها ويقوم ابنها عثمان ببيعها في الشوارع مساءاً.

ولكن كل هذا لم يكن يكفي لمصاريف العائلة ودراسة الابن الأكبر. وهنا تذكرت الأميرة أنها تملك مجموعة من الطوابع النادرة. وقد قام أحد أصدقائها بالمجيء ذات يوم بشاب سوري اشتراها بمليون فرنك..

وبهذه النقود الوفيرة تمكنت العائلة من إمضاء سنوات الحرب الست دون عناء.

وأثناء الحرب توفي أحد إخوان الأميرة عائشة واسمه أحمد أفندي في إحدى المستشفيات، ثم توفي لها آخر يدعى عبد القادر في أحد ملاجئ بلغاريا.

وفي أواخر الحرب توفي الخليفة عبد المجيد أفندي في باريس وكان آخر رئيس للعائلة. وصممت الأميرة على الذهاب إلى منزل السلطان المتوفى رغم أن هذا

الوقت في باريس كان يشهد انسحاب بقايا الجيش الألماني، وهروب الفرنسيين الذين كانوا يتعاونون معه من رجال ونساء نحو القرى للفرار من العقاب، بينما كان جنود الجنرال ديجول يدخلون المدينة باريس. إذن في هذه الأثناء كانت تعيش أياماً رهيبة، بقي الجميع قابعاً في منازلهم لا يبرحون، وكانت وفاة السلطان يوم الأربعاء ٢٤ آب (أغسطس) ١٩٤٤م في الشوارع المقفرة وبين الجيوش المنسحبة والأخرى القادمة وصلت الأميرة عائشة وأحد أبنائها إلى منزل السلطان ورأوا بعض خدمه وزوجاته المفجوعات أولاً، ثم دخلوا غرفة السلطان لإلقاء النظرة الأخيرة. وكانت ابنته الأميرة (درشهوار) في الهند، بينما كان ابنه عمر الفاروق في مصر، وكانا لا يستطيعان الحضور إليه بسبب الحرب مما زاد الحسرات.

وتم الإبراق إلى ولده وابنته، وكانا يريدان أن يُدفن حسب وصيته في المدينة المنورة، ولهذا أوصيا بأن يحفظ جسده قبل الدفن، وقرروا أن يدفن في غرفة صغيرة داخل جامع باريس فتم استدعاء طبيبه الخاص "«يا قوفيل» ليقوم بتحنيطه وجاء مع مجموعة من تلاميذه، وفعلوا اللازم لبقاء الجسد مدة طويلة، وأعد التابوت. ولكن قبل ذلك كان لا بد من تغسيله تبعاً لأصول الشريعة، وقام بذلك أربعة من أفراد أسرته. ثم نقل إلى مسجد باريس حيث صلي عليه وكذلك وضعوا داخل النعش أنبوب بلاستيك جعلوا طرفه الأول مفتوحاً، ووضعوا الطرف الثاني داخل زجاجة مياه وبقي النعش على هذا الحال حتى تم نقله إلى المدينة المنورة ودفنتا هناك.

بعد عام لحقت به زوجته الأولى (شهوار) ودفنت في مقبرة المسلمين في باريس، أما زوجته الأخرى وابنته فكانتا في لندن وتوفيتا ودفنتا هناك.

ولم يمضِ وقت طويل حتى توفي الابن الأصغر للسلطان عبد الحميد وهو نور الدين أفندي في باريس. أما الابن الآخر للسلطان عبد الرحيم أفندي فقد انتحر. أما الولد الآخر للسلطان عبد الحميد برهان الدين أفندي فكان يعيش في رغد في

أمريكا وبها توفي.

وفي عام ١٩٥٣م قرار من الحكومة التركية يسمح بعودة آل عثمـان إلى أرض الوطن فعاد منهم من أراد وربما بقي آخرون في الخارج.

المملكة الحجازية ١٩١٥ -١٩٢٤م

صفحة مطوية من تاريخنا

قصة الثورة العربية الكبرى والتي قادها الشريف الحسين بن علي شريف مكة عام ١٩١٦م على دولة متهاوية أصلاً، وما عادت تمثل الإسلام ولا المسلمين هذه الثورة وإن كانت مجرياتها ونتائجها قد أصبحت معروفة لكل من يريد أن يعرف، إلا أن الكثير من تفاصيل أحداثها والمؤامرات التي تعرضت لها ممن كان يُظن بأنهم الحلفاء المخلصون العاملون لنشر الحرية والعدالة في العالم بعض تفاصيل هذه المؤامرات وما جرى خلال الاجتماعات التي عُقدت لحياكتها وتنفيذها لاسيما بين بريطانيا وفرنسا ما زال غامضاً أو مجهولاً لدى الكثيرين من أبناء هذه الأمة، خاصة وإن حب المطالعة والبحث والمعرفة لدى أجيالنا أصبحت شبه معدومه، رغم توافر كل وسائل المعرفة وسهولة الحصول عليها، ورغم أن كل المعلومات المطلوبة منشورة في مطبوعات ووثائق كثيرة.

وفي هذه الصفحات القليلة سوف نسلط الضوء على بعض ما تعرضت له الثورة من مؤامرات، ثم نستعرض شيئاً من تاريخ المملكة الحجازية التي اعتلى عرشها الملك علي بن الحسين. وهي صفحات قلما يعرف عنها الكثيرون من أبناء الأمة. لعل اخطر ما تعرضت له الثورة العربية كان اتفاقية سايكس- بيكو والتي تقضي بتقسيم الوطن العربي خاصة بلاد الشام بين بريطانيا وفرنسا، وقد كشفت الحكومة السوفيتية نصوص هذه الاتفاقية عام ١٩١٧م وقال ليون تروتسكي وزير الخارجية «إن جميع المعاهدات السرية بين يدي الآن، وان هذه الوثائق الأكثر غرابة مما توقعنا ستنشر على الفور، سوف نلقي جميع هذه المعاهدات السرية في القمامة»

وقبل أن ترمى اتفاقية سايكس – بيكو في القمامة يجب كشف هذا الجزء من الخداع الاستعماري إلى العالم، وفي ٣٠ كانون الأول ١٩١٧ أصدر الروس التماساً إلى جميع المسلمين في الشرق أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم. وقد أنكر بلفور الذي ذهل بالأمر هذا الإفشاء وقال «إنه شيء ملفق ابتدعه الخيال البلشفي الماكر».

هذا وكان جمال باشا وقبل أسبوعين من الإعلان الروسي أعلن عن وجود مثل هذه الاتفاقية وأبلغ ذلك إلى الأمير وقتها فيصل وجعفر العسكري. وقد تم إرسال هذه الرسائل إلى هذين الشخصين وليس إلى الحسين في مكة لأن هدف الأتراك كان وقف الحرب من جانب العرب

وهذا يتم بأفضل وجه بتقويض القضية التي يقاتلون من أجلها.. وفي كانون الأول من نفس العام ألقى جمال باشا خطاباً في بيروت ناشد فيه الملك الحسين في مكة التوقف عن حرب الأتراك مقابل وعود مثل إصدار عفو عام عن الذين يستسلمون والاعتراف بمكانة الهاشميين في دولة حجازية مستقلة وخليفة هاشمي وحكم ذاتي للولايات العربية. وقد أرسل فيصل هذه المقترحات إلى والده. ولكن الحسين لم يبدِ اهتماماً بالعروض التركية لأنه كان يعتقد أن البريطانيين ما زالوا بحاجة إليه، وكذلك فان سير الحرب كان بغير صالح الأتراك في تلك الأيام وعروضهم هي بقدر حظهم في كسب الحرب. أما الأمر الثالث فهو أن الملك سمع من جمال باشا نفسه أنه قال له مره كلاماً مفاده أن الوعود التي تعطى وقت الحرب ليست لها قيمة إلا بقدر ما تقدمه من فائدة في الوقت الحاضر فقط.

علماً بأن إعلان تفاصيل الاتفاقية أحدث قلقاً عميقاً لدى الحسين، فقد علم بطريقة غير مباشرة بالمطامع الإقليمية للحلفاء في الشرق الأدنى، وكان قد أعلن شروط العرب للوقوف بجانب الحلفاء، إلا أن الأمور تركت على حالها حتى انتهاء الحرب.

ثم كان إعلان وعد بلفور المشؤوم بإقامة دولة لليهود في فلسطين والذي كان الدافع إليه عوامل عسكرية مالية، والأهم من ذلك دينية «هدف مقدس» يرى البعض أنه يعود إلى تنشئة الانجليز على العهد القديم.

اعتبر ملك الحجاز الإعلان بأنه انتهاك خطير لحقوقه الإقليمية كما حددت في ميثاق دمشق وأوضحت في المراسلات مع مكماهون. رغم أن مصطلحات بلفور الغامضة تشبه إلى حد كبير مصطلحات مكماهون الأشد غموضاً. وأبرق الحسين إلى وينجت طالباً منه التوضيح لأنه يشعر بقلق شديد إزاء هذه الخطوة الخطيرة.

وعلى إثر ذلك حضر ممثل بريطاني يدعى (هوغارت) إلى جدة في كانون الثاني ١٩١٨، وخلال لقائه مع الحسين أكد «أنه سيسمح بالاستيطان اليهودي في فلسطين فقط في حالة انسجامه مع الحرية السياسية والاقتصادية للسكان العرب»، وهذه الحقوق كما يشير (جورج انطونيوس) لم تكن محددة بوضوح في وعد بلفور والذي يشير فقط إلى الحقوق المدنية والدينية لغير اليهود في فلسطين. ناقش الحسين مع المبعوث البريطاني موضوع الاستيطان اليهودي في فلسطين، وأبدى استعداده للنظر في ذلك بحدود معينة، وقال انه لا يمكن أن يقدم أية تنازلات بخصوص السيادة.

هذا وكان للأشراف السيطرة على الحجاز دائماً، وكانوا في أغلب الأحيان يمارسون الحكم تحت حماية قوة خارجية (عربية وإسلامية دائماً) ومنذ انتهاء الحكم العباسي تعرضت سلطة الخليفة إلى تحديات كبيرة للسيطرة على المدن المقدسة بما تضيفه من هيبة كبيرة على حاميها. وفي سنة ١٠٣٧م أعلنت الأسرة الشريفية بشخص محمد العلوي أكبر أفرادها استقلال الحرمين وإنشاء إمارة مكة. وقد تعززت سيطرة الهاشميين على المنطقة بفعل الشخصية القوية للأمير قتادة الذي جاء إلى الحكم في ١١٧٤م وقام بتوسيع الإمارة شمالاً وجنوباً.

سيطر أبناء الأشراف مدة أربعة قرون بعد قتادة على إمارة مكة حتى واجهوا تحدي الأسرة العثمانية في تركيا. وفي عام ١٥١٧م بايع شريف مكة الشريف بركات السلطان العثماني كخليفة للمسلمين وأهدى له مجموعة من الآثار المقدسة كمفاتيح الحرمين كإجلال لسلطته. ومع ذلك كانت السيطرة العثمانية غير مباشرة ولم تحد من حرية الأشراف. لا بل مكنت نفوذهم بواسطة الإعانات المالية التي مكنت الأشراف من شراء ولاء البدو وتنظيم أمور الحج».

ثم كان ظهور الوهابين أوائل القرن التاسع عشر وتمردهم على الدولة العثمانية والأسرة الشريفية معاً. وإرسال الدولة العثمانية محمد علي باشا والي مصر للقضاء على الوهابين والذي نجح في مهمته وحاول أن يضع أميراً لمكة يخضع لسلطاته لما كان له من طموحات توسعية.

كان الهاشميون في مكة يقسمون إلى فرعين هما الزيدي والعوني.

ولكن الحكم كان دائماً للفرع العوني والذي منه الشريف الحسين وأبناؤه وأحفاده. الفرع الزيدي تولى منه عبد المطلب ١٨٧٩- ١٨٨٧م وقد خلع من منصبه.

الحسين بن علي

ولد الحسين بن علي سنة ١٨٥٣م في اسطنبول. كان والده الرابع من خمسة أخوة وهو الوحيد الذي لم يتسلم إمارة مكة من بين أخوته لوفاته المبكرة، كانت أمه أرملة يمنية.

ينتمي والده إلى الفرع العوني من نسل الرسول الكريم محمد (ﷺ) في الثالثة من عمره قام الحسين بزيارته الأولى إلى الديار المقدسة التي ارتبط بها مستقبله. وكان ذلك عندما عين جده محمد بن عون أميراً على مكة للمرة الثانية سنة ١٨٥٦م وقد جلب والد الحسين جميع أفراد أسرته للعيش معه في القصر الشريفي بمكة.

ولكن كانت فترة مكوث الحسين قصيرة حيث توفي جده بعد ذلك بسنتين أي في سنة ١٨٥٨م وقد عادت العائلة إلى اسطنبول بعد ذلك. ولكن وبعد ثلاث سنوات توفي علي والد الحسين. وقد ورث الإمارة بعده عمه الأكبر (عبد الله بن محمد) سنة ١٨٥٨م وقرر أن تعيش أسرة الحسين معه. وهكذا تكونت شخصية الحسين بن علي بين العرب وأصبح يعرف تفصيلياً حياة البدو وطبيعة الصحراء وسكانها.

ولكن بعد أحداث كثيرة شهدتها الساحة الحجازية وصراع ودسائس متنوعة بين أطراف مختلفة كان بينها السلطان العثماني عبد الحميد وبعض قادته وولاته. غادر الحسين بن علي إلى اسطنبول ووصلها عام ١٨٩٣ حيث وجد الحسين نفسه ثانية في تركيا. وقد وصف أحد التقارير المرفوعة إلى السلطان عبد الحميد الحسين بأنه (قوي الإرادة، صلب، عنيد، ويخفي آراءه الخاصة ولا يفصح عنها إلا نادراً. وآراءه حين يفصح عنها تدل على أنه ذو تفكير أصيل مستقل وهذا أمر خطير).

في اسطنبول عاش الحسين حياة هادئة فيها الكثير من الاحترام والوقار. وأصبح عمره الآن أربعون عاماً. ورغم قامته النحيلة إلا أنه كان منتصباً مهيباً. كان عادة ما يرتدي الجبة التقليدية فوق رداء أبيض وعمّة مكية تعزز هامته العالية.

كان سلوكه دائماً عالي التهذيب. وقد أعجب به كل من التقاه. وكان الآخرون يقدرونه كعالم في الدين ويطلبون مشورته في شؤون العلم. أهم علاماته الجسدية المميزة يداه حيث كانت غاية في الرقة والتناسق وعيناه الكبيرتان. كان متحفظاً في نقاشه وعنيداً لأن لديه أفكاراً محددة عن كل ما هو صحيح وما هو خاطئ. كانت شخصيته قوية وإرادته حديدية.

عندما جاء إلى تركيا كانت ترافقه أسرته المكونة في ذلك الوقت من زوجته الشريفة عابدية ابنة عمه عبد الله وأولاده الثلاثة علي وعبد الله وفيصل. توفيت زوجته في بداية إقامته في تركيا وتزوج آدلة هانم وهي سيدة شركسية ذات جمال رائع، ولدت له ابنه الرابع زيد عام ١٨٩٦.

هذا وقد عينه السلطان بوظيفة «مستشار الإمبراطورية» إلا أنه لم يتخل عن طموحه بأن يصبح أميراً لمكة. وقد حدث ذلك عام ١٩٠٨م وبعد وفاة الأمير عبد الإله.

وقبل تسلم الحسين الإمارة دار صراع على هذا المنصب بين الحسين وعلي حيدر. وكان علي حيدر حفيد عبد المطلب أمير مكة المعتدل الذي نصبه عبد الحميد عام ١٨٧٩م كدلالة سياسية لها معنى. وكان علي حيدر مثل الحسين مدعواً للإقامة في اسطنبول ليحل ضيفاً عليها وربما لفترة طويلة وكان ذلك وهو في السابعة من العمر.

هذا وقد ذكر الملك عبد الله بن الحسين رحمه الله في مذكراته أن جمعية الإتحاد

والترقي كانت تفضل علي حيدر المعروف بأنه متحرر وتقدمي، حيث كان عبرّ سابقاً عن عدم اقتناعه بأساليب السلطان في إدارة شؤون البلاد.

أما الحرس القديم الذي يقوده رئيس الوزراء كامل باشا فكان يريد كبح تأثير الجمعية ويفكر بتعيين العنصر المحافظ الحسين. وكان تعيين أمير مكة من صلاحيات السلطان.

وكان للحسين أصدقاء كثر في أوساط البلاد وتحالفات مؤثرة كالسيد حليم باشا الذي أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء. وهو من أحفاد محمد علي باشا والي مصر.

أما علي حيدر فقد تملكه الغضب الشديد لدى سماعه باختيار الحسين أميراً لمكة. تماماً كما أخذت المفاجأة أعضاء جمعية الاتحاد والترقي.

يقول علي حيدر في مذكراته:

«وكانت دهشتي كبيرة لاختيار الحسين للإمارة، وكنت أعتقد أن العدل قد تحقق بإعلان الدستور الجديد، ولكن أين هو الحق وأين العدالة؟ في إحدى ليالي رمضان زرت كامل باشا وسألته بصراحة لماذا انتخب الحسين بدلاً مني؟

أجاب (إنها ليست مسألة تفضيل، إن الحسين هو أكبر منك» أجبته (نعم، إنه الأكبر سناً والأكبر في فرعهم من الأشراف ولكن أنا الممثل الرئيسي لفرعي من الأشراف)، أجاب «في السياسة مثل هذه الأمور ليست ذات أهمية، إنك الآن وريث الإمارة» ثم «أبدى ملاحظات كثيرة لا معنى لها وغادرته غاضباً».

وربما لم يكن أحد يتصور أو يتوقع نتائج هذا الاختيار ولكن يبدو أن السلطان عبد الحميد كان يفكر ويقول في نفسه إن عدواً تعرفه خير لك من عدو وضعته أمامك جمعية الاتحاد والترقي.

وما أن تسلم الحسين رسمياً إمارة مكة في ١ تشرين الثاني ١٩٠٨م وكان في الخامسة والخمسين من العمر، حتى وصل إليه مبعوث يطلب حضوره فوراً إلى مقر السلطان، وقد التقى الرجلان لأول وآخر مرة بشكل سري. وفي اللقاء أعرب السلطان للشريف عن مخاوفه من الإطاحة به أو حتى إعدامه وشكاه من أن تعمل قوى الإلحاد ضد الإسلام من خلال جمعية الاتحاد، وهو يرى من خلال مركزه الديني والدنيوي أن تركيا تهوي الآن في مستنقع الإلحاد والتطرف. وجد الحسين نفسه على أرضية مشتركة مع السلطان لذلك طلب منه في حال تعرضه للخطر الحضور إلى الحجاز ووعد بتأمين الحماية له. وطلب السلطان من الشريف الاتصال به مباشرة وليس من خلال رئيس الوزراء. وكان هذا الأمر سيقوي مركز الشريف كثيراً لو استمر السلطان في الحكم، ولكنه وصل إلى النهاية بعد ستة أشهر. وهذا ربما يُفسر لنا كثيراً من الغموض والشك لدى الكثيرين من مواقف الحسين اللاحقة وإعلانه للثورة وعند وصول الحسين إلى جدة بعد مغادرته اسطنبول وسط احتفال مهيب اشتمل على توديع رسمي من قبل السلطان عبد الحميد والذي لن يراه الحسين ثانية. وقد ذكر رئيس الوزراء كامل باشا الحسين بالروابط التقليدية بين الإمارة والسلطنة وأبلغه أن لا ينجرف مع التيارات السائدة.

في جدة جرى للحسين استقبال مهيب وألقيت الخطب ترحيباً بقدومه. من قبل الجهات الرسمية.

وقد رد الأمير على تلك الخطب بخطاب قال فيه: إنه يضع نفسه في الدور التقليدي لأمير مكة وفقاً لقواعد أبي نعمي (وهو أحد الأشراف الذي منحته الدولة امتيازات محددة ومرضية في الوقت ذاته).

أصبح موقع الأشراف بين عامة الناس كالتالي:

- لا يمارس الشريف العمل عدا بيع وشراء الجمال والطعام.
- إذا ما قتل أحد الأشراف فيقتل أربعة بالمقابل.
- من يضرب الشريف، تقطع يده.
- يستلم الشريف ثلث دية القتيل.

وهكذا تسير الأمور في (٢٦) فقرة.

ومن جدة توجه الشريف الحسين إلى مكة وسط غناء وتهليل الأهالي. وبعد أن اتخذ الحسين مقره في قصر محمد علي الفخم المكون من ثمانية أدوار، استعد لخوض صراع شخصي كان يعرف أنه سيكون حتمياً إذا ما أراد أن يصبح الحاكم المؤثر في الحجاز. أما الصراع فسيكون مع الوالي أي الحاكم العثماني لولاية الحجاز.

تختلف مسؤولية الطرفين من الناحية النظرية حيث يكون الوالي مسؤولاً عن أهالي المدن، بينما تنحصر سلطة شريف مكة على البدو، وتشمل كذلك توزيع هبات الحنطة القادمة من مصر، كما يمتلك الوالي سلطات إضافية مثل جباية الضرائب والدفاع وتطبيق القانون والأمن، إضافة لكونه ممثل الحكومة العثمانية في الإقليم.

وهنا يعتمد الأمر على مدى قوة أمير مكة حيث بإمكانه منازعة الوالي سلطاته بقوة شخصيته وسعة التأثير والمكائد التي يدبرها لخصومه.

هذا وكانت سلطات أمير مكة قد تقلصت في أعقاب فترة الحكم الشريفي

القوي إبان حكم عون الرفيق ١٨٨٢- ١٩٠٥م فعندما وصل الحسين إلى مكة وجد نفسه دون سلطة فعلية أو قدرة على تأمين موارد مالية، لذلك شرع في تصحيح هذا الوضع، فقد كان الوالي يعتبر نفسه مشرفاً على الجيش والمحاكم عدا الدعاوى التي تخص رجال القبائل البدوية وكان من مهامه التصديق على الأعمال العامة وعلى إنفاق ٢ مليون ليرة، وكان الأمير يتقاضى (٣٠٠) ليرة في الشهر إضافة إلى الطعام الذي يجبى من البدو والأموال السرية المرسلة من الخزينة الإمبراطورية لصيانة الأماكن المقدسة.

فالمهمة التي تواجه الحسين في مثل هذه الظروف هي تقويض سلطة ممثل الحكومة في مكة بقوة وبسرعة، وتحويل هذه السلطة إلى الأسرة الشريفية، ولعمل ذلك استخدم أسلوباً فعّالاً ولا يتعارض مع القوانين، ويكفي أن نذكر هنا أن ستة ولاة تبدلوا من عام ١٩٠٨-١٩١٦ نتيجة ما كان يدبره لهم الحسين عن طريق دائرة وكلائه الواسعة وأصدقائه ومعارفه الذين كانوا يقومون برفع الدعاوى بالجملة ضد الولاة إلى اسطنبول، حيث كان يُعزى كل نقص أو ضعف أو فساد بطريقة أو بأخرى إلى تأثير الحاكم العثماني. والوالي لم يكن يعرف ما يدور حوله لأنه حديث التعيين من قبل جماعة الاتحاد والترقي.

وفي هذا الوقت كان الحسين يوسع سلطاته داخل الولاية مركزاً في البداية على تحقيق سيطرة قوية على القبائل، كانت هذه القبائل لاسيما المنتشرة حول المدينة المنورة في حالة ثورة ولديها (١٠٠٠٠) محارب مرابط خلف الأسوار وهذا ينذر بنوع الأعمال التي ستصبح مألوفة خلال الثورة العربية. وقد كلف الحسين أبناءه بمهمة السيطرة على القبائل البدوية، وخاصة قبيلة الحارث والتي هي عبارة عن مجموعة من قطاع الطرق الذين يعيشون شمال مكة، وائتلاف قبيلة حرب المولعة بالحروب والمتخصصة بسلب قوافل الحجاج، فكان أبناؤه الأربعة يشكلون

الدوريات في وقت واحد أو أوقات مختلفة ويقودون الحملات ضد القبائل المتمـردة لإحلال الأمن في المنطقة.

وبالتدريج أخذت عوائد الولاية طريقها نحو خزينة الإمـارة. كمـا احتكـرت تجارة الجمال الحيوية وبيع المياه وجوانـب مهمـة أخـرى في أعمـال نقـل الحجـاج المربحة. وكان لتزايد السـلطة هـذا تـأثيراً مضـاعفاً، فقـد أخـذ النـاس بمـا في ذلـك القناصل الأجانب يقدمون لشؤونهم التجاريـة والمدنيـة إلى بـلاط الشـريف الكـبير بدلاً من القصر الحميدي حيث يقيم الحاكم السيئ الحظ.

اجتذب الحسين محبة الناس فكان محترماً وذا شعبية واسـعة ولم يكـن يصـعب عليه اجتذاب الناس، وهو الخطيب المفوه والشخصية ذات الهيبة الكبيرة.

وكان الحسين مع ابنه الأكبر علي متشددين بقوة تجاه أمور الـدين والسـلوك. وقد بذلا جهداً جباراً لإنهاء مفاسد الحج وقد كـان نجـاح أول حـج تحـت حكمـه قضية سياسية ذات أهمية كـبيرة، لأنـه يـدرك أن جمعيـة الاتحـاد والترقـي تتربـص لاغتصاب هذه السلطة التي تعتبر الحجر الأساس للحكم الشريفي.

أغلق الحسين جميع أبواب المكوس وطلب مـن أمـراء الحاميـات إيـلاء عنايـة فائقة بتنظيم قواتهم. وكان أول حـج تحـت رعايتـه ناجحـاً، خاصـة عنـد مقارنتـه بأحداث بعض الأعوام السابقة. ولكن في بعض الأعوام التي لحقت سقطت أمطـار غزيرة على مكة وتكونت بركة آسنة تسببت في انتشار وباء الكوليرا وحدثت بعض الاضطرابات التي حاول أعضاء جمعية الاتحاد الاسـتفادة منهـا للنيـل مـن الحسـين وإدارته، إلا أن المحاولة فشلت. وازدهر الحج خلال فترة حكم الحسـين، فقـد كـان يرسل الحملات التأديبية المتوالية ضد قبيلة حرب والقبائل الأخرى حيث قلل ذلك من مشاكل الغزو.كما عمل الحسـين علـى رفـع مسـتوى معيشـة سـكان الحجـاز. ساعده في ذلك وجود قائمقام قدير في جدة هو العقيد صـادق المؤيـد الـذي عمـل

على إنارة الشوارع ووضع العلامات وحظر البغاء والتفتيش المنتظم على مساكن الحجاج.

وبعد أن أمّن الحسين مركزه في الحجاز مستخدماً الإدارة والمناورة واستعراض القوة، وجه اهتمامه إلى تثبيت سيادته على جيرانه العرب، وكان يعمل تحت اسم خادم للدولة العثمانية ومنذ هذا الوقت بدأ الشريف صراعه مع عبد العزيز آل سعود.

ومن ثم الاشتراك مع العثمانيين للقضاء على ثورة الأدارسة في عسير.

الأتراك والعرب:

عين الحسين أميراً على مكة في وقت عصيب من تاريخ الدولة العثمانية فبعد عام واحد ١٩٠٩م تم خلع السلطان عبد الحميد، وتسلم حكم الدولة رجال الاتحاد والترقي والذين كُتب عنهم الكثير فهم أصحاب الحركة الطورانية (التتريك) وفي عهدهم تم تهميش اللغة العربية مقابل التركية، وظهر الخطر المحدق بالمبادئ الإسلامية التقليدية بسبب توجهات أعضاء الحركة، كل هذا وغيره أدى إلى تعذر التعاون بين الحسين والحكومة الجديدة. مع أن جذور الخلاف كانت تمتد إلى زمن أبعد من ذلك نتيجة تخلف الدولة العثمانية عن الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة وإهمالها لشؤون التعليم والصحة والتصنيع وإدخال طرق الزراعة الحديثة، إضافة للفساد الذي كان ينخر جسد الدولة وفقدانها للكثير من ممتلكاتها قبل ذلك بسنوات، هذا إلى جانب ما ذكر حول الطغيان الحميدي والذي أدى لاستياء العرب. مع ذلك فان العرب خلال عهد عبد الحميد الثاني (١٨٧٦- ١٩٠٩م) لعبوا دوراً بارزاً في شؤون الدولة العثمانية وتميزوا بكونهم كانوا موضع ثقة فيها. فعزة باشا الذي كان رئيساً للوزراء لثلاثة عشر عاماً في عهد السلطان عبد الحميد

كان عربياً، وتولى رفاقه العرب مناصب مهمة في الحكومة، مما يدل على حجم الثقة التي وضعت فيهم أيام السلطان عبد الحميد، وربما كان ذلك لأن السلطان كان يولي أهمية كبيرة لدوره كخليفة. وقد أنجزت في عهده مشاريع عامة كبيرة لصالح العرب والإسلام، حيث خُصص المال للجوامع والأعمال الخيرية، ثم كان انجاز المشروع العملاق لمد سكة حديد الحجاز إلى المدينة المنورة. ولكن وخلال السنوات الأولى من القرن العشرين وعندما تشكلت حركة (تركيا الفتاة) للقضاء على ضعف الإدارة العثمانية في المجال المحلي والدولي ومن أجل إعادة دستور مدحت باشا لعام ١٨٧٦م. عمل العرب معهم طالما أن مشكلة الطرفين الرئيسية هي النظام الموجود. وكان العرب يأملون باستعادة مكانة اللغة العربية. وكان السلطان عبد الحميد الثاني جعل اللغة التركية لغة رسمية في البلاد ومنع استخدام اللغة العربية في المحاكم والدوائر والمدارس العالية ودواوين الحكومة.

ثم كان إعلان دستور ١٩٠٨م والذي أحدث مشاهد من الفرح الانفعالي لدى العرب والأتراك، ورأى به البعض اقتراب نهضة العرب، وكان بالنسبة لبعض العرب نقطة تحول في صراعهم من أجل الاستقلال الذاتي، أو على الأقل يشكل نوعاً من المساواة بين رعايا الدولة. كان العرب مع أعضاء جمعية الاتحاد يشعرون بالفخر بداية لنجاحهم في القضاء على المشكلة القائمة، وإنهاء أو تغيير السلطة القائمة شبه الأوتوقراطية حيث كان هنالك شعوراً صادقاً بالإخوة داخل حدود الإمبراطورية. وكان العرب يفهمون هذه الأخوة على أنها الاشتراك مناصفة في الحكم ولكن كان هذا غير ما تتصوره تركيا الفتاة عن مستقبل الدولة. وبدأ العرب بالعودة من منافيهم الاختيارية في أوروبا وشكلوا جمعية الأخوة العربية العثمانية. وكان ذلك بمباركة من جمعية الاتحاد التركية.

ولكن تلاحق الأحداث بيّن بأن (تركيا الفتاة) قد تحولت نحو الاتجاه التركي

وليس العثماني. فقد بدأوا عملية التتريك بإيجاد مجلس نيابي على مقاسهم: (٢٤٥) نائباً منهم (١٥٠) مرشحاً تركياً و(٦٠) عربياً. كان عـدد السكان الأتـراك (٧,٥) مليون والعرب (١٠,٥) مليون.

وحصل الأمر نفسه في مجلس الشيوخ حيث أعطيت للعرب ثلاثة مقاعد مـن مجموع (٤٠) مقعداً.

وخلال تسعة أشهر تم حل (جمعية الأخوة العربيـة التركيـة) وجميـع المنظمـات غير التركية. وأغلقت المدارس العربية وفرضت اللغة التركية كلغة رسمية وحيدة في الدولة وأصبح الحديث عن الاستقلال العربـي غـير مشـروع. وتوالـت عمليـات التتريك واضطهاد العرب بمختلف الأسـاليب والوسـائل القمعيـة لا سـيما خـلال الحرب الأولى.

وبالعودة إلى الشريف الحسين نـرى أنـه خـدم خـلال السـنوات القليلـة مـن ولايته الدولة العثمانية بإخلاص، حيث قاد الحملات باسم السلطان. رغم أنه كان يخوض صراعاً عنيفاً من أجل التمكين لسيادته على الحجاز وبسـط نفـوذه الفعلـي على أنحائها مقاوماً بذلك وبشدة امتداد نفوذ الاتحاديين إليها. في نفس الوقت كـان يحاول أن يبقى مخلصاً للدولة العثمانية بل ويقاتل بالنيابة عنها، فقد دحر ابن سعود والإدريسي باسم الدولة العثمانية.

ولكن وبمضي الأيام كان الصراع يشتد بين الحسين وسلطة الدولة والأسباب متعددة أهمها محاولة الاتحاديين تقوية نفوذهم فيما تبقى من ولايات الدولة، وكانوا دائماً يبدأون من الحجاز لأهميته بنظر المسلمين جميعاً، وكان الحسين يـرى في ذلـك محاولة للنيل من سلطاته ونفوذه.

كما أنه حصل خلاف شديد بين الطرفين حول مد سكة الحديد من المدينة إلى

مكة. كان الحسين يعارض المشروع حتى لا تتقوى السلطة حال تنفيذه وقد أقنع البدو بمقاومة هذا المشروع لأنه يؤثر على مستقبلهم وأعمالهم وأعطياتهم.

بعد ذلك تطورت الأمور لاسيما بعد نشوب الحرب العالمية الأولى إلى أن قام الشريف الحسين بإعلان ثورة العرب على الدولة العثمانية، بعد مراسلاته الشهيرة مع اللورد (مكماهون) ممثل بريطانيا في مصر، والتي لعب بها المغفور له الملك عبد الله بن الحسين دوراً كبيراً، لاسيما مع المستر (ستورس) ممثل بريطانيا في مصر واللورد (كيتشنر) الذي كان في ذلك الوقت في بريطانيا وزيراً للحربية. ومنذ هذا التاريخ بدأ التفكير بإقامة مملكة عربية برعاية انكلترا، يحدها من الشمال نهرا دجلة والفرات وتضم الأماكن الإسلامية المقدسة وهي مكة والمدينة وكربلاء، وإن كان الانجليز يفكرون بإبقاء الحجاز بعيدة عن الحرب لأسباب غير خافية.

أخيراً تم الاتفاق على إعلان الثورة من مكة وبعد وعود قطعتها دول الحلفاء وعلى رأسها بريطانيا بمساندة الثورة ثم المساعدة بإقامة دول عربية مستقلة يكون الشريف الحسين بن علي ملكاً عليها. وكان ذلك بعد أن فقد الحسين أي أمل في التفاهم مع السلطة القائمة في اسطنبول، لاسيما بعد انكشاف مؤامرة وهيب باشا الوالي العثماني على الحجاز والتي تقضي بخلع الحسين عن مهامه كشريف لمكة وإنهاء وضع الحجاز الخاص، هذا إلى جانب وضع الخطط لاغتيال الحسين. كل ذلك ورد في رسائل متبادلة بين الوالي وهيب وسلطات اسطنبول.

وكان إعلان الثورة كما هو معلوم في العاشر من حزيران ١٩١٦ (٩ شعبان ١٢٤٣هـ).

ومن ذلك التاريخ بدأ القتال الفعلي بين جيوش الثورة العربية والقوات العثمانية المرابطة في المدينة وأنحاء من الحجاز. واستمرت المعارك بين كر وفر إلى أن انسحبت الجيوش العثمانية من الحجاز ثم من باقي بلاد الشام، حيث دخل الأمير

فيصل بجيوشه دمشق في الأول من تشرين الأول ١٩١٨م.

دمشق في الأول من تشرين الأول ١٩١٨م.

ولكن وإن كانت الثورة ضد العثمانيين قد انتهت برحيلهم عن البلاد العربية، إلا أن المعركة بقيت مستمرة مع الحلفاء وعلى رأسهم بريطانيا، بشأن (وعد بلفور) وتقسيم بلاد الشام، مما يعني خيانة الوعود التي قطعها الحلفاء للشريف وللسيوريين في القاهرة، وبدئهم بتنفيذ ما اتفقوا عليه من توزيع الغنائم فيما بينهم. وكان الشريف الحسين ملك الحجاز اعتبر الإعلان " أي وعد بلفور " بأنه انتهاك خطير لحقوق العرب الإقليمية كما حددت في ميثاق دمشق وأوضحت في المراسلات مع مكماهون، رغم أن المصطلحات الفنية التي استخدمها (بلفور) تشبه من حيث غموضها مصطلحات (مكماهون). وأبرق الحسين إلى أحد المسؤولين الانكليز طالباً التوضيح. وعلى أثر ذلك قام مندوب بريطاني (هوغارت) برحلة إلى جدة والتقى الحسين وأكد له أنه «سيسمح بالاستيطان اليهودي في فلسطين فقط في حالة انسجامه مع الحرية السياسية والاقتصادية للسكان العرب» وقد ناقش الحسين مع المبعوث البريطاني موضوع الاستيطان اليهودي في فلسطين، وأبدى استعداده للنظر في ذلك بل وحتى تشجيعه ضمن حدود معينة، وقال انه لا يمكن أن يقدم أية تنازلات بخصوص السيادة. كما أبلغ السير (مارك سايكس) السنة الماضية.

ويتضح ذلك من خلال المذكرة التي كتبها هو غارت في ١٨ كانون الثاني ١٩١٨م والذي قال «إن الملك لا يوافق على إنشاء دولة يهودية مستقلة في فلسطين. ولم أخول أن أحذره بان هذه الدولة مدعمة من بريطانيا العظمى». وهكذا يتمسك الحسين بموقفه بشدة على أساس مطالب القوميين العرب السابقة

للحرب. إلا أن خطأه القاتل كان يتمثل باطمئنانه إلى الضمانات الشفوية والحقائق الجزئية.

هذا وقد تصرف الحسين بموجب التأكيدات التي أعطيت له. وأبلغ القوميين العرب من خلال وكلائه في القاهرة والعقبة وعبر صحيفة مكة «القبلة» بأنه قد استلم تعهدات مفادها أن السيادة العربية في مأمن وأنه يجب تقديم الضيافة العربية إلى المستوطنين اليهود في فلسطين. وقد غير الحسين موقفه بعد انتهاء الحرب وبعد أن كشف الصهاينة عن نواياهم الحقيقية.

وعندما تأزمت الأمور حول (وعد بلفور)، كشفت الحكومة السوفييتية وفي نفس الشهر عن مضمون اتفاقية سايكس بيكو وقد أنكر (بلفور) الذي ذهل بالأمر هذا الإفشاء وقال «إنه شيء ملفق ابتدعه الخيال البلشغي الماكر».

بداية تنفيذ المؤامرة:

بعد انتهاء الحرب في ١٩١٨م كانت قوات الحلفاء والقوات العربية تنتشر على الشكل التالي:

- احتلت مملكة الحجاز أرض الولاية التركية السابقة التي تحمل نفس الاسم مضافاً إليها لسان صغير في الجنوب على امتداد البحر الأحمر حتى القنفذة والذي كان سابقاً يقطع سنجق عسير، وقد أصبح الآن تحت سيطرة الهاشميين.

وخضعت المنطقة الشمالية للسيطرة العسكرية باسم (أراضي العدو المحتلة) «أي العثمانيون» وقسمت بالشكل التالي:

أ. الإدارة الشمالية لأراضي العدو المحتلة: وهي منطلقة المصالح الفرنسية وتقع على امتداد الساحل السوري شمال صور.

ب. الإدارة الشرقية لأراضي العدو المحتلة: وهي المنطقة العربية شرق خط

مكماهون (حمص - حماة - حلب - دمشق) وتمتد من جهة شرق الأردن نحو الجنوب حتى حدود الحجاز غرب معان.

ويدار هذا الجزء والذي أصبح يسمى فيما بعد بشرق الأردن من خلال فلسطين.

ج. الإدارة الجنوبية لأراضي العدو المحتلة: فلسطين وسيناء التركية التي ضمت إلى مصر ولكن بقيت تحت السيادة التركية بعد عام ١٩٠٦ وقد ضُمت نهائياً إلى مصر بعد جلاء الأتراك.

كانت السلطة في جميع أراضي العدو المحتلة بما في ذلك المناطق الشمالية مناطه بحاكم عسكري تسانده قوات من جيش الحملة المصرية، ورغم أن النفوذين الفرنسي والعربي هما المهيمنان ظاهرياً إلا أن اللنبي والقوات البريطانية هما السلطة الحقيقية. وإلى الشرق من العراق أقيم نظام حكم من الهند لإدارة المناطق التي تحتلها بريطانيا. وتم تداول العملة الهندية.

أما في فلسطين والتي احتلها الانجليز خلال الحرب فتدار من قبلهم إلى حين تسليمها إلى الحلفاء العرب. وقد أصدر الملك فيصل أمراً بخصوص الإدارة، حيث يجب أن يعين الحاكم العام للأراضي العربية المحررة من قبل الملك الحسين وأن يؤسس مجلس ولاية متكون من (١٥) فرداً.

وكانت القرارات المتخذة إزاء سوريا تشمل سوريا الكبرى وكان الانجليز يسيطرون على المناطق العربية الشمالية، وقد تم إبلاغهم بأن الحسين غير مستعد للتخلي عن السيادة على هذه المنطقة الساحلية.

أما في لندن وباريس فكانت وجهات النظر مختلفة إلى حد ما فقد أعطى الحلفاء للصهاينة الوعود بشكل مشترك رغم أنها لم تصل أبداً إلى حالة معاهدة

ملزمة بل أعطوا وعداً باعتبار فلسطين وطن قـومي لليهـود واعتبـار منطقـة شـرق الأردن ملجأ لإيواء اللاجئين العرب، ووضعت فرنسا العين على سوريا والانجليـز على حقول النفط في الموصل التي كانت ضمن المجال الفرنسـي في اتفاقيـة سـايكس بيكو.

ثم كان (مؤتمر فرساي) والذي عقد بعد انتهاء الحـرب الأولى، والغريـب أن فرنسا لم تخصص أي مقعد للعرب في هذا المؤتمر، غير أن (لورنس) نجـح في انتـزاع مقعدين لهم. وكان الملك فيصل هو ممثل العرب في المؤتمر، وكانت تعليمات والـده الشريف الحسين واضحة للغاية بضـرورة الالتـزام بـالوعود الـتي قطعتهـا بريطانيـا بخصوص الاستقلال العربي ولا شيء آخر يجعلها موضع شك، إذ لم يعط نهائياً أية حرية في العمل مهما كانت في المفاوضات، ولكن فيصل كان يتلقـى أيضـاً المشـورة من لورنس الذي كان همه الأول إحباط الفرنسيين، إذ كـان الصـراع قـد بـدأ بـين الحليفين لاقتسام الغنائم.والحقيقة أن القضية العربيـة حشـرت في هـذا المـؤتمر بـين مطالب المنفعة المستندة إلى النفط والإستراتيجية والحقـوق الـتي ترقـى إلى الأطمـاع الصليبية.

والأمور انتهت بعد ذلك وكما هو معلوم للجميع علـى اقتسـام بـلاد الشـام والعراق بين الانجليز والفرنسيين. الأمر الذي أثار الحسين وولد في نفسه الحقد على من وثق بهم في الأمس وأعطاهم إذناً صاغية.

الشريف حسين ملكاً:

بعد الانفصال عن الأتراك في اثر إعلان الثورة عام ١٩١٦م أصبح واجباً على الهاشميين أن يقرروا نـوع السـلطة الـتي سـتحل محـل الدولـة العثمانيـة في المنـاطق المحررة، إذ أصبح الحجاز باستثناء المدينة المنورة منطقة محـررة بالكامـل، مـع وجـود فراغ سياسي لأن سلطة الشريف محصورة تقليدياً على البدو وشؤون الحج.

جاءت الخطوة الأولى في ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٦م عندما أعلن في رسالة موجهة من الحسين إلى الشيخ عبد الله السرّاج بأنه سيتم تشكيل مجلس للوزراء يضم الأمير عبد الله وزيراً للخارجية والأمير علي رئيساً للوزراء والسرّاج نائباً له. وسيضم المجلس عراقيين وفلسطينيين وأتراك ومصريين، وأعطيت وزارة المالية إلى التاجر الحضرمي عبد الرحمن بنجا. وسيشرف على إدارة الحكومة الجديدة هيئة مؤلفة من علماء المذاهب الإسلامية الشافعي والمالكي. وكان الحسين هو الحاكم المطلق ويتلقى الوزراء أوامرهم منه في كل الشؤون.

وفي الشهر التالي تم تعديل الوضع الشاذ لمنصب الحسين، حيث لا يزال فنياً مجرد أمير عينه الأتراك وبالتالي موظفاً لدى السلطات المعادية. ويشير الملك عبد الله في مذكراته إلى أنه أخذ تلك المسؤولية على عاتقة وتصدى لرفض والده بأن يصبح ملكاً.

وفي ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) أعلن الحسين نفسه ملكاً على البلاد العربية في احتفال جرى في الحرم الكبير بمكة. تلقى خلاله البيعة التقليدية بالولاء من قبل أهالي المدن ورجال القبائل. وقد سجلت صحيفة القبلة أحداث هذا اليوم بقولها: «إن هذا اليوم هو عيد كبير للعرب الذين نجحوا في استعادة مكانتهم السابقة واستقلالهم العريق، ولا كبير إلا الله ولا راية إلا للراية العربية».

وقد لخص الحسين الوضع الجديد بقوله: «لقد أنار عملنا هذا الدرب أمام أبناء بلدنا من مسلمين ومسيحيين. سنتبع في سياستنا الداخلية خطى أسلافنا، وفي الوقت نفسه نستلم الأفكار من المؤسسات الأوربية، إن ديننا وتقاليدنا لا تمنعنا من الاستفادة من خدمات أخواننا غير المسلمين الذين يتمتعون بحقوق متساوية معنا في حكومتنا الجديدة».

وصلت أنباء اتخاذ الحسين للقبه الجديد إلى الحلفاء الذين تحفظوا في بادئ

الأمر خوفاً من حصول سوء فهم ونـزاع مـع بقيـة الحكـام العـرب خاصـة الـذين تربطهم مـع بريطانيـا معاهـدات كعسـير ونجـد. لهـذا رأوا أنـه مـن غـير المناسـب الاعتراف بلقب الحسين الجديد. ولم يعترف سوى روسـيا بلقـب الحسـين الجديـد. ولكن في ٣ كانون الثاني (يناير) ١٩١٧م اعترفت بريطانيا وفرنسا وايطاليا بالحسين ملكاً على الحجاز.

وقد حلت الشريعة الإسلامية محل القانون التركي بعد إعلان الاستقلال.

واستبدل العلم العثماني ذو الألـوان الأحمـر والأبـيض بـالعلم الشـريفي ذي الألوان الأسود والأبيض والأخضر والأحمر. وفي الوقـت نفسـه صـمم (سـتورز) طوابع بريدية تعلن الوضع المستقل للحجاز في أنحاء العالم الإسلامي.

الحجاز ١٩١٩ -١٩٢٤م

بعد انتهاء الحرب توترت علاقات الحسين مع بريطانيا حول فلسطين ومع فرنسا حول سوريا ومع الهند حول الحجاز، إضافة إلى الصراع مع جاره عبد العزيز آل سعود، ومع مصر حول مطالب الملك فؤاد، إضافة لتوتر علاقاته مع بعض أبنائه بسبب أدائهم في الأحداث والقضايا التي تولوا أمورها لاسيما قضايا المفاوضات والاتفاقات مع دول الحلفاء.

أما في الداخل فقد ساء الوضع لاسيما الاقتصادي، والذي كان يعتمد على الحج بشكل كلي تقريباً. فقد كان الحجاج يتعرضون للسلب في مواسمه وبشكل غير مسبوق، إضافة إلى ما كان يجري من محاكمات صورية أرعبت الناس. هذا إلى جانب الضرائب المتنوعه التي كانت تفرضها السلطة على السكان والحجاج مثل ضريبة الأمتعة عند الدخول والخروج، وضريبة مقدارها ٢٠٪ من رسوم النقل بالجمال، أما الرسوم الجمركية في جميع الأماكن فتبلغ بين ٦٠ و٦٦٪ من قيمة البيع بالتجزئة.

هذا إضافة لما يؤخذ من أرباح نظير تبادل العملات مع ذهب الحجاج والذي يقدر ٣٠٪ ولم توفر الحكومة للمستفيدين من أعمال الحج خاصة أدلاء الحج (المطوفين) والذين ألقوا العبء بدورهم على الحجاج. وبين عام ١٩١٤ و١٩٢١م ارتفع ثمن رحلة الذهاب والإياب بين جدة ومكة، فبعد أن كانت أربعة جنيهات إسترلينية حيث كانت الدولة تحتكر الجمال، أصبحت رحلة الذهاب والإياب إلى المدينة المنورة تكلف (٢٦) ليرة من الذهب، وبضمنها ضريبة الحكومة الحجازية، كما كان الحجاج يتعرضون للحجر الصحي الإجباري في جزيرة سعد على طريق

جدة، وتحت ظروف قاسية. وكان الاهتمام بكل شيء عدا الصحة، وكـان الحجـاج يدفعون المال مقابل الدخول والخروج من المحجر الصحي، كما كان حال أنحاء شـبه الجزيرة العربية دائماً فان سلطة الدولة كانت تقتصر على المدن المعروفـة، أمـا بقيـة المناطق فكانت مسارح للبدو وقطاع الطرق يفعلـون بهـا مـا يحلـو لهـم، وفي حـال وجود دولة قوية وغنية كان هؤلاء البدو يشترون بالمـال نظـير خضـوعهم المؤقـت. والحقيقة أن الحسين انقطعت معظم موارده المالية وأصبح يتدبر أمور دولته بما تحـت يديه وهي ولا شك أموال قليلة لا يستطيع أن يدير بها شـؤون مسـاحات شاسـعة من الأرض، خاصة وأن هـؤلاء البـدو كـانوا قـد اعتـادوا علـى إعطيـات الدولـة العثمانية لشراء سكوتهم وخضوعهم. ومما زاد الطين بلة السلاح الوفير الذي تـوفر بيد البدو أثناء الثورة، واكتسابهم لمهارات جديدة مكنتهم من السـطو علـى قوافـل الحجاج بشكل أسهل وسلب ما يملكون، وكانت بعض تلك القبائل تفرض رسـوم مرور على قوافـل الحجـاج. ومـع نقـص المـوارد الماليـة للحكومـة الحجازيـة فقـد اضطرت لفرض ضرائب ثقيلة على الكسبة وتجار الحجاز. كما احتكرت الحكومـة تجارة الجمال والأغنام والخبز وبقية السلع الأساسية. وفي عـام ١٩٢١م أعلـن عـن برنامج لتوسيع شوارع مكة، وقد أجبر السكان على دفع المبالغ لهـدم وإعـادة بنـاء بيوتهم العائدة لهم، أما التجارة فأصبحت نشاط شبه معدوم. لذلك فليس غريباً أن نرى الحجاز في مثل هذه الظروف وقد أصبح مرتعاً للغرباء من المحتالين والـدجالين والباحثين عن نفوذ وهمي مثل حبيب لطف الله الذي استطاع بمبلـغ (١٠٠,٠٠٠) جنيه أن يصبح أميراً وسفيراً في روما ومستشاراً مع حقه تعميم زيه الخاص وإصدار جوازات السفر الخاصة به.

ولإخضاع البدو منعت الحكومة الحجازية تصدير القمـح والتمـر إلى المنـاطق البدوية مما زاد الأمر سوءاً ودفع البـدو إلى المزيـد مـن أعمـال الإرهـاب والسـطو.

ولأجل السيطرة على القبائل فقد لجأ مسؤولوا الحكومة الحجازية إلى سياسة فرق تسد لاسيما في مجال حقوق النقل، والذي انتقل من قبيلة إلى أخرى وهذا ما جعل الأمر أكثر سوءاً، وازدادت القبائل تمرداً وشراسة بسبب سلب حقوقها ومصادر رزقها، والغريب أن الحسين أدخل عل شعب الحجاز ضرائب كان هو نفسه قد عارضها عندما أدخلها الأتراك. هذا وقد ازدادت خسائر البدو بعد مد سكة حديد الحجاز، ذلك أنهم فقدوا مواردهم التي كانوا يتحصلون عليها من تجارة القوافل. كان السكان يدركون أن أشياء كثيرة يجب أن تتغير ولكنهم كانوا مستسلمين للأمر الواقع خوفاً من التدخل البريطاني. والحقيقة أن الحسين كان هو الرجل الأول وصاحب القرار الأوحد في مملكته الحجازية فكما يقول حافظ وهبة: الحسين هو الحكم الأعلى في القضايا الصغيرة والكبيرة، أما الوزراء وأعضاء البرلمان فهم مجرد دمى وليس هناك نظام لتقسيم العمل والمسؤولية، والمشكلة الصغيرة تذهب في رحلة طويلة من وزارة إلى أخرى حتى تصل الحسين نفسه وتُحل. وقد وصف نائب القنصل البريطاني (كرافتي سميث) نظرة الملك الموسوعية للحكومة الفردية في عام ١٩٢٢م بالكلمات التالية: إنه ينتقد الإجراءات الحربية (لغوش وهايج) وينظم الإجراءات الصحية الصغيرة في مكة ويحرر صحيفة القبلة، فهو يعتقد بأنه وحده الجدير بمثل هذه الأعمال.

والصراحة أن الحسين قد حظي باحترام سريع ودائم بفعل أخلاقه العالية ووقاره الهادئ، وقد عرفه كل من اتصل به من الأجانب بأنه عنيد في مواقفه وذو قوة لا حدود لها.

كان الحسين يمتلك القدرة على كبح جماح عواطفه أو على الأقل يتمكن من تسكينها، ومن جانب آخر كان يمتلك القدرة على ممارسة العنف الناشئ عن الانفعال، وقد مر جميع المعتمدين البريطانيين بهذه المحنة في محاولة لاكتشاف سر

شخصية الحسين، فبعضهم يخافها وآخرون تعلموا التعايش معها وامتلكوا الأسلوب الحجازي في الممكن، وكان الحسين أثناء فترة حكمه لمكة شريفاً أو بعد أن أصبح ملكاً يكثر التجوال ليلاً بين الناس للنظر في أحوالهم واتخاذ ما يلزم بعد ذلك من إجراءات.

في آذار ١٩٢٤م تطورت الأمور بشكل غير عادي بالنسبة للحسين وذلك عندما قام بزيارة إلى شرقي الأردن وعسكر في وادي الأردن وشرع في إمساك زمام الحكم وتوجيه نفقات موارد الأعمال العامة. هذا الأمر أثار الرعب لدى الفرنسيين الذين لا يشعرون بالراحة من احتمال وجود الحسين في شرقي الأردن لأن ذلك يعرض السلام الهش في سوريا إلى الخطر. كذلك فان وجود الحسين في الأردن لم يكن ليرضي البريطانيين فالفرنسيون والانجليز كانوا يسعون لتأسيس نظام انتداب سلمي وغير مكلف إلى حد ما، وربما كانوا يشعرون بأن وجود الحسين لا يحقق لهما هذا الهدف. ولكن الأمور تبدلت فجأة في المنطقة بعد أن أعلن مصطفى كمال أتاتورك إلغاء الخلافة الإسلامية في ٣ آذار ١٩٢٤م. فقد تلا ذلك نشاط كبير في عمان حين سعى عبد الله بن الحسين لتلقي الدعم لإعلان والده خليفة للمسلمين، والحقيقة أن موقف الحسين تجاه الخلافة بقي من أكثر المواقف غموضاً وإثارة للجدل في شخصيته منذ أن تم طرح الفكرة لأول مرة عام ١٩١٤م. كتبت جريدة القبلة في ٤ كانون الثاني ١٩٢٣م «إن الخلافة كانت ولا تزال مجرد اسم وكلمة خالية من أي معنى حقيقي».

وكان الحسين من الذكاء بحيث يقدر أن مطالبته بهذا اللقب في الوقت الذي لا تزال فيه الخلافة بأيدي الأتراك سيقنع أعداءه أن الثورة مجرد جزء من طموحاته الشخصية الواسعة. ولكن بعد أن ألغيت الخلافة تبدل الحال وأصبح القبول بهذا اللقب من قبل الحسين أمراً لا غبار عليه، وأن العمل يجب أن يكون سريعاً لتحقيق

هذا الهدف وقبل أن تضيع الفرصة. وكان الملك عبد الله متحمساً للفكـرة إلى أبعـد الحدود، لأن الفوز بهذا اللقب سيعزز موقع والده وسيعزز السـيادة الهاشمية عـل العرب والعالم الإسلامي، وكذلك موقعـه كملـك للعـرب، وإذا لم تتحقـق فانـه لا يتوقع أية خسارة حقيقية له. لذلك عمل عبد الله جهده وأرسـل الرسـائل لمختلـف أنحاء العالم الإسلامي. ولكن كان للقوى الكبرى وهم الحلفاء المنتصرون في الحرب الأخيرة آراء أخرى تتفق ومخططاتهم ومصالحهم.

وفي عام ١٩٢٤م عاد الحسين مـرة أخـرى إلى مكـة حيـث بـدأ الصـراع مـع الوهابين وآل سعود وخاض الجانبان معارك عنيفة لعبت بريطانيا أثناءها دوراً مهماً في تأجيج الصراع ومساندة الطـرفين. وبعـد أحـداث كـثيرة جـرت علـى السـاحة أرهقت السكان عَقد مؤتمر لأهالي جدة لاتخاذ قرار حول سـير الأحـداث، وكـانوا يودون الحفاظ على اسـتقلال الحجـاز لأنهـم كـانوا يخشـون أن يقضـي الاحـتلال النجدي على تجارة الحج، ومن جانـب آخـر لا يتوقـع أن يحـدث أي تحسـن علـى علاقة الحسين مع عبد العزيز خاصة بعد أن أصبح واضحاً بأن بريطانيـا قـد تخلـت عن الحسين فالملك يجب أن يرحل. وكانت مقترحات مؤتمر أهالي جدة:

١) تنازل الحسين عن العرش.

٢) إعادة تسمية الحكومة بالحكومة الحجازية وليست العربية.

٣) يصبح الأمير علي هو الرئيس الدستوري للدولة.

٤) يتم وضع دستور في وقت لاحق.

وقد تم اختيار الأمير علي لإبلاغ الملك بهذه القرارات والذي وافـق شـريطة أن يبرق المجلس المخول إلى والده بذلك. وهو ما فعلوه في ٣ تشرين الأول (أكتوبر) ووقع جميع الأعضاء الـ ١٤٠ على البرقية والتي كانت تنص على:

«بما أن كل الشعب الحجازي يواجه فوضى عامة بعد انهيار الجيش وعجز الحكومة عن إنقاذ الأرواح والممتلكات أو تفادي الكارثة العامة التي تواجه الحرمين والبلاد وأهمية الأرض المقدسة إلى جميع المسلمين، فقد قرر شعب الحجاز تنازلكم عن العرش وتعيين علي ملكاً على الحجاز، وسوف يعزز سلطته دستور ومجلسان وطنيان لذا فإننا نطلب منكم الإذعان لرغباتنا لأنه بفعلك هذا ستضيف أفضالاً أكثر لخدماتك إلى الإسلام والشعب».

وربما كانت هذه من أقوى الضربات التي وجهت لسلطة الحسين. وقد كلم الأمير علي طالباً منه توضيح الأمر أو هذه المؤامرة. وبناء على المكالمة قام علي بما يعتبر أكثر الرحلات المشوبة بالقلق في حياته حيث غادر جدة إلى مكة لمقابلة والده. وقال علي إن همه الرئيس هو سلامة الملك. وبعد فترة قصيرة وعندما أتعب الحسين نفسه جلس في ديوانه وكانت الدهشة الكبرى لعلي أن الملك وافق على التنازل عن العرش، ولكن ليس لصالح علي بل جلس الاثنان معاً لإعداد قائمة البدلاء المحتملين وهم الشريف ناصر شقيق الحسين وخديوى مصر السابق عباس حلمي. ولكن أمام إلحاح الكثيرين وافق الحسين على التنازل لابنه علي، وكان لطاهر الدباغ من وزارة المالية وهو رجل شريف وزعيم موثوق من حركة الإصلاح الأثر الأكبر في اختيار علي.

في ٣ تشرين الأول (أكتوبر) أمسك الحسين بقلمه وكانت الساعة التاسعة مساء وكتب «لقد قبلنا عرض التنازل عن العرش لأننا نهتم فقط في خير بلدنا، نحن نطلب منكم أن تتركوا شعبكم ليتولى الأمر بهدوء. وإذا ما حدث أي شيء فأنتم الآن المسؤولين إضافة إلى ذلك فإذا ما وافق علي فعينوه فوراً. ويقال بأنها المرة الأولى وربما الأخيرة التي قبل بها الحسين مشورة الآخرين. وقد كتب إلى عبد الملك الوكيل الهاشمي في مصر أن أصدقاءك (البريطانيين) غير راضين عنا بالاستمرار

كملك ويودون تعيين ولدنا علي اقبل أية تعليمات تستلمها منه».

وهكذا أعلن علي ملكاً على الحجاز وسط احتفال تتويج بسيط في ٤ تشرين الأول (أكتوبر) في جدة. يصف هوغارت علياً «بأنه كان قصيراً ونحيفاً ويبدو الآن أكبر قليلاً، منحني الظهر قليلاً لون بشرته شاحب وعيونه بنية عميقة كبيرة وطباعه بسيطة وهو ذو ضمير حي ورجل دمث دون قوة في الشخصية وعصبي ومتبرم إلى حد ما». «إن ضعفه الجسدي جعله خاضعاً لنوبات سريعة من الانفعالات المستثارة مع مزاج دائم للعناد الشديد، وهو غير طموح لنفسه ولكن يتغير إلى حد ما بسهولة وفق رغبات الآخرين بعكس والده، وهو ميال للمطالعة وله إطلاع في الدين والقانون».

أما المشكلة التي استجدت ولم يتنبأ بها أحد فهي أن الحسين قد يستقيل ولكنه لم يبدي أية إمارة لترك الحجاز. فقد جلس في مكة حتى أبرق إليه شجاع الدباغ قائلاً: «شكراً لله فقد حصل هذا اليوم تتويج ولدكم لذلك فإننا نتوقع من جلالتكم المغادرة مع احترامنا الكبير».

وقد وافق الحسين على الذهاب. وكان (بولارد) قد أسّر «إلى حسين أن يغادر فعلا فإن علي سيستمر صفراً وسوف لن يبدأ بأي عمل جدي». وبعد خمسة أيام من العمل في رزم حاجيات الحسين الحياتية وأشياءه الثمينة حملت بالسيارات القليلة الموجودة لديه واتجه بها كلها إلى جدة. وكانت الباخرة (الرحمتان) في انتظار الحسين في ميناء جدة. وأخذ الخدم ينقلون إليها صفائح البترول المليئة بالذهب، وهو مجموع ما ورثه الحسين من عائدات الحج عدة قرون، وما وفره من الستة ملايين ليرة ذهبية التي دفعت للهاشميين أيام الحرب من بريطانيا وما جمعه الحسين من خزينة الدولة في السنوات التي حكم فيها الحجاز. واتجهت الباخرة نحو العقبة. وكان ذلك بعد ثماني سنوات من إعلانه ملكاً على العرب. وكانت العقبة في ذلك

الوقت مدينة تتنازعها المطامع والمنافسات. وكان ذلك بين شرقي الأردن وابن سعود والملك علي. لذلك فان وضع الملك في هذه المدينة كان غريباً بعض الشيء، وبعد بضعة أشهر ضُمت العقبة إلى شرقي الأردن وطُلب من الحسين مغادرتها. وبعث الأسطول البريطاني الطراد (دلهي) الذي نقل الحسين إلى جزيرة قبرص. حيث أقام الحسين في فيلا صغيرة في نيقوسيا، ترعاه زوجته وبعض الخدم، ونجله الوفي الأمير زيد الذي كان يقطع الأيام ليقرأ لوالده بعض تفاسير القرآن الكريم وشروحه وعاشت مع الحسين في قبرص مهرتان عربيتان أصيلتان، كان يقضي الساعات الطوال في مشاهدتهما وملاطفتهما ورؤية إحداهما (زهرة) وهي تأكل التمر وترمي النوى في وعاء من الصفيح.

ولم يتعرف الحسين على أي من أهل قبرص، وكان دائماً يعاني من غُش تجارها وخداعهم، وظل ستورس الذي أصبح حاكماً للجزيرة صديقه الوحيد. وكان دائماً يشكو لأنجاله حيث يزورونه سوء المعاملة وقلة المال.

وفي عام ١٩٣٠ أصابته نوبة وطار ولداه عبد الله وفيصل إلى قبرص ليكونا إلى جانبه، فوجداه ينهار بسرعة. وأخيراً تم نقله إلى بيروت ومنها إلى عمان وفيها انتقل إلى رحمة الله في قصر ولده عبد الله في الرابع من حزيران عام ١٩٣١م. ودفن رحمه الله إلى جانب السور الغربي من الحرم الشريف في القدس. أما بالعودة إلى الحجاز فإننا نرى أنه بعد مغادرة الحسين بدأ تأسيس أول حكومة ديمقراطية دستورية، رغم أن الوقت لم يسمح لا لتكوين دستور ولا انتخابات.

وضم مجلس الوزراء كل من: -

- الشيخ عبد الله السراج- رئيس وزراء (مفتي مكة).
- طاهر الدباغ- وزير مالية.

- محمد الطويل- وزير الضرائب.
- الشريف محسن بن منصور- وزير الداخلية.
- فؤاد الخطيب- وزير الخارجية.
- تحسين باشا الفقير- وزير دفاع.
- عبد القادر الغزاوي- وزير مواصلات.
- الدكتور الخطيب- وزيراً للصحة.

وقد تم تحديد الأهداف الحالية بالشكل التالي: -

١- التفاوض مع ابن سعود لتحقيق المصالحة

٢- الاتصال بالعالم الإسلامي للحصول على الاعتراف والتوسط في الأزمة.

٣- تقوية الجيش والسعي للحصول على تعزيزات من شرقي الأردن والعراق.

٤- توقيع معاهدة مع بريطانيا.

وكان للنقطة الأخيرة الأولوية الأكبر لأسباب تتعلق بوضع البلاد والصراع مع آل سعود. ولكن بريطانيا تماطل للحيلولة دون توقيع المعاهدة.

والحقيقة أن الأمور في البلاد كانت تسير بشكل يوحي بأن السعوديين قادمون وأن مستقبل الحكم في الحجاز سيكون بأيديهم وبعد مفاوضات ومنازلات تمكن الوهابيون من السيطرة على مكة المكرمة والتي دخلها عبد العزيز يوم ٥ كانون الأول (ديسمبر) حيث في اليوم السادس منه اجتمع الناس لتقديم ولائهم للسلطان. وأصبح نجل عبد العزيز فيصل والياً على الحجاز وأصبح حافظ وهبة حاكماً لمكة والشريف حمزة أميراً للبدو. ولم يسمِ أو يعين شريفاً بديلاً لمكة. رغم أن إشاعة انتشرت أن المنصب سوف يعرض على (علي حيدر).

وفي جدة التي كان يوجد بها الملك علي، حاول الملك قدر استطاعته الـدفاع عن مملكته بما تبقى من جيشه ولكن الأمور كانت تسير عكس ما كـان يريـد الملـك وأنصاره، الملك كان يقيم في جدة وكان يعقد مجلسه الأسبوعي أيام الجمـع. ولكـن في هذا الوقت كانت المدينة محاصرة والوضـع ميـؤوس منـه ولـيس هنـاك أي أمـل بتغيير الأوضاع وفي ٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٤م قبل الأمير ناصر بن سـعود والشيخ عبد الله بن فاضل الاستسلام. واحتل الوهابيون بسرعة قلعة صلاح الدين ودخل الأمير محمد ممثل ابن سعود المدينة المنورة في السادس من الشهر حيـث أمـر بتوزيع ١٠٠٠ كيس من الطحـين علـى سـكان المدينـة فقضـت هـذه الكميـة مـن الطحين على أزمة الغذاء وأكسبت الأمير محمد شكر السكان أما مملكة الحجاز فقـد بقيت مقتصرة على مدينـة جـدة. والـتي ضـاق سـكانها ذرعـاً بطبيعـة الحيـاة الـتي يعيشونها، وما أن وصلت أنباء استسلام المدينة المنورة حتى سببت ذعراً في أوسـاط الحكومة والجند وأخذ كبار الأنصار يخططون للرحيل، فقد حزم رئيس الوزراء عبد الله السراج وفؤاد الخطيب: حزموا حقـائبهم إلى مصـر، ظاهريـاً "مـن أجـل تـأمين المساعدة" ولكنها في الحقيقة الهـروب والنجـاة بالحيـاة. وكـان هنالـك الخـوف مـن التمرد وتفاقم الأمور في المدينة. لذلك قام علي باستشارة أخيه فيصل في بغداد لأن مستشاريه الخاصين قد غادروا.

أبلغه فيصل أن يأتي إلى العراق لحين حل قضية الحجاز. وقد وافق علي آخـر الأمر وأعلن قراره التنازل عن العرش إلى وزرائه الباقين والذين سـاورهم الخـوف وقد دُفعوا الآن إلى الخط الأمامي لذلك الحوا على الملك بالبقـاء أو تهيئـة شـروط الاستسلام إذا أراد الرحيل وهذا هو واجب الملك. وقد وافق على ذلك.

وفي يوم الثلاثاء ١٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٥م اتصل علـي (بجـوردن) المعتمد البريطاني الذي وافق على ترتيب الاستسلام حتى تصل الموافقة من لنـدن.

هذا وقد وضع علي خمسة شروط للاستسلام هي:

١- العفو العام لجميع من خدم في الحكومة الحجازية عسكريين ومدنيين.

٢- إخلاء جميع الجنود والضباط الذين أتوا من البلاد العربية مع صرف نفقات سفرهم (٥٠٠٠) باوند لتوزيعه عليهم.

٣- أن يستعيد جميع الموظفين الحكوميين وظائفهم.

٤- تسري هذه الشروط على الصامدين في ينبع.

٥- الحفاظ على ممتلكات الأسرة الهاشمية في الحجاز.

وفي مقابلة بين الملك عبد العزيز وجوردن الأسترالي الأصل وافق عبد العزيز على هذه الطلباتـ لا بل عرض بإرجاع علي كشريف أمير. وعندما عاد جوردن إلى الملك علي في جدة وأبلغه بالاتفاق استراح الملك ونام لأول مرة منذ عدة أيام.

وفي الصباح التالي وصلت سفينة صاحب الجلالة (كورن فلاور) لجمع الأمتعة الملكية ونقله إلى المنفى في العراق. هذا وقد ألقى الملك علي قبل مغادرته خطاباً وداعياً قصيراً على المتجمعين في الميناء وسلم هذه التركة الثقيلة من السلطة إلى حكومة مؤقته بقيادة الشيخ عبد الله علي رضا، القائمقام، ثم صافح بعد ذلك وودع القناصل الأجانب، ثم دخل إلى قارب صغير نقله إلى السفينة (كورن فلاور) ثم أبحر بعد ذلك إلى عدن والبصرة. منهياً بذلك (١١٠٠) سنة من الإمارة الشريفية الهاشمية على مكة وحياة تسع سنوات ونصف لمملكة الحجاز و(١١) شهراً من الشقاء لآخر ملوكها.

وعاش علي بقية أيامه في حماية أخيه فيصل ملك العراق وقد قضى هذه السنوات مغمور الذكر يكتنفه النسيان، إلا عندما يلمع اسمه بصورة مؤقته فينوب

عن أخيه في حكم العراق عند سفره إلى الخارج. وندر أن قام بزيارة والده الشيخ في قبرص.

وكان علي يحب فيصل حباً جما. وأصبح كبير العائلة بعد وفاة أبيه مما جعل له بعض الحقوق من الإجلال بموجب العرف العائلي العربي. وقد خلّف علي ولداً اسماه عبد الإله وبنتاً هي عالية زوجة الملك غازي بن فيصل.

وتوفي عام ١٩٣٥م ودفن في بغداد رحمه الله.

العرب في برلين النازية ماذا كانوا يفعلون؟

في ثلاثينيات القرن الماضي كان العالم ينقسم إلى معسكرين كما كان الحال في منتصف ذلك القرن وما بعده. إذ كان هناك معسكر ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشستية من ناحية، ومعسكر الحلفاء بريطانيا وفرنسا وبقية دول أوروبا من الناحية الأخرى.

وكان الوطن العربي في تلك الفترة يُحكم أو يُحتل من قبل المعسكر الثاني، بريطانيا، وفرنسا، وعندما بدأت تتوتر الأحداث بين المعسكرين وأصبح العالم على أبواب الحرب العالمية الثانية، ثم نشوب هذه الحرب فعلاً، كان من الطبيعي أن ينضم قسم كبير من العرب في ذلك الوقت لاسيما المعارضون للحكومات والأنظمة التي كانت موالية للحلفاء إلى تأييد هتلر ومحاولة الاستنجاد به للتحرر من حكم القوى الاستعمارية، وكان حكام ألمانيا النازية يعدون العرب بالتحرر والاستقلال والسيادة في حال تحقيق الانتصار لذلك فلا غرابة أن نجد مجموعة من الشخصيات العربية تتوجه إلى برلين النازية لمحاولة التفاهم مع النظام هناك حول مستقبل العرب في حال انتصار دول المحور. وكأن العرب لم يجربوا وعود الحلفاء من قبل وخيانتهم للعهود. إلا أن العرب آنذاك كانوا أضعف من أن يعتمدوا على أنفسهم، وهكذا كان يبدو لهم.

وفي الصفحات التالية سوف نقف على علاقة العرب بألمانيا النازية ووجود شخصيات عربية في برلين تسعى لطلب النجدة والمساعدة من ألمانيا، وما هو موقف الألمان من هذه المطالب ومن تلك الشخصيات العربية. وفي روايتنا للأحداث هذه سيكون مرجعنا شاهد على الأحداث وشخص معروف عند العرب في ثلاثينيات القرن العشرين، إنه مذيع القسم العربي في إذاعة برلين النازية (يونس بحري)

والذي عاش في ألمانيا طيلة سني الحرب وما قبل ذلك. وبعد انتهاء الحرب أصدر مجموعة من الكتب ضمن سلسلة أسماها (هنا برلين حي العرب). والروايات الواردة هنا كلها على ذمة يونس بحري وحسب ما رواه وأخبر به يقول في باب العرب في ألمانيا قبل الحرب:

كان (هتلر) يميل لمعاونة العرب ضد اليهودية العالمية وذلك بفضل المعلومات التي قدمها إليه الدكتور (غوبلز) و(روزنبرغ) أول الأمر. وأن وجود (هيس) مساعده وخليفته المنتظر وهو من مواليد الإسكندرية زاد من ميل (هتلر) لمساعدة العرب. وكان (هيس) يجيد العربية تماماً. ولكنه كما يقول بحري كان يكره المصريين ويحب باقي العرب، وأنه وبناءً على تعليمات منه صدر أمر عشية قيام الحرب باعتقال جميع المصريين في ألمانيا واعتبارهم من الأجانب الأعداء. ولكن الدكتور (غروبا) والذي أصبح رئيساً للقسم الشرقي بوزارة الخارجية الألمانية بعد عودته من العراق حيث كان وزيراً مفوضاً لبلده في بغداد وجدة، بذل جهداً كبيراً لإطلاق سراح المصريين واعتبار مصر دولة عربية صديقة وحليفة لألمانيا كأي بلد عربي آخر رغم قطع الدول العربية علاقاتها مع ألمانيا. ويقول يونس البحري: إن (غروبا) أخبره بأن (هتلر) قد أصدر أوامره إلى قادة القوات المسلحة للرايخ ورجال دولته باعتبار العرب «شعباً حليفاً وصديقاً» حتى ولو أعلنت حكوماته الحرب على ألمانيا، لذلك أصدر هتلر أوامره بإطلاق سراح المصريين المعتقلين وساوى بينهم وبين غيرهم من العرب الذين كانوا في ألمانيا. وكان هتلر يردد دائماً أن العراق هي (بروسيا العرب) وكانت له علاقات مع المرحوم الملك غازي.

ابن سعود وهتلر

يقول يونس بحري: إن (هتلر) استدعى يوماً (د. غوبلز) وزير الدعاية وكلفه بأن يحضر يونس بحري لمقابلته. ودخل البحري حيث يوجد (هتلر) وحياه بالتحية

النازية فرد عليه هتلر بنفس التحية ثم صافحه.

وقال له هتلر: إن ابن سعود قد أرسل إليه وفداً يرأسه السيد خالد آل هود (القرقني) لمفاوضته في بعض المسائل الخطيرة. فهل تعرف من هو السيد آل هود! إنني أعجب كل الإعجاب بالملك عبد العزيز آل سعود فهو رجل عصامي خلق في الصحراء مملكة مترامية الأطراف بعد أن وحد القبائل والإمارات والمشيخات الصغيرة. إنه رجل يستحق كل احترامي. فأجاب بحري: الحق هو ما قلتم أيها الفوهرر العظيم وكما وصفتم. وإني زرت الملك عبد العزيز عام ١٩٢٥م في الرياض. أما رئيس الوفد السعودي العربي خالد آل هود فإنه من مجاهدي ليبيا وهو كبير المستشارين للملك ابن سعود وله صفات الديبلوماسي البارع.

ودامت الزيارة الأولى للوفد السعودي (لهتلر) ثلاث ساعات. ثم استقبله مرة أخرى في مقره في برختشفادين (وكرالنسر) بجبال ساليسبورغ النمساوية. أما الوفد فقد جاء للمفاوضة بشأن تزويد السعودية بأحدث الأسلحة الألمانية.

هذا وكان العراق الذي يحكمه المرحوم الملك غازي أول بلد عربي يتسلح بأسلحة ألمانية لا سيما المدافع المضادة للطائرات. وهذا ما أغضب بريطانيا وفرنسا، وربما كان السبب الخفي للتخلص من الملك غازي بعد ذلك بفترة قصيرة.

إمام اليمن وهتلر

اتسع نطاق العمل في إذاعة برلين العربية لا سيما بعد الإقبال المنقطع النظير على سماعها في الوطن العربي، وبعد أن كان يونس بحري وحده في الإذاعة ويتعاون مع الدكتور «روت» المراقب الألماني للإذاعة وكان لا بد أنه يجيد العربية، أوفد الأمير شكيب أرسلان أحد كبار العلماء العرب الدكتور محمد تقي الدين الهلالي من أعلام المغرب وكان يحضر لنيل شهادة الدكتوراة من جامعة بون.

وقبل شهرين من وقوع الحرب تسلم بحري أول برقية من الإمام يحيى حميد الدين ملك اليمن يبسط فيها الخلاف مع بريطانيا وشرح العدوان على المحميات عامة وعلى منطقتيْ شبوة والبيضاء اليمنيتين. وعُرضت البرقية على (د. غوبلز) وبعد ساعة جاءت التعليمات بوضع الإذاعة العربية تحت تصرف الإمام يحيى ملك اليمن. ثم أمر (هتلر) قسم الإذاعات الأجنبية الأخرى التي تبث من نفس المحطة العربية أن تنقل عن هذه الإذاعة ما تقول وتذيع عن فلسطين واليمن باللغة الإنجليزية، والإذاعة الفرنسية بأن تذيع الأقوال عن سوريا ولبنان وأقطار المغرب العربي بالفرنسية.

ثم وردت برقية من الإمام يحيى يعلن فيها رغبته بإرسال هدية إلى هتلر ويسأل بحري ماذا يمكن أن يُرسل! فأجاب بحري بأن أفضل هدية يمكن أن يقدمها لهتلر هي كمية من القهوة اليمنية المفضلة والشهيرة باسم قهوة (المخا) وهي القهوة المفضلة في ألمانيا (كافي موكا) فقد ارتفعت أسعار القهوة وأصبحت نادرة الوجود في ألمانيا لأنها لم تعد تأتي من أمريكا الجنوبية وأفريقيا بسبب الحصار. وأصبح كغم القهوة يبلغ سعره ١٥٠ جنيهاً إسترلينياً ١٥٠٠ مارك.

في المساء وصلت برقية من الإمام يقول فيها – الهدية تصلكم على باخرة إيطالية. ولكن مدمرة بريطانية صادرت هدية الإمام يحيى في البحر الأحمر قبالة ميناء الليث الحجازي. وأبلغ البحري الإمام بالنبأ فرد الإمام أنه سيضاعف الهدية فبدلاً من ٢٥٠٠ طن من القهوة المصادرة ستكون الكمية ٥٠٠٠طن. وبالفعل وصلت الهدية. والتي وزعها هتلر على قادته واستبقى لنفسه منها عشرون كغم ومنح البحري كما يقول ٢٥٠ كيلو كانت ثروة هائلة بالنسبة له. وجعلت أسراب الحسناوات تتراكض وتتكاثر على يونس بحري الذي ما عاد يدري ما يصيد (تكاثرت الظباء على فراش).

مندوب الإمام في اليمن: كان الدكتور (غروبا) وزير ألمانيا في بغداد وجدة قد زار اليمن وأقنع الإمام بالتعاون مع ألمانيا لاسيما بعد أن ذاق من البريطانيين في المحميات والبيضاء وشبوة. وأبدى الإمام ارتياحه واستعداده للتعاون مع الرايخ الألماني ووعد بإرسال مندوب عنه إلى برلين لإتمام المفاوضات التي قام بها الدكتور (غروبا). وبالفعل قام الإمام بإرسال مندوب له بعد قيام الحرب.

أما هذا المندوب فكان (نقولا ثابت عبد النور) وكان من أقرب المقربين إلى المرحوم (نوري السعيد)، وأصبح بعد ذلك قائماً بأعمال المفوضية العراقية في جدة بعد لندن، وبعد إعفائه من عمله قصد اليمن واستحوذ على لب الإمام ببراعته اللفظية. وقد وفد هذا المندوب إلى برلين فاستقبله البحري في مطار (تمبلهوف) كونه مواطن عراقي وصديقاً قديماً له من الموصل. وكان يحمل رسالة تفويض من الإمام يحيى إلى هتلر مضافاً إليها ألوف الجنيهات الذهبية لشراء الأسلحة من ألمانيا.

وبعد أيام قليلة بدأت المفاوضات اليمنية الألمانية. وعرض المندوب اليمني بأن تقوم اليمن بتصدير القهوة والتمور والجلود والذرة إلى ألمانيا وأن يدفع القسم الباقي من الثمن من الجنيهات الذهبية التي يحملها المندوب، واستمرت المفاوضات واستمر سهر الليالي في الملاهي. وفي كل مرة يسأل الإمام عن سير المفاوضات يجاب بأنها تسير على أحسن ما يرام وأنها على وشك الانتهاء. أما الحقيقة فكانت أن المندوب كان يبذر ما معه من نقود في ملاهي برلين ومقاصفها وحسناواتها حتى أنه وصل إلى أيام عجز فيها عن دفع النفقات والإقامة، فما كان من السلطات الإلمانية إلى إبعاده إلى سويسرا.

قضية المغرب العربي

انتهز العرب في المغرب العربي ولا سيما مراكش هزيمة الجيوش الفرنسية واحتلال الألمان لفرنسا وحضرت وفود منهم إلى برلين للبحث في قضية الاستقلال. وكان أول من حضر السيد (أحمد بلفريج) الأمين العام لحزب الاستقلال ووزير خارجية المغرب بعد الاستقلال. وقد شرح بلفريج قضية بلاده ومطالب أهلها العادلة المشروعة بالحرية والاستقلال مع إعطاء فرنسا حق الأفضلية في التعامل الاقتصادي والإنشاء والتعمير. ومكث بلفريج في برلين زهاء أربعين يوماً غادر بعدها وقيل له إن موضوع استقلال مراكش سيقرر عندما توضع معاهدة للصلح مع فرنسا قريباً. وقد كلف الأستاذ عبد الرحمن ياسين المشرف على الإذاعة المغربية التابعة للإذاعة العربية في برلين وهو تونسي يتقن الفرنسية والألمانية والإيطالية إلى جانب العربية كلف بمهمة إبقاء التواصل مع مراكش.

وبعد مفاوضات طويلة مع السلطان محمد بن يوسف (الملك محمد الخامس) فيما بعد صرح السلطان أنه لا يفاوض إلا حكومة فرنسية شرعية إلا أنه لا يعترف بحكومة فيشي التي يرأسها المرشال بيتان.

كذلك تم إطلاق سراح مجموعة من زعماء حركة الاستقلال التونسيين وعلى رأسهم الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف وآخرون بعد دخول الألمان إلى فرنسا.

كذلك كان من الذين وفدوا إلى برلين النقيب محمد سلمان شقيق العقيد محمود سلمان أحد ضباط ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق عام ١٩٤٢م. جاء ليفاوض على شراء أسلحة ألمانية.

تجنيد الشباب العربي

تنادى العرب المقيمون في برلين لتكوين فرقة عربية تكون نواة جيش عربي متحد، وكذلك يكون رجالها ضباط ارتباط بين الجيش الألماني والجيوش العربية، ثم يتولوا تدريب الجيوش العربية على استعمال الأسلحة الألمانية.

وسافر الشباب العربي إلى ميادين التدريب في ضاحية مدينة (دورن) على الحدود الهولندية البلجيكية. ووضعت القيادة الألمانية على اليد اليمنى لكل متطوع (العلم العراقي العربي) كتب فوقه باللغتين العربية والألمانية (فراي أرابيان) أي العرب الأحرار.

كان من أشهر الأسماء العربية التي وفدت إلى برلين الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، وكان قبله بأربعين يوماً وصل رشيد عالي الكيلاني أحد رؤساء الوزارات العراقية ومعه مرافقوه حزمي سليمان وحكمت سامي ونجدت الشواف مرافقه العسكري.

وكان السيد محمد سلمان الجنابي موجوداً في برلين وقد اختاره الكيلاني ليكون مستشاراً عسكرياً له في برلين وحباه ثقته وكتم أسراره. هذا وقد افتتح رشيد عالي الكيلاني والذي كان يُلقب بالزعيم «بعد فشل حركته المعروفة في العراق» مكتباً عربياً في (بوكلر شتراسة) ببرلين وخلفه بعده الأستاذ علي الصافي كمدير للمكتب العربي ثم أصبح يونس بحري مديراً لهذا المكتب العربي والذي كان أشبه بوزارة عراقية في برلين. فقد كان محمود سلمان المشرف على الشؤون العسكرية، وحكمت سامي على الشؤون المالية، أما نجدت الشواف فكان مرافقاً للزعيم (الكيلاني) والسيد حزمي سليمان مشرفاً على الشؤون الداخلية، وكان البروفيسور

فرج الله وردي الكيميائي العراقي رئيساً لشعبة الترجمة، ومهدي الحمداني مديراً لإدارة المكتب.

ثلاث مكاتب عربية

كان في برلين ثلاث مكاتب عربية تعمل في بلد واحد ولكن ليس لغاية واحدة، الهدف كان واحداً لخدمة العروبة ولكن الاجتهاد في هذه الخدمة كان مختلفاً.

١. المكتب العربي المستقل الذي أسسته الحكومة الألمانية بالاتفاق مع مديره الأول الأستاذ عفيف الطيبي ليوجهه حسب اجتهاده وبحرية مطلقة لضمان التعاون العربي الألماني. وكان هذا المكتب منتجاً أكثر من غيره لأن السلطة فيه كانت غير موزعة.

٢. المكتب العربي لسماحة الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين.

٣. المكتب العربي للسيد رشيد عالي الكيلاني.

وكان المكتب التابع للكيلاني يعمل ضد المكتب التابع للمفتي بسبب خلافات سياسية وشخصية.

نزل الحاج أمين الحسيني حين قدومه إلى ألمانيا في قصر للضيافة بأمر من هتلر، ثم انتقل إلى فيلا جميلة خصصتها له حكومة الرايخ الثالث مع مرافقيه، وكان يرافقه الدكتور صبحي أبو غنيمة وراسم الخالدي ومحمد حجازي ثم التحق به الدكتور فرحان الجندلي كمترجم لأنه قد كان نال شهادة الدكتوراة في الطب من إحدى الجامعات الألمانية. وفي اليوم الأول لنزول المفتي في الفيلا المخصصة له دعى السيد يونس بحري لتناول الغداء على مائدته التي كانت عامرة دائماً بالأطباق العربية التي طال الحرمان منها كما يقول بحري.

وبعد أيام وصل إلى برلين سراً رشيد عالي الكيلاني وحل ضيفاً على المفتي. والغريب أن سماحة المفتي كتم خبر وصول الكيلاني وأبقاه سراً مدة شهر كامل كما يقول يونس بحري، والذي يستدرك قائلاً إن فوزي القاوقجي صديق الطرفين بعث المرحوم بهاء الدين الطباع إليه ليسأله عما إذا كان الكيلاني قد وصل إلى برلين، فأجاب بأنه لا يدري ولكنه سوف يسأل الوزير (غروبا) وذهب فعلاً إلى وزارة الخارجية مستفسراً فقال له (غروبا) إن الكيلاني وصل إلى برلين قبل أسبوعين وبصحبته السيد حزمي سليمان صهره، ومرافقه الملازم الأول نجدت الشواف، وقد حلوا ضيوفاً على المفتي. فقام البحري بإبلاغ القاوقجي بنبأ وصول الكيلاني وأبدى استغرابه لحرص المفتي على إخفاء الخبر.

وفي مساء ذلك اليوم ذهب يونس بحري إلى الفيلا التي يقيم بها المفتي حيث تمكن بوسائله الخاصة من مقابلة رشيد عالي الكيلاني، والذي وجده كما يقول على غير عادته التي يعرفها عنه أيام كان رئيساً للديوان الملكي أيام الملك غازي، فقد كان دائم المرح وكثير المزاح، ولكنه رآه رجلاً أنهكت الأيام قواه لا بل إنه كان يبكي ويقول لقد سجنني هنا عشرون يوماً ومنعني من الاتصال بأحد (يقصد المفتي) وإذا بقي الحال هكذا فإنني أريد العودة إلى بغداد حتى ولو شُنقت هناك. أما السر في هذا التصرف من المفتي فإنه لم يعرف حتى بعد انتهاء الحرب. هذا وقد خرج بحري من الفيلا إلى إذاعته حيث أعلن وصول رشيد عالي إلى برلين رغم أن المفتي اعترضه في أحد الممرات في الفيلا وأخبره بأن الوقت ما زال مبكراً لإعلان النبأ. بعد ذلك أخبر (غروبا) البحري بأن الخارجية الألمانية لم تعلن نبأ وصول الكيلاني بناءاً على نصيحة المفتي الذي قال يجب أن نضع برنامجاً نتفق عليه للعمل ثم ننفذ التعاون العربي الألماني. فأجاب بحري إن هذا التعاون موجود من تأسيس الإذاعة العربية في برلين، وإنه ضعف منذ قدوم المفتي والكيلاني برلين، كانت كلمة العرب

قبل وصولهما واحدة، واليوم صارت كلمتهم ذات ثلاثة أطراف. إن الخلاف بين المفتي والكيلاني بدأ لا بل استفحل.

وهنا سأل دكتور غروبا عن رأي القاوقجي في الموضوع، فأجابه يونس بحري بأن رأي القاوقجي هو نفس رأي البحري لا بل إنه هو الذي أشار على البحري بإذاعة الخبر وبلغات مختلفة وهذا ما كان.

وهناك وجدنا حلقة (الرواد العرب) مجتمعة حول الطاولة حيث كان بهاء الدين الطباع يلاعب السيد عبد الكريم السباعي الذي أصبح بعد ذلك رئيساً لبلدية بيروت. كما وجدنا الدكتور علي الصافي والدكتور عبد الحميد الهلالي الذي كان ينظر إلى البروفسور فرج الله وردي للتحرش بمرافق القاوقجي حميد الصافي ليطلب منه لفافة تبغ (وكانت عزيزة في ذلك الوقت) أما أكثر الحاضرين هدوءاً فكان المجاهد العربي منير الريس والدكتور جابر عمر. وحضر العقيد القاوقجي وبفمه سيجارته التقليدية وصافح دكتور (غروبا).

وكان هتلر أنعم على القاوقجي يوم وصوله مجروحاً بالطائرة إلى برلين برتبة عقيد (أو برست) عقيد عامل بالجيش الألماني وليست رتبة فخرية. ووضع له مرافق ألماني برتبة نقيب وسيارة عسكرية مع سائق تقديراً لبطولته العربية.

وفي مساء ذلك اليوم أذاع يونس بحري برنامجاً مفصلاً لأنباء وصول الكيلاني. وشرح عن ثورته والتي كان منها براء فقد قام بها أربعة عقداء في الجيش بالاتفاق مع المفتي كما يقال والذي كان وقتها في بغداد، وقرر هؤلاء الضباط استدعاء الكيلاني ليكون رئيساً للوزراء، فالثورة ليست ثورة رشيد عالي وهذه التسمية خطأ تاريخي لا أساس له من الصحة. ولكن الكيلاني ركب الموجة وهو الذي رأس وزارة العراق أكثر من مرة وكان رئيساً للديوان الملكي. فأصبح قومياً ثائراً من دعاة الوحدة العربية والتحرر العربي وربما كان مخلصاً في دعوته وقد أثبتت الأيام

اللاحقة صدق الرجل وإخلاصه لقضايا أمته. ومن الأمور الغائبة عن أذهان الأجيال العربية المعاصرة أن الكيلاني قُدم لمحكمة المهداوي بعد حركة ١٩٥٨م وحكم عليه بالسجن خمس سنوات لمساندته الحركات القومية التي كانت تناهض حكم عبدا لكريم قاسم. ثم توفي في بغداد.

وبعد إذاعة البرنامج عن وصول الكيلاني اتصل الدكتور صبحي أبو غنيمة بالبحري وقال له (واروم هامس توداس غيماخت؟) قالها باللغة الألمانية وتعني: لماذا فعلت هذا؟ فرد بحري «داس هالب» أي من أجل ذلك. قال أبو غنيمة على أي حال شرفنا لتناول طعام الغداء غداً فسماحته يدعوك، فقال على الرحب والسعة.

وفي الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالي كان الجميع في بيت المفتي يونس بحري وفوزي القاوقجي والسيد بدري قدح (مرافق المفتي العسكري) وهو عراقي كان يعمل مساحاً في أمانة بغداد، وكان هناك أيضاً السيد عبد الكريم السباعي وصبحي أبو غنيمة وفرحان الجندلي.

وقبل الغداء صعد بحري إلى الطابق العلوي ونزل وبرفقته رشيد عالي الكيلاني والذي حياه الجميع بمن فيهم المفتي.

وزيادة في التحدي وبعد الانتهاء من الطعام والقهوة قال بحري للقاوقجي الغداء (بكره) عندك على شرف الزعيم (رشيد عالي) فقال القاوقجي – نحن جميعاً تحت تصرف فخامته وبالفعل كان غداء حضره سماحة المفتي. وهكذا خرج رشيد عالي من معتقله في بيت المفتي.

عرب في برلين النازية من غير رجال السياسة

قبل نشوب الحرب الأولى وخلالها شهدت ليالي برلين الملاح بعض الشباب العربي الذي كان يصول ويجول في مرابعها يلهو ويعبث ويشبع كل ما في نفسه من غرائز مكبوتة.

من هؤلاء كان الشاب الليبي عبد القادر الذي توفي وهو ثمل محاط بأربع فتيات عاريات قبض عليهن رجال الشرطة الألمان، حيث أخبرن بكل صدق وصراحة بأنهن لم يفعلن شيئاً تسبب بموت الفتى العربي الذي قتله الإرهاق في – الترفيه – عن نفسه معهن. لقد أهلك الفتى العربي نفسه من شدة الإرهاق والإجهاد حيث قضى مع الفتيات الأربع ثلاثة أيام بلياليها وهو وإياهن عرايا – ربي كما خلقتني – وراح يأكل ويشرب ويطارحهن الغرام بالتناوب إلى أن نفذت قواه فاستنفذ أغراضه وكل ما عداها في هذه الدنيا الفانية التي ودعها وهو يظن أنه نال كل ما كان يتمنى.

هذا الشاب أتى يحمل توصية من أمير البيان شكيب أرسلان حيث عمل في مكاتب الإذاعة العربية ببرلين. وصل إلى برلين وهو يضع على رأسه عمامة التقى والورع كأي متخرج من الأزهر الشريف يحمل شهادته العالمية إلى جانب شهادة – لا إله إلا الله – وكان يريد أن يدرس تخصصاً آخر في جامعة برلين. وبعد وصوله بأيام أشار عليه بعض العرب في برلين أن ينزع العمامة ويمشي حاسر الرأس أو أن يلبس البرنيطة، فالعمامة في برلين كانت مصيدة عظمى للنساء فلقد ارتسم في عقلية نساء ألمانيا بأن كل معمم، هو أمير عربي، فلقد كان الحاج عمر التازي من وزراء المغرب الأسبقين وأثرياء المغرب العربي الكبار جداً يزور برلين في كل عام على رأس جيش من أتباعه وحاشيته وهم جميعاً يلبسون «العمائم» على رؤوسهم، فأظهروا العجائب مع سيدات برلين وخلفوا ذكريات رائعة مروعة في

محافلها وفنادقها تحكيها الأمهات لبناتهن مع كثير من التأسف والحرقة لا سيما أيام الحرب على هاتيك السويعات العذاب مع الأمراء العرب – المعممون –.

طبيب الجامعة العربية

إنه الدكتور عبد المسيح جيد الذي كان يحمل شهادة الطب من جامعة برلين، وهو قبطي مصري كان يحمل رتبة عقيد في الجيش العراقي، ثم حضر إلى برلين بعد حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق، حيث أصبح طبيب الجامعة العربية أو من يمثلها في برلين، أسمر اللون بشعر جعد وجسم ممتلئ، شديد المرح، أراد في يوم ما أن يقيم دعوى على حكومة (ألمانيا الغربية) باعتبارها وريثة لألمانيا الهتلرية وبأنه يطالبها بتعويض قدره ١٢٠ ألف جنيه لأن حكومة هتلر كانت سجنته في عام ١٩٤٣ في برلين لأسباب سياسية.

كان الدكتور يوصف بالأريحية والكرم وعلى استعداد بأن يصرف ويمنح كل ما يريد سائله إلا أشياء ثلاثة يعتز بها ولا يفرط فيها، علبة دخان ذهبية وساعة ذهبية مرصعة بالجواهر هدية من الملك فاروق، وسبحة فاخرة من الكهرب الأصفر الفاتح لونها يسر الناظرين، وكان يسمي هذه الأقانيم الثلاثة: عدة النصب على النساء.

الدكتور (جيد) فرّ إلى برلين مع من فر من العراقيين بعد حركة الكيلاني، وهناك في برلين اعتمده الكيلاني لإيفاده إلى هنغاريا ورومانيا وبلغاريا ليشتري له حاجيات كان أهمها الصابون المعطر الذي كان الكيلاني مولعاً به ويهديه إلى رجال وزارة الخارجية الألمانية ليقوموا بتنفيذ طلباته الكثيرة وأغراضه، والصابون في ألمانيا كان مشكلة المشاكل.

والحقيقة أن قصة هذا الطبيب كانت شبيهة بقصة ذلك الشاب الليبي. عين عبد المسيح جيد المصري الأصل العراقي الوظيفة طبيباً في مستشفى ألماني ببرلين. كان هذا الرجل متواضعاً مع الرجال ولكنه يظهر كل ما لديه من رجولة وتجبر للنساء.

كان الدكتور يحمل إلى جانب عدة النصب الآنفة الذكر جرائد الصباح والمساء البرلينيات، كان يضع مجموعة الصحف أمامه على المائدة في مقهى (كراسلر) الفخم ببرلين، كان يختار الموائد ذات المواقع الاستراتيجية في ذلك المقهى أمام النساء الفاتنات ويفتح الصحيفة على مصراعيها يغوص في أعمدتها المتناثرة أمامه وهو يتظاهر بأنه لاه عن كل ما يدور حوله وفي الوقت ذاته كان يترك – أزرار – سرواله مفتوحة من تحت الصحيفة بصورة تترك المجال لنظرات النساء الفضوليات يرين ما يجب أن يخفيه وكن يعتقدن أن الصدفة وحدها جعلت الدكتور يترك أزرار سرواله مفتوحة. وكان يعتقد بأن هذه الطريقة تجعله يحصل على ما يريد وبأسهل الطرق. فقد كان طبيب الجامعة العربية يفاخر الشباب العربي الناهض الثائر الذي يسهر الليالي في طلب المعالي في برلين بأنه بالرغم من كهولته وسمرته وترهله يستطيع أن يصطاد بواسطة عدة نصبه أكبر كمية من النساء في كل يوم بحيث توازي ما يصطاده الفرد العربي العادي في شهر. والحقيقة أن مقدرته في هذا الأمر كانت فائقة.

كان طبيبنا ينام ويعمل في المستشفى حيث خصصت له شقة لم تبق ممرضة أو مريضة ترتاد المستشفى إلا ودخلتها وصارت حجج الرائحات والغاديات. وفي يوم استطاع أن يستدرج فتاة قاصرة أفقدها عذريتها، واقتيد الدكتور إلى السجن بتهمة الاغتصاب والاعتداء على عفاف فتاة قاصر. ولولا تدخل المكتب العربي التابع للكيلاني لقضى الدكتور نحبه وبطريقة عرفها كل من سمع عن وسائل الجستابو.

في مربع سيرو

كان مربع سيرو الواقع في شارع – رانكا شتراسه – على مقربة من إحدى كنائس برلين من أمتع مرابع برلين وأرقاها، ترتاده الطبقة الأرستقراطية القيصرية، وعلى رأسها – البرنس – ويلهلم ولي عهد ألمانيا السابق والذي كان صاحب ذوق في الجمال فقد كان دائماً محاطاً بنخبة ممتازة من سيدات المجتمع البرليني، ولم يكن ينافسه إلا مريشال الرايخ (غورينغ) الذي كان من رواد مربع (سيرو) حيث كان يسهر فيه مرتين في الأسبوع، الأحد والأربعاء، وكان مصطفى سيرو المصري هو صاحب هذا المربع، وهو شاب أنيق ممتلئ صحة وعافية يعرف كيف يصطاد النساء الفاتنات ويغري السيدات اللواتي تجاوزن الخمسين من العمر وبقين محتفظات بمسحة خفيفة من أثر الجمال الغارب. كان مصطفى سيرو مغرماً بعقود الجواهر واللآلئ التي تزين أعناق هاتيك السيدات فغرامه بالأحجار الكريمة كان أكثر من غرامه بجمال السيدات العجائز وقد استطاع فعلاً أن يقتنص عدداً ضخماً من جواهر السيدات العجائز والذي كان يعدهن بالسهرات الممتعة مقابل ذلك، حتى أن برلين ضجت بأنباء ومغامرات وحوادث مصطفى سيرو، وصار إسمه أشهر من إسم مربعه الذائع الصيت.

هذا وكان (هملر) رئيس الأمن العام النازي والغستابو قد وضع عينه على مصطفى سيرو، وكان هو نفسه من رواد مربعه، فأخذ يراقب المربع، وانتشر رجاله بين الساهرين والساهرات، ولكن مصطفى كان يضحك من هملر ورجاله فقد كان مشمولاً بحماية ماريشال الرايخ (غورنغ) الذي يحول دون يد هملر من أن تصل الى مصطفى سيرو.

يقول يونس بحري صاحب هذه المذكرات بأنه كان يسكن في الطابق الثاني فوق مربع سيرو، وكان من شرفة بيته يراقب الداخلين والخارجين بسهولة، ولاحظ

من بين من كان دائم الحضور سيدة شابة أنيقة تدخل المربع ولا تخرج منه مع الخارجين، وحب الفضول دفع المراقب ليتعرف على هذه الفتاة. كان مصطفى سيرو صديقاً ليونس البحري وكان كثيراً ما يحدثه عن مغامراته الغرامية وصيده جواهر ولآلئ العجائز. بدأ حياته العملية – دانسور موندين – أي راقص اجتماعي، أي أنه يراقص السيدات اللواتي يحضرن بمفردهن إلى المراقص والمرابع لشراء اللذة والمتعة مع رجال أمثال سيرو، وغالباً ما ينتهي الحفل بموعد لقضاء لبانة إما في دار العجوز أو في شقة الراقص الاجتماعي والذي يقدم خدماته بكل أريحية وسرور. وقد جمع مصطفى سيرو ثروة طائلة وصارت المرسيدس الفخمة التي يمتلكها مطمح أنظار فتيات برلين الطروبات الكواعب الترب. وكان يعمل دائماً على الاستزادة من الجواهر المغرم بها من السيدات العجائز اللواتي كن يحمن حول مصطفى كالفراش المتهالك على النور.

وذات مساء دخل البحري وراء تلك السيدة ذات القناع الأسود والتي أسلفنا بأنها تدخل المربع ولا تخرج. دلف صاحبنا خلفها وكان المربع ما زال خالياً من رواده عدا الخدم الذين يقومون بترتيب المناضد. كان هناك على أحد الجدران لوحة كبيرة تمثل الأهرام وتطل على نهر النيل، لقد تحركت اللوحة وانفرج الحائط عن شقة أنيقة فيها خمسة غرف سرية يستخدمها سيرو لقضاء الحاجات المستعجلة.

ويضعها تحت تصرف الزبائن السمان الأثرياء ليقضوا لبانتهم مع المختارات من الفتيات، وهذه الغرف مجهزة بالأسرة والفرش الوثيرة والمياه الجارية ساخنة وباردة وبحمام أنيق، ولا يدخل الخدم هذه الغرف، تتم طلبات الزبائن بالتلفون وتأتي عن طريق مصاعد خاصة، وبعد نهاية كل شيء يخرج الزبون من أبواب سرية غير منظورة وبصورة لا يرى فيها الزبائن بعضهم بعضاً.

في هذه الغرف السرية كانت تكمن أسرار ومباذل النازيين وأثرياء العرب

والغربيين الذين كانوا يفدون على برلين... كانت تجارة مصطفى هذه رابحة للغاية فاستغلها إلى أقصى حدود الاستغلال. وفي ليلة وأثناء ما كان البحري في إحدى سهراته المستمرة في مربع سيرو كان هنالك مارشال الرايخ (غورينغ وروز نبرغ) فيلسوف النازية، ودكتور (غوبلز)، ودكتور (ديتريش) رئيس صحافة الرايخ ونخبة ممتازة من سيدات المجتمع البرليني واللاتي كن يملأن جو القاعة الفسيحة حبوراً وبهجة.

وفي هذا الجو المكهرب فُتح باب المدخل الرئيسي وتقدم منه (هملر) رئيس الغستابو ومن ورائه نخبة من عمالقة الغستابو وقد شهروا مسدساتهم، وصاح (هملر) بصوته الأجش!!! سكوت لا يتحرك أحد من مكانه. وساد الصمت وذهل ماريشال الرايخ وأراد (غوبلز) أن يحتج ولكن (هملر) كرر كلمته – سكوت – وراح يفتش المربع ووقف رجاله وقفة الاستعداد.

ماذا يريد هملر؟

صمت الجميع وظهر الخوف على وجوه البعض، فقد كان وجه (هملر) متجهماً مخيفاً تظهر عليه كل ملامح القسوة والوحشية كانت تلك الليلة هي ليلة العاشر من أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩م.

لقد أهمل (هملر) وجود هذه النخبة الممتازة من قادة النازية في هذا المكان، وبعد حوالي خمسة دقائق غادر (هملر) ولم يعثر على شيء.

وظهر مصطفى سيرو من مكتبه وهو يحمل عدداً من الأطباق الصغيرة راح يوزعها على السيدات وهو صامت، وما أن أغلق باب المربع وراء (هملر) حتى أخذت السيدات برمي الأطباق في المكان الذي كان يقف فيه (هملر)، وبعد الانتهاء من عملية التكسير صاح (ريبتروب) – شامبانيا – للجميع على حسابي.

لقد جاء (هملر) إلى مربع سيرو وهو يبحث عن ابنة أخته برتا الجميلة والتي أشيع في برلين منذ بضعة أشهر بأنها قد أصبحت خليلة لمصطفى سيرو، إذن فتاة القناع الأسود التي تدخل متخفية المربع ولا تخرج منه كانت ابنة أخت هملر سفاح الغستابو الأكبر.

ضحك مصطفى سيرو فكان يضع على عينه اليسرى فردة نظارة – مونوكل – أسوة بشباب (اليونلرز) البروسيين وقال ليونس البحري بصوت خافت (والله لو كانت لهتلر ابنة لما خلصت مني).

كان هنالك أيضاً شاب مصري آخر يدعى أحمد البيه اختار فينا عاصمة الفن والجمال قاعدة لعمله، فشيد بنفسه مربعه (القاهرة) في أحسن موقع اجتماعي في فيينا وعلى طراز عربي ممتاز، وكانت قائمة أحمد البيه تسجل مجموعة من أجمل سيدات أوروبا وأكبرهن ألقاباً وأرستقراطية.

وكان مربع البيه يتميز بالرسميات واللباس الخاص للرجال والسيدات. كما وضع للمربع نظاماً خاصاً فرضه على الجميع. فقد تفهم البيه نفسية الجرمان وعقلية النازيين. وكان معظم زعماء النازية يقصدون مربع القاهرة في فيينا.

أما أحمد البيه نفسه فكان له مخدع خاص به حرص على تأثيثه بالطراز العربي المغربي والشرقي، مخدع فخم للغاية يستهوي فؤاد أجمل سيدة من سيدات المجتمع، جعل المخدع على غرار مخادع سلاطين آل عثمان في (قصر يلدز)، والسرير في المخدع يتسع لنوم خمسة أشخاص براحة، وإلى جانبه براد كان يزخر بالكثير من أطايب الأطعمة والأشربة والتي يسيل لها لعاب ماريشال الرايخ (غورنغ). وفي يوم زار هتلر بنفسه المربع. ورقص أمامه فنان عراقي كان يقيم في فيينا إسمه (وليم شفو)، رقص رقصة بوليرو لمؤلفها (رافل) وكان هتلر من المعجبين بهذا المؤلف والملحن والموسيقي، وقد أتقن ذلك الراقص العراقي هذه الرقصة لدرجة الإبداع

وكانت سبب شهرته في أوروبا في ذلك الوقت، وكان (وليم شفو) يراقص زميلته على خشبة المسرح ويبدي فنه الذي مزج فيه الحركات الغربية بالشرقية العربية. وصفق هتلر لهذه الرقصة وقال عظيم للغاية.

ومن العرب في برلين النازية كان ذلك الشاب التونسي عبد الرحمن ياسين، وكان يحمل درجة الدكتوراة في الحقوق ويجيد الفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية إلى جانب العربية وكان قد فرّ مع من فرّوا إلى إسبانيا عند إعلان فرنسا الحرب على المحور، وكان شاباً مرحاً معربداً وزير نساء لا يضاهى، ولكنه كان متكتماً للغاية في الأمور المتعلقة بشؤون المغرب العربي، يتهرب من الأسئلة ولا يتحدث إلا في شؤون النساء الجميلات اللواتي كن يفدن على داره بالعشرات. وكان يعمل باسم مراد، وكان متزوجاً من سيدة ألمانية وله منها ثلاثة أولاد. ولكنه تركها في باريس واستأجر شقة أرضية فرشها على الطراز المغربي وراح يستقبل بها محظياته يشاركه في ذلك يونس البحري الذي تعلم منه طريقة الحفلات الفرنسية المسماة (بارتوس) والتي يشارك فيها ثلاثة رجال وثلاث نساء يرقصون عرايا، إلى أن يحين موعد اللذة الجنسية حيث يقومون بالتبادل تباعاً إلى أن تتهالك قواهم.

وكان مراد هذا كثير التنقل بين عواصم الغرب والمغرب، كان كثيراً ما يطير إلى باريس ويبحث في مكاتب محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية عن أوراق ووثائق خاصة حملها معه إلى مدريد قبل انهيار ألمانيا بثلاثة أشهر حيث كانت لديه فيها شقة أخرى وصفها بأنها أجمل من شقته في برلين. وكان يقابل الجنرال (فرانكو) وهتلر وغوبلز. كان يتمتع بمال وفير ولم يكن يتقاضى راتباً من عمله في الإذاعة.

الأحداث السابقة بمجملها منها ما كان قبل الحرب ولكن في سني الثلاثينيات ومنها ما كان أثناء نشوب الحرب العالمية الثانية.

ومن مشاهد أيام الحرب نعرض هنا نظام التقنين في توزيع بطاقات المواد الغذائية، وكان نظاماً دقيقاً للغاية وقاسياً. جعل معظم من يعيش في ألمانيا تلك الفترة ينقص وزنه عشرات الكيلوغرامات. وعلى ذكر الغرام فلقد ازداد الغرام زيادة عنيفة في برلين وألمانيا جعلت الرجال يخافون المشي على انفراد في الليل فلقد كانت فتيات الشبيبة الهتلري يهجمن على المارة لاقتناص الرجال، فالشباب سيقوا إلى ميادين القتال ولم يبق سوى الكهول والشيوخ الذين لا يشبعون نهم الفتيات الغارمات الفاتنات.

كان نصيب الفرد من الخبز يومياً ٢٥٠ غراماً ومن اللحم ٥٠ غراماً في الأسبوع، وزال الأرز من عالم الوجود واختفت الفواكه من الأسواق، وكان السعيد الذي يجد تفاحة يلتهمها بشراهة مخيفة بينما كان نصيب الفرد من النساء عشراً أو عشرين امرأة. أما الدخان فكان نصيب الفرد منه ٣ لفائف للرجل واثنتين للمرأة. وتقدم المطاعم وجبة موحدة من الطعام وهي كمية من الخضر العديدة الأشكال تسلق بالماء وتتراقص فوقها فقاقيع غير مرئية من شحم لا يعرف كنهه ويسمون الوجبة (شتام غريشت) أما الثمن فكان مارك واحد للوجبة.

من طبيعة الإنسان العربي لاسيما العراقي أن لا يصبر على هذا النوع من الطعام. فذهب البحري إلى مستر غروبا شاكياً وضعه وقال له إن صوته سيخفت ولن يستطيع الاستمرار بالإذاعة من شدة الجوع.

في اليوم التالي استدعى دكتور غروبا يونس البحري ومد له بمغلف عندما فتحه وإذ به يحتوي على بطاقات أكل لتسعة أشخاص، وعلى بطاقات للدخان تتضمن ٥٠ لفافة باليوم. وقال له إنك ستأخذ هذه الكمية كل يوم اعتباراً من الآن فصاعداً، ثم أخبره بأن غوبلز أمر مدير نادي الصحافة الأجنبية أن يجعل تحت

تصرفه وضيوفه (بار النادي) ومطعمه دون أجر، واعتبر هذا أعظم نصر كسبه في ألمانيا.

الباحثات عن الرجال

لقد اندفع الشباب العربي الباقي في برلين وألمانيا في مغازلة الغيد الحسان وما كان عليهم إلا الجلوس في المقاهي والمشارب لتصطادهم الفتيات، ولم يكتفوا بهذا بل راحوا يساومونهن إذا ما أنسوا فيهن ثروة ورخاء على الحصول على بطاقات اللحم والزبدة والسكائر لقاء مغازلتهن، وكانوا يسألونهن عن مهنهن، فإذا كانت الفتاة صاحبة مطعم أو جزارة أو خبازة أو بائعة في مخزن للحوم والخضار والفواكه المحفوظة فإن حظها يكون كبيراً في الفوز بالشباب العربي الناهض والطالب للمعالي. ولما كانت الفتاة الألمانية تبحث عن الرجل الذي يعجبها لا عن مال ولا استغلال فإنها تدخل في حديث مباشر معه ينتهي بأن تطلب مرافقته إلى بيتها أو بيته لشرب فنجان قهوة.

وهكذا لعب الدخان والقهوة دوراً رئيسياً في ألمانيا إبان الحرب في التبادل النوعي والجنسي، فكانت كل خمس سكائر تقدمها إلى الجزار تسمح للشاب بالحصول سراً على نصف كيلو من أجود أصناف اللحوم. كما أن ٥٠ غراماً من القهوة تمكنّك من الحصول على نصف كيلو من الزبدة النقية الشهية. وخمس سكائر مع فنجان قهوة تفسح المجال لقضاء لبانة مع أجمل فتاة في البلد. كانت الغارات الجوية المتواصلة والقنابل المتفجرة والمحرقة تثير الأعصاب فتهتاج الفتاة بصورة تخرجها من دائرة التعقل فيستبيح الرجل المرأة والمرأة الرجل، خاصة وأن أحداً لم يكن ليعرف ما هو مصيره غداً أو بعد ساعة أو حتى في التو واللحظة. وهنا نستطيع أن نتصور الوضع الذي كان عليه يونس بحري بعد صرف تلك البطاقات له.

أما عمليات تبادل البضائع فكانت تجري بمنتهى السرية فمن يقبض عليه من المقايضين والمتبادلين ويسمونهم (هامسترر) أي محتكرين يعدمون فوراً وبدون محاكمة. كان المتبادلون يضعون ما لديهم في أماكن مهجورة متفق عليها فيأتي صاحب الحاجة لأخذها ووضع ما لديه بدلاً منها.

من أين لك هذا؟

ذات ليلة كان صاحب المذكرات يجلس في مقهى (كافي فيني) فقد كان الوحيد الذي أبقت عليه الغارات، وإذا بأحد الشباب العربي الأردني يروح ويغدو أمام واجهة المقهى وهو يترنح من شدة الشرب وجعل يتحرش بالرجال ويشتمهم. ولما جاء رجل الشرطة ليمنعه ويدخله المقهى، راح يشتم هتلر بصوت مسموع، فما كان من رجل الشرطة الكائن على مقربة من المقهى إلا أن ألقى القبض عليه. وشتم هتلر بل مجرد ذكر اسمه بلهجة التحقير كان جريمة كبرى جريمتها الإعدام رمياً بالرصاص أو السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة في حال الرأفة.

ولما كان الشاتم العربي الأردني الثمل من أصدقاء بحري الأعزاء (لم يذكر اسمه) فقد قصد البحري مخفر الشرطة ودخل على مفوض الأمن الهر (شتولب) وكان من الأصدقاء أيضاً.

رحب به المفوض وأجلسه إلى جانبه، وكان الشاب العربي واقفاً يتصبب عرقاً خوفاً ورعباً فقد صحا من سكره وأمسى ينتظر النتيجة المروعة، وكان أربعة من حفاظ الأمن الغلاظ الشداد يحيطون «بالمجرم» الذي تجرأ بوقاحة نادرة على أن يشتم الفوهرر في الشارع صراحة وعلى رؤوس الأشهاد.

فطن المفوض إلى الغاية من مجيئ البحري فأشار إلى حفاظ الأمن بالانصراف، ولما خرجوا هب المفوض واقفاً وهجم على الشاب وأمسك بتلابيبه وراح يهزه

بشدة. ووقف البحري لينقذ الشاب من بين يدي المفوض الهائج، وقال المفوض دعني أوجه إلى هذا الشاب سؤالاً واحداً حير عقلي وأذهلني. والتفت إلى الشاب وهو يقول: إن مسألة شتم الزعيم هتلر ينظر فيها بعدئذ بل يهمني جداً الآن أن أعرف من أين لك هذا القدر الكافي من الخمر ليجعلك تسكر وتسب أكبر رأس في أوروبا.

هيا بنا إلى خمارتك يا بطل!!!

ربما كان هذا أحسن وصف لحال العرب في ألمانيا النازية صورة شاب عربي عاش في برلين قبل الحرب بسنوات ولم يغادرها إلا بعد انتهاء الحرب، وبواسطة جواسيس من الإنجليز والأمريكان كانوا يعملون معه في إذاعة برلين النازية دون أن يدري بهم أحد.

أما كيف قدم يونس بحري كتبه وعرف بنفسه فقد قال: الصحفي والدبوماسي والسائح وإمام مسجد باريس ومفتي أندونيسيا ومستشار ملك ليبيا ومذيع راديو برلين في الحرب الثانية وصاحب العرب وحي العرب، الرجل الذي يتقن ست لغات وعبر مضيق جبل طارق سباحة، فائز بالدرجة الأولى بسباق دولي، زامل غوبلز وزير دعاية الرايخ الثالث وتحدث إلى موسوليني وهتلر، وقام بجولة حول العالم باسم «السائح العراقي» والرجل الذي كان أول من قال «حي العرب» وقال من برلين «بلاد العرب للعرب».

بقي أن نذكر أن يونس البحري قدم إلى عمان أواخر خمسينيات القرن الماضي وعمل لفترة قصيرة في دار الإذاعة الأردنية، ثم غادر، وتوفي في العراق في سبعينيات القرن الماضي -رحمه الله-

صور من طبيعة الحياة في شرق الأردن

بين عامي ١٩٢١ – ١٩٢٣م

هذه نماذج من طبيعة الحياة التي كانت تسود المنطقة التي كانت تعرف بشرقي الأردن ما بين عاميْ ١٩٢١ – ١٩٢٣م كتبها معايش لها وأحد أركان الحكم الجديد في البلاد بعد قدوم المغفور له الملك عبد الله بن الحسين إليها وتأسيس الإمارة والتي أصبحت بعد ذلك المملكة الأردنية الهاشمية... أما صاحب الوصف فإنه الأديب العربي المعروف خير الدين الزركلي.

يقول الزركلي: غادرنا مكة متجهين إلى عمان فهبطنا مصر واتجهنا إلى فلسطين، فبلغنا القدس بعد ظهر الأربعاء ٩ شباط (فبراير) ١٩٢١م. وكان أول من لقينا في القدس نبيه بك العظمة، ومنه علمنا أن الأمير عبد الله ما زال في معان ينتظر الفرصة المناسبة لدخول عمان. وفي القدس عرفنا أن حكومة فلسطين لم تتلق حتى ذلك الحين أوامر من لندن في ما يجب أن تقابل به حركة عبد الله وأنصاره والذي كان يعمل لتحرير سوريا من الاحتلال الفرنسي، لا بل كان يخيل للحكومة البريطانية أن لعبد الله مندوباً في القدس هو نبيه بك.

وفي القدس كان الأستاذ الشيخ كامل القصاب وعثمان قاسم وعوني القضماني ورمضان البعلبكي يتأهبون للسفر إلى عمان فانخرطنا معهم أنا والشيخ يوسف ياسين. وركبنا عربتين يجر كلاً منهما بغلان، وما كانت السيارات يومئذ تستطيع بلوغ عمان.

برحنا القدس صباح الجمعة ١١ شباط (فبراير) ١٩٢١م قبيل شروق الشمس وجهتنا السلط. واجتزنا نهر الأردن قبل انتصاف النهار وتخطينا وادي شعيب

والشمس تغرب، ودخلنا السلط بعد الساعة الثامنة مساءً، فالتمسنا فندقاً نأوي إليه، فإذا هي لا فندق فيها، فأرشدنا أحد أبنائها إلى منزل المتصرف فلم نتردد، وبتنا ليلتنا في دار صاحبنا مظهر أرسلان وكيل متصرف السلط. وأصبحنا يوم السبت متجهين إلى عمان حيث كان الشريف علي بن الحسين الحارثي يعمل مشتركاً مع الوطنيين لتمهيد السبل أمام الأمير عبد الله فاستقبلنا قبل بلوغها قائم مقامها وقائد دركها وجمهور من الخيالة والرجّالة، كانوا يهتفون بحياة العرب والاستقلال.

لم تكن عمان في ذلك الحين أكثر من قرية، قليلة السكان، ضئيلة المباني، مظلمة السبل، لا يصلها بمجدها وتاريخها إلا ما شخص من آثارها، ولا يدل على إمكان الحياة بها غير توسطها بين قبائل بني صخر وبني حسن وعدوان وعباد، يردون عليها بين الفترة والأخرى يبيعون فيها بعض ما تنتجه ماشيتهم ويبتاعون منها ما يكتسون، فللتجارة فيها شبه سوق، ولولا ذلك لانفرد بسكناها جماعات من الشراكسة نزحوا إليها حوالي عام ١٨٨٠م. كما انفردوا بكثير مما حولها من قرى ومزارع، هم أصحابها اليوم غير منازعين (في تلك الفترة) ولكن ابتغاء الربح وطلب الكسب هما اللذان حملا إلى عمان تجاراً من دمشق ونابلس افتتحوا فيها حوانيت صغيرة قصدها البدو الضاربين حولها والمقيمين في ما جاورها من القرى فأصبحت ولها شيء من الشأن.

دخلنا عمان قبيل ظهر السبت ١٥ فبراير ١٩٢١م وقصدنا منزل الشريف علي الحارثي، عرفناه في حملة الأمير فيصل قبل خروج الترك من الشام ثم عرفناه في دمشق وأخيراً في عمان، فأنس بنا وأنسنا به، وعلمنا أنه طليعة عبد الله، وأنه زار السلط، وأن قلوب الناس معه، فاستبشرنا خيراً.

مكثنا في عمان أياماً جاء خلالها أمين بك التميمي وعوني بك عبد الهادي ورجال آخرون، وكان معتمدي بريطانيا في شرق الأردن تلقوا تعليمات من

مراجعهم فكفوا عن معارضة الأمير عبد الله في دخوله (يبدو أن بريطانيا كانت تخطط أموراً أخرى لمنطقة شرق الأردن) وكتب الشريف الحارثي إلى أميره يدعوه، وداخل الأمير بعض الشك فتأنى، فعقد الوطنيون اجتماعاً في عمان قرروا فيه إيفاد أربعة إلى معان هم: الشيخ كامل القصاب، وأمين التميمي وعوني القضماني وعوني عبد الهادي، لإزالة ما علق في نفس الأمير من ريبة. وقد تعهد الشيخ مثقال الفايز بأن يحمي سمو الأمير من كل اعتداء وأقسم فريق من زعماء البلاد كانوا قد توافدوا على عمان بأنهم يدافعون عن الأمير بكل ما لديهم من قوة. ثم انضم إلى الوفد المزمع أن يقصد معان مظهر أرسلان، وذهب الخمسة مساء الأربعاء ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٢١ على أن يعودوا مع الأمير صباح السبت. وصل الأمير عبد الله إلى معان مقبلاً من مكة عن طريق المدينة يوم ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٠ تصحبه قوة من بدو الحجاز، فضرب الخيام فيها على مقربة من سكة الحديد الحجازية، وهرع شيوخ القبائل للسلام عليه، كان ينتظره في معان من السوريين، غالب الشعلان وفؤاد سليم ومحمد مريود ومنير عبد الهادي قائمقام معان المعين من قبل الشريف الحسين بن علي.

وقدم مع سموه مرافقه القائد حامد الوادي وثلاثة ضباط عراقيين. ومن الأشراف شاكر بن زيد وعلي بن الحسين الحارثي وأخوه محسن. أما الأعضاء الذين ذهبوا من عمان إلى معان لمقابلة الأمير، فقد قابل أعضاء الوفد الأمير وتلقاهم ببشاشته وأنسه المعروف وحدثهم بما كان يدور على لسانه وكان فيهم مظهر أرسلان، فعرف أن القوم راضون به، ولم يتردد بعد ذلك في إتمام السير إلى الأمام. وقبيل مغادرته معان ألقى سموه خطاباً بأهلها، ومما ورد فيه:

«إنني الآن مودعكم وأود أن لا أرى بينكم من يعتز بانتمائه إلى إقليمه الجغرافي، بل أحب أن أرى كلاً منكم ينتسب إلى تلك الجزيرة التي نشأنا فيها

وخرجنا منها، والبلاد العربية كافة هي بلاد كل عربي. إنني ذاهب الآن، وأرغب أن تواظبوا على أعمالكم وأحب أن لا أسمع بأن أحدكم تقاعس عن واجبه إذ الواجب لم ينتهِ ولن ينتهي، وإن شاء الله قريباً نجتمع بكم ونرجوه أن يوفقنا لما فيه خدمة الأمة والسلام».

وهبط الأمير ومن برفقته مدينة عمان قبل ظهر الأربعاء ٢ آذار (مارس) ١٩٢١م واستقبله جمهور كبير من أهل عمان وغيرها هاتفين باسمه. واجتاز الأمير ومن معه المسافة بين المحطة والبلد على الجياد ونزل في دار رئيس بلديتها وتقدم الناس للسلام عليه مستبشرين متفائلين خيراً. وعصر يوم الخميس احتشد في ملعب المحطة بعمان آلاف الناس للاحتفال بالأمير القادم، وكان يجلس بجانبه الشريف شاكر بن زيد. وتليت الخطب والقصائد، وكان خطيب الحفل الشيخ كامل القصاب.

ومن المعروف أنه قبل قدوم الملك عبد الله وأثناء فترة فراغ السلطة بعد رحيل العثمانيين قامت في البلاد الأردنية حكومات متعددة في إربد وعجلون وجرش والكرك والسلط وغيرها. سرعان ما توحدت بعد قدوم الملك عبد الله في إمارة واحدة.

نزل الأمير ومن معه بعد وصوله عمان في بيت في المحطة. وأقيمت بعض الخيم قرب سيل المحطة لبعض مرافقيه.

في آب عام ١٩٢٠م زار (هربرت صموئيل) المندوب السامي البريطاني في فلسطين السلط واجتمع بشيوخ وزعماء العشائر من المجالي والعدوان وبني حسن وبني حميدة وعجلون والبلقاء وعشائر أخرى وألقى عليهم خطبة بعد أن رحبوا به ترحيباً على عادة العرب والذين كانوا يجهلون نوايا بريطانيا الخبيثة والشر الذي تضمره لهذه البلاد وهذه الأمة. وجاء في بيانه:

«تسألونني عن نوع المساعدة التي تريد إنكلترا أن تقدمها لكم فأجيبكم أنها لا تريد ضمكم إلى الإدارة الموجودة في فلسطين الآن بل تنشئ لكم إدارة منفردة تساعدكم على أن تحكموا أنفسكم بأنفسكم. فقد عززت الحكومة الفرنسية نفوذها في دمشق وأصبح من الضروري فصل هذه المقاطعة عن إدارة دمشق. هذا وسوف نرسل إليكم عدداً قليلاً من الضباط السياسيين ورجال القضاء ذوي الخبرة الواقفين وقوفاً تاماً على اللغة العربية وأحوال الشعب العربي. وسوف يساعدونكم على تنظيم الدفاع وتنظيم البوليس الذي يصون الأمن بالداخل، وترقية التجارة، وتأييد العدالة، وإنفاق ما تدفعونه من ضرائب على مصالحكم واحتياجاتكم وستكون لكم حرية الاتجار التامة مع فلسطين ويرسل البترول والأرز والسكر وبقية الحاجات إليكم كما يرسل لأهل فلسطين على القاعدة ذاتها. ولكن شرط عدم إخراجها إلى البلدان المجاورة. ولا يسمح بإدخال السلاح إلى فلسطين كما هي الحالة الآن».

وهذا بيت القصيد...

وقد قوبل هذا البيان من أهالي المنطقة بفتور تام دلّ عليه أن زعماءهم جمدوا بعد أن سمعوه جمود الحيرة لا يدرون أشر أريد بهم أم أراد بهم ربهم رشداً.

يوم ٢٧ آذار (مارس) ١٩٢١م ذهب الأمير عبد الله وكان يرافقه رشيد طليع إلى القدس للاجتماع بالمستر (ونستون تشرشل) وزير المستعمرات البريطانية. وزار القدس في ذلك اليوم المسيو (روبير ديكاي) وكيل المندوب الفرنسي الأعلى في سورية لمفاوضة تشرشل في أمور تتعلق بسورية وفلسطين وشرق الأردن. فضم الاجتماع في قصر الطور بالقدس أربعة هم: الأمير عبد الله، والمستر تشرشل والمسيو دكاي وكيل المندوب الفرنسي الأعلى في سورية، لمفاوضة تشرشل في أمور

تتعلق بسورية وفلسطين وشرق الأردن. فضم الاجتماع في قصر الطور بالقدس أربعة هم: الأمير عبد الله، والمستر تشرشل، والمسيو دي كاي والسير صموئيل.

وبعد أن تم تشرشل حديثه مع دي كاي أشار إليه مسكناً اضطرابه، ثم ودعه وجلس في غرفته ينتظر دخول الأمير عبد الله.

خلا تشرشل بالأمير ومع الأول سكرتيره ومع الثاني كاتبه الخاص عوني عبد الهادي يترجم له ما يقال. وافترق الوزير والأمير بعد ساعة متفقين على كتمان ما دار بينهما وخلاصته:

١. أن تؤسس في شرق الأردن حكومة وطنية يرأسها الأمير عبد الله.
٢. أن تكون هذه الحكومة مستقلة استقلالاً إدارياً تاماً.
٣. أن يساعد البريطانيون هذه الحكومة بما يكفي لنفقات قوة تستطيع توطيد الأمن فيها.
٤. أن تعمل هذه الحكومة مسترشدة برأي مندوب بريطاني يقيم في عاصمتها عمان.
٥. أن يتعهد الأمير عبد الله بالمحافظة على حدود فلسطين وسورية من كل اعتداء بدوي أو حضري.
٦. أن يعتبر هذا المشروع كتجربة مدة ستة أشهر فإن أحسن تنفيذه استمر وإلا أعيد النظر فيه.
٧. أن يتعهد الأمير بالمحافظة على مركزين للطيران تنشئهما الحكومة البريطانية في عمان والكرك.

كما دارت مذاكرات ابتدائية في شؤون أخرى تناولت واردات الجمارك وحصة شرق الأردن منها، فعهد تشرشل بإتمامها إلى هربرت صموئيل.

وبعد عودة الأمير من القدس كلف رشيد طليع رسمياً أن يؤسس له حكومته (المؤقتة) وسماه (الكاتب الإداري) كما سمي أعضاء الحكومة (مشاورين).

وهكذا قامت إمارة شرق الأردن بمعناها المعروف كما قامت بها مؤسسات الدولة الحديثة.

من يقرأ مجريات الأحداث ونصوص المعاهدة ربما تكون له بعض الملاحظات والتعليقات لا بل الاتهامات. ولكن الحقيقة أن مجريات الأمور تدل على مدى بعد نظر المغفور له عبد الله بن الحسين وقدرته على التعامل مع الأحداث وبكل جرأة وشجاعة قل أن تتوفر في القيادات العربية المعاصرة. فحين توقيع هذه المعاهدة ولدى وصول جلالته رحمه الله إلى الأردن كانت الأقطار العربية دون استثناء تقريباً محتلة وكان التخلف والفقر والجهل والأمية هو السائد بين أبناء الوطن العربي. بينما كانت الدول المحتلة لهذه الأقطار تمثل قمة التقدم وفي مختلف مناحي الحياة، لذلك وجد عبد الله أن ليس أمامه سوى التعامل مع الواقع وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فالشعوب العربية كلها لم يكن بمقدورها آنذاك التصدي للقوى المحتلة الغاشمة. ورجل السياسة الحقيقي ورجل الدولة هو من يستطيع أن يقدر ما يملك من إمكانيات وما يملك الخصم من الناحية الأخرى ثم يقرر المواقف التي يجب أن تتخذ حفاظاً على سلامة العباد والبلاد.

وصف رحلة من عمان إلى جرش ١٩٢١م

قام خير الدين الزركلي مؤلف كتاب (عامان في عمان ١٩٢١ – ١٩٢٣م) يرافقه كل من علي آغا زلفو وشكري القهوجي وشريف شاهين برحلة من عمان إلى جرش والحصن ثم إربد ووادي عفرة وكفر أسد ثم مخربا وإلى جسر المجامع. ومنه بالقطار إلى حيفا فطولكرم فيافا والقدس ثم العودة إلى السلط فعمان. وكان ذلك عام ١٩٢١م.

يقول صاحب الرحلة: في منتصف الطريق بين عمان وجرش لاحت لنا عين ماء، فترجلنا وجلسنا، وأقبل أربعة خيالة من الجراكسة فنزلوا على مقربة منا، تبين لنا بعد فترة أن أحدهم هو المعتمد البريطاني في جرش وإسمه (منتون) أما هذا المكان فهو صويلح.

بين جرش والحصن أحراج جميلة. وبعد جرش بنحو سبعة كيلومترات شجرة كبيرة تظل أكثر من مائة إنسان يسمونها شجرة (المنوى) تقام تحتها أفراح الكثيرين من أهل تلك المنطقة كما يقصدونها للزيارة والتبرك.

في الطريق من جرش إلى الحصن واجه الرحالة الثلاثة قاطع طريق استطاعوا التغلب عليه بهمة شكري القهوجي الذي وصف بأنه كان فاتكاً صوالاً وكان مناضلاً شرساً في وجه الفرنسيين.

وصل الركب الحصن ومكث فيها بعض الوقت وعند الخروج منها لاحت لهم ذرى (حرمون) جبل الشيخ. ثم كان الوصول إلى إربد والتي كانت تضم أبنية عثمانية فاخرة بالنسبة لذلك الزمن لاسيما مبنى السرايا وبعض ملحقاتها، كما رأوا فيها حركة تجارية لا بأس بها. ثم من إربد صحبنا دركي حيث اخترقنا وادي العفر وعدة قرى إلى أن بلغنا كفر أسد. وهناك قيل للدركي إن الطريق إلى جسر

الجامع غير مأمونة فجبن الدركي وعاد أدراجه. فقام مدير الناحية بتكليف دركيين بمرافقتنا ومررنا ليلاً بقرية (مخربا) فبتنا فيها. وفي الصباح انحدرنا إلى الفور ومررنا ببناء فيه خمس قباب قيل لنا إنه قبر معاذ بن جبل وابنه سليمان.

يوم ٢ أيار (مايو) ١٩٢١م صدرت الإرادة بتعيين صاحب هذه الرحلات مفتشاً للمعارف. وتبعاً لهذه الوظيفة فقد قام المفتش بجولة في ٩ أيار (مايو ١٩٢١م برحلة مرّ فيها بقرى وادي السير وناعور وخربة النابلسي ومأدبا، ثم العودة إلى ناعور فوادي السير فصويلح فالسلط ومنها إلى عمان التي بلغها يوم ٢٧ أيار (مايو).

وادي السير – قرية نظيفة جميلة في واد خصيب، تبعد عن عمان سبعة كيلو مترات إلى الشرق، فيها نحو ٢٥٠ بيتاً وأكثر سكانها من شراكسة القفقاس، نزلوا بها وعمروها أواخر القرن التاسع عشر. يقول الراوي – لم اجتمع بأحد من شراكسة وادي السير إلا حدثني بقصص من وقائعهم مع (عباد) أقرب العشائر منهم. وكان أهل وادي السير يعنون بالحياكة حتى أن أحدهم واسمه الشيخ موسى – وهو من تلاميذ الأزهر – أخبرني أن أمه كانت تنسج له كل ما على جسده قبل عشرين عاماً.

وأما ناعور فمن أطيب تلك البقاع مناخاً، بينها وبين وادي السير مسيرة ساعتين، فيها نحو ١٢٠ داراً، وهي محلتان متقابلتان: شرقية يسكنها المسلمون – وكلهم شراكسة – وغربية تسكنها عوائل مسيحية.

عمرانها حديث يرجع إلى نحو عشرين سنة خلت، وأول من نزلها من الشراكسة (الخص بك) وهو شيخ طاعن في السن مهيب الطلعة لا يعرف غير الشركسية، كان أحد أبنائه يترجم بينه وبين زائره.

وفي بيته عرف الزائر أنه والد زوجة الأمير شكيب أرسلان أعلم الباحثين في شؤون الشرق الإسلامي تلك الأيام.

مأدبا - بلدة عامرة أكثر سكانها مسيحيون، ولآثارها القديمة شأن كبير. زار الراوي وقائم مقام مأدبا أحد أهاليها ويدعى يوسف معايعة. الراوي يقول إنه (يوسف معايي) ولكن الأصح أنه معايعة وهي العائلة المعروفة في مأدبا. وكان الأمير أنعم عليه برتبة قائد (بيكباشي) الفخرية، وقد توافد عليه المهنئون يأكلون الحلوى ويشاركونه سروره. ويتمنون أن يهنئونه (بالبشوية) وكان سروره عظيماً عندما يسمع هذا التمني.

أما صويلح يقول الراوي فهي غاية في جودة المناخ وعذوبة الماء وطيب الهواء، وهي على الطريق بين عمان والسلط، أهلها شركس وشيشان وبيوتها نحو ٢٠٠ منها ١٢٠ للشيشان والبقية للشركس. وهما ليسا فريقاً واحداً كما يظن أغلبية الناس فبينهما فروقاً كبيرة في اللغة والعادات والمذهب. الشيشان شافعية والشراكس أحناف.

من غرائب آداب الشركس أن الأب وابنه وحفيده لا يجتمعون في مكان واحد. وكذلك يُمنع اجتماع الأب وابنته وصهره في مكان واحد. ويمنع جلوس المرأة مع زوجها على مائدة واحدة. وهذه العادة توجد عند بدو الجزيرة العربية وبلاد المغرب العربي. ففي بلاد المغرب يعتبر معياراً للرجل إذا أكل مع النساء.

في السلط جرى حديث عن البداوة وطرائق النجاة من شر المعتدين منهم، وكثر المتكلمون وكانوا جماعة. وكان مما قالوه:

يمر السالك بالأعرابي في البادية، فينظر الأعرابي إليه نظرة الطامع به الوازن نفسه، هل يستطيع سلبه أم هناك ما يمنع فإن رجح له الأول اعترضه وإلا تأوه

ولوى وجهه، وفي نفسه أن غنيمة عرضت له وفاتت.

ولا يخلو سالك البادية من أن يكون أحد ثلاثة:

إما عزيز الجانب أو في قوته ضعف، أو ضعيفاً بادي الانحلال، الأول يمكن أن يجري في الأرض مرحاً ويسلم على من يلقاه في طريقه ويطلب ما شاء من (المعزب) المضيف والذي يرى الشرف في خدمة القوي. أما الثاني فعليه أن يلتزم بعدة قواعد لسلامته، لا يكثر من التلفت، لا يسلم على أحد في طريقه ما لم يبدأه السلام، همز الجواد ليظهر علائم النشاط والقدرة على الكرّ والفرّ، أن يكون جهوري الصوت، لا يكون منفرداً، أن يضع بندقيته أمامه كالمتهيء للشر، لا يكثر من الكلام ويلاطف مضيفه دون أن يظهر له ضعفاً. أما الثالث فعليه أن يسالم من يرى ويكثر النزول في خيام العرب لكسب ودهم، وأن يلاطف من يعترضه، والأولى أن يلقى إليه ما يطلب فذلك أحفظ لحياته.

لواء الكرك: عن الكرك يقول الراوي – أهالي هذا اللواء تغلب عليهم طبائع العرب الرحالة، وهم لذلك يمضون أيامهم وسنيهم تحت بيوت الشعر في الوقت الذي يمكنهم فيه بناء البيوت الحجرية. ثم يعد قبائل وعشائر الكرك وكلها أصبحت معروفة ولا داعي لذكرها، ومن ملحقات الكرك في السابق بنو عطية وبنو حميدة وقضاء الطفيلة ومعان، وكان يلحقها قضاء العقبة من الوجهة العسكرية.

طباع أهل الكرك: يغلب على الزعماء من رؤساء هذه البلاد حب الرياسة والتحكم، وفيهم خصال حميدة كإكرام الضيف والمحافظة على الجار وحماية الغريب واحترامه وعدم التعرض له بسوء ما دام محافظاً على أدبه وملتزماً بقواعد السلوك المرعية.

عن الطراونة يقول: تخرج هذه العشيرة عند الحاجة من ٢٠٠ – ٢٥٠ خيال ومن ٤٠٠ – ٥٠٠ راجل ثلثاهم مسلحون ببنادق ألمانية وثلث ببنادق توكية وإنكليزية. وتعد عشيرة الطراونة في الدرجة الأولى من حيث الغنى بين قبائل الكرك لكثرة مواشيها واتساع أراضيها، وانحصار همّ أفرادها في الأعمال الحيوية المشروعة. وهم أطوع عشائر الكرك للدولة المالكة وأكثرهم أبنية.

المجالي – يقدر عدد بيوتهم من ١٠٠ – ١٣٠ داراً وعدد نفوسهم من ٦٠٠ – ٨٠٠ منهم مئة وخمسون خيالة ومئة راجل والبقية إناث وأطفال وعجزة. وزعامة هذا اللواء تنحصر في هذه القبيلة منذ نيف ومئة سنة. ولكن أمرهم أخذ بالضعف لتعدد الزعماء منهم وكثرة مطامعهم (الأرستقراطية) وانقسامهم.

أهلهم من تميم نجد نزحوا منها إلى الخليل وتولوا أوقافه. وكان جدهم يأتي إلى هذه البلاد لجمع الأموال لمقام سيدنا الخليل. وهذا الجد يدعى مجلي أو (جلال) ومنذ ذلك الوقت استفحل أمر أولاد مجلي في البلاد وأبرزوا كل شجاعة في حروبهم مع بقية العشائر إلى أن تولوا رئاسة اللواء.

أما المعايطة فهم أكثر عشائر الكرك عدداً وأقرب إلى البداوة يقضون معظم أيام سنتهم تحت بيوت الشعر، وهم أهل غنم وبقر.

الصرايرة – يضاهون المجالي بكثرة نفوسهم، لا زعيم لهذه العشيرة وأمورها كلها مفوضة إلى حسين باشا الطراونة. عدد منازلهم من ١٨٥ – ١٩٠ منزلاً ونفوسهم يتراوح بين ٦٠٠ – ٧٠٠ نفس عندهم من الخيل ٧٢ رأس، عدد رجالهم المسلحين يقدر بنحو ٣٥٠ منهم ١٠٠ خيال. يدفعون للحكومة سنوياً عن أموالهم وأعشارهم وأغنامهم مبلغ ٥٠٠ جنيه، وهو مبلغ قليل نسبةً لغناهم ومواشيهم.

النصارى في الكرك: من قراهم قرية حمود السماكية وآدر وعليان والربة هذا عدا عمن يسكنون في الكرك ذاتها، وهم أقرب إلى المدنية من بقية عشائر الكرك، غير أنهم لا يختلفون عنهم في المأكل والملبس والعادات، ويشتغل أكثرهم بالتجارة والزراعة، وهم يسكنون غالباً بيوت الحجر.

تقدر منازل جميع المسيحيين بـ ٢٢٠ داراً تحتوي على ٢٠٠٠ ونيف من النفوس، منهم ما ينوف عن ٦٠٠ مسلح وعدد خيلهم قليل وهم لا يخرجون أكثر من خمسين خيالاً.

منهم الهلسة منازلها ٨٥ – الحدادين ١٥ منزل – المدانات ١٥ – الصناع ١٢ داراً – الزريقات ١٥ – البقاعين ٢٣ منزلاً – الحجازين ٥٤ منزلاً.

الهلسة يقال بأن أصولهم مصرية أتوا إلى الكرك قبل ١٥٠ سنة وكانوا ثلاثة أخوة وهم أكثر فرق النصارى وأغناها. يرأسها عودة بك القسوس، كلهم روم يتبعون بطريركية القدس.

الحدادين: أقدم من عشيرة الهلسة في الكرك.

المدانات: أصلهم من بقايا الغساسنة.

البقاعين: أصلها من البقاع، يسكن قسم منهم في قرية آدر.

الزريقات: أصلهم من بصرى الشام.

الحجازين والعكشة: يسكنون قرية السماكية وبعضهم في قصبة الكرك، مختارهم حنا أفندي الزيادين.

الصناع: يتبعهم المسنات وعائلة العزيزات التي ساعدت جيش خالد بن الوليد في معركة مؤتة.

وهؤلاء جميعاً عاشوا مع إخوانهم بقية عشائر الكرك المسلمة بكل حب وولاء.

ومن عشائر الكرك المعروفة النوايسة والشمايلة والذين يقال بأنهم نزحوا من قرية (تل شهاب) في حوران السورية ولهم في تلك القرية أقارب وأولاد عمومة إلى هذا الحين.

وكذلك المحادين والمدادحة والحباشنة والضمور والعضايلة والسحيمات والمبيضين.

الوهابيون في شرق الأردن

أصبح الأمير عبد الله يوم الأحد ١٣ آب (أغسطس) ١٩٢٢م فدعا إليه رئيس المستشارين الركابي باشا، وأخبره بأن في جسمه توعكاً وأنه سينتقل بمقره وحاشيته ورجاله إلى صويلح.

وانتقل المقر وأمير المقر إلى صويلح فعلاً عشية هذا اليوم، وأرسل إلى رئيس المستشارين الركابي باشا بلاغاً يقول فيه أنه سيمكث في عزلته هذه ثلاثة أيام التماساً للراحة، وأذاع رئيس المستشارين خلاصة البلاغ في دوائر الحكومة كسائر ما يرد عليه من الإدارات المطاعة وبات صاحب السمو الملكي ليلة الاثنين وليلة الثلاثاء في أطراف صويلح محاطاً بخدمه ومرافقيه وأمنائه.

ونهض الناس في عمان صباح الثلاثاء على دوي الطبل الشديد، فتسابقوا إليه يسألون عما حدث، وكان من العادة – قبل صيرورة عمان عاصمة – أن يضرب هذا الطبل استنفاراً لأهلها وإنذاراً بوقوع حادث فجائي مخيف. ولم يلبثوا أن سمعوا النذير يصيح بأن الوهابين أغاروا على قرى بني صخر المجاورة لعمان وأن القتال لا يزال ناشباً بين الفريقين.

وما أن انتصف النهار حتى كانت الحكومة قد سيرت ما عندها من القوة العسكرية وما لحق بها من البدو، نجدة لبني صخر، وأخذ الركابي باشا يغدو ويروح بسيارته بين عمان وصويلح وبين بيته ودار رئيس المعتمدين البريطانيين في عمان، وأمسى المساء وأخذنا نسمع بعمان صوت الرصاص المتبادل من العشي إلى الصباح. وقد مكث الركابي باشا عند رئيس المعتمدين إلى نحو نصف الليل يحاول عبثاً أن يقنعه بالسماح للطائرات والدبابات البريطانية الاشتراك في القتال. وكانت هذه الحادثة أول غارة هاجم بها الوهابيون شرق الأردن.

ودام القتال من فجر الثلاثاء إلى ضحى الأربعاء وقد طارت الطائرات بعد أن تغلب عرب شرق الأردن على المغيرين من الوهابيين وعادت فأخبر راكبوها بأنهم لم يروا أحداً. ولقد أبلى رجال بني صخر في تلك الواقعة بلاءً عجيباً ولاسيما شيخ مشايخهم مثقال باشا الفايز ومنور الحديد وحديثة الخريشة، ووردت في اليوم التالي برقية على الأمير عبد الله من مصر ببيتين من الشعر قالهما الأستاذ شاعر العرب الشيخ عبد المحسن الكاظمي، البيت الثاني منهما يقول:

وليحيى أقوام مثقال فقد وزنوا   من الرجال بمثقال قناطير

وكان يوم الأربعاء يوم ذعر أيضاً فالأخبار وردت بأن جموع الوهابيين لجأت إلى «العمري» على نحو ثمانين كيلو متر من عمان، فقصدتهم الدبابات الإنجليزية وعادت وجنودها يزعمون بأنهم لم يهتدوا إلى الطريق.

وعاد سمو الأمير يوم الخميس بعد أن تم جلاء المهاجمين، وعندما التقى راوي الأحداث بالشيخين حديثة الخريشة ومنور الحديد أخبراه بأن عدد الوهابيين كان نحو ألف وخمسمائة مقاتل وأن قتلاهم لا تقل عن ثلاثمائة، وقد قتل من بني صخر وغيرهم جماعة بينهم ابن عم الشيخ مثقال.

وفي ضحى هذا اليوم سافر الركابي إلى القدس يشكو إحجام رئيس المعتمدين بعمان عن الإشارة إلى الطائرات والدبابات بمساعدة حكومة الأمير عبد الله ورجال منطقته في هذه الواقعة، فمكث يومين وعاد يوم السبت وأعلن أنه اجتمع بالمندوب السامي (هربرت صموئيل) وأن المندوب وعده باسترداد دومة الجندل (الجوف) من الوهابيين وضمها إلى شرق الأردن.

استخارات إمام اليمن

هذه رواية صحفي زار اليمن أيام حكم الإمام أحمد وكان من المعروف أن اليمن قبل ثورة ١٩٦٢م كانت دولة ملكية تعرف بإسم «المملكة المتوكلية اليمنية» وكان الإمام أحمد هذا هو آخر ملوك اليمن تقريباً فبعد وفاته تولى الحكم ابنه الإمام البدر والذي لم يستمر في الحكم أكثر من عشرة أيام حيث قامت الثورة بعد ذلك وأعلنت قيام الجمهورية العربية اليمنية وفي هذه الزيارة للصحفي يروي لنا جانباً من طريقة الإمام أحمد في حكم البلاد.

كان من المقرر أن تستمر زيارة هذا الراوي أسبوعاً واحداً ولكنه قضى شهرين فكيف كان ذلك؟

كان مقرراً أن يزور ثلاث مدن «صنعاء» و«تعز» و«الحديدة». فوصل أولاً إلى صنعاء ونزل في «دار الضيافة» وكانت أشبه بالخان الذي قرأنا عنه في ألف ليلة وليلة الذي كان ينزل فيه المسافرون لراحتهم وراحة دوابهم ولم تكن هناك فنادق في هذا العهد فكانت الإقامة في دار الضيافة بالمجان نوماً وطعاماً، على نفقة الدولة التي تتركز في شخص الإمام... وكان الطعام في هذه الدار وفيراً ويتكون من عدة أطباق، الطبق الرئيسي فيها سائل مائع أشبه بالملوخية لا طعم له ولا نكهة... أما اللحم فيطهى بطريقة تذهب بطعمه وشكله... وليس للنزيل حيلة في الاستعاضة عن طعام دار الضيافة بطعام يشتريه من الخارج لأن الأطعمة المحفوظة التي تباع في السوق أوعيتها لا تطمئن شكلاً فما بالك موضوعاً؟! والمطاعم الموجودة في المدينة لا تقدم إلا نفس الطعام الذي يقدم في دار الضيافة، مع فارق هام أنك في دار

الضيافة لا ترى أين وكيف يُطبخ الطعام، ولكن في المطاعم ترى بنفسك وأمامك كيف يطبخ الطعام والأواني التي يطبخ بها وتستعيذ بالله مما ترى.

عشاء على مائدة محمد البدر إمام اليمن

ولم تكن المشكلة في دار الضيافة الطعام فقط، بل الوحدة القاتلة فأنت بين خليط من شعوب العالم لا تألف سحنتهم ولا تعرف لغتهم... ولو شئت الترويح عن نفسك بالخروج إلى شوارع المدينة الضيقة الترابة الصاعدة الهابطة... لابد وأن يكون خروجك ليلاً لأن خروج النهار يعرضك لحرارة الشمس الملتهبة ورطوبة الجو الخانقة... وترى في كل دكان صاحبه جالساً على الأرض وقد وضع إلى جانبه «حزمة قات» – النبات المخدر الذي عرقل نهضة اليمن سنوات وأجيال، وترى صاحب الدكان يضع أعواد القات في فمه ويمضغها فترة ثم يخزنها في جانب فمه... ويمضي يمضغ ويخزن حتى ينتفح أحد شدقيه... وبعد ذلك يأتي دور «التسييح» والتسييح بالنسبة لمدمن الحشيش أو الأفيون بشرب سائل ساخن وهو الشاي غالباً... أما بالنسبة لمتعاطي القات فهو بشرب جرعات من الماء البارد من قلة فخار يضعها إلى جانبه بجوار رزمة القات... وإذا ما وصل مدمن المخدرات إلى حد التشبع من التخدير تصلب جسده وفقد وعيه وقام يتخبط ويتعثر في طريق عودته إلى بيته الذي تقوده إليه قدماه، دون حسٍ أو شعور كما تعود الدابة إلى بيت صاحبها دون مرشدٍ أو قائد... وما يكاد يصل إلى فراشه حتى يرتمي عليه كقطعة جماد صماء فلا ينهض إلا عصر اليوم التالي. وقد استشرى خطر القات في اليمن في عصر الأئمة قبل الثورة، وكانت له زراعات واسعة حتى في مزارع الإمام نفسه.

والزائر لليمن اليوم وقد نهضت بها الثورة نهضة كبيرة شاملة في جميع نواحي الحياة والعمران لا يكاد يعرفها إذا كان قد زارها في عهد الأئمة. المباني ذات الطابع البدائي والصرف الصحي في قنوات رأسية محفورة على واجهة البيت تصل ما بين

دورات المياه وأرض الشارع. والمرأة كانت تعيش في حجاب كامل يغمرها من قمة الرأس إلى أخمص القدمين. وكانت إذا ما سارت في الطريق ليلاً يسبقها غلام يحمل فانوساً مضاءاً حتى يحذر المارة الاقتراب منها أو اعتراض طريقها وكانت إذا ما زارتها النساء يخلعن أحذيتهن ويضعنها على باب البيت الخارجي فإذا ما عاد صاحب البيت فجأة ورأى هذه الأحذية على الباب قفل راجعاً من حيث أتى ويغيب الفترة التي يعتقد أن الزائرات قد انصرفن فيها ثم يعود إلى البيت.

ومر أسبوع على زائر اليمن أدرك فيه السأم والملل وقال لمرافقه من رجال التشريفات في قصر الإمام:

أريد السفر إلى تعز.

لا بأس.

متى؟ عليك أن تنتظر.

أنتظر ماذا؟

صدور أمر جلالة الإمام.

وانتظر أسبوعاً آخر ولم يصله أمر الإمام بالسفر. واستوضح مدير دار الضيافة:

متى يصدر أمر الإمام؟

الأمر يتوقف على الاستخارة – جلالة الإمام لا يصدر أمراً إلا بعد الاستخارة وعندنا طائرتين صغيرتين تسافران بين صنعاء وتعز والحديدة، ولكنهما لا تقلعان إلا بأمر الإمام والإمام لا يصدر أمراً إلا بعد استخارة –.

كم تستغرق هذه الاستخارة؟

أنت وحظك!

وكان محظوظا إذ صدر أمر الإمام بسفره بعد أسبوع آخر. وسافر إلى تعز ولم يجدها تختلف كثيراً عن «صنعاء» بالرغم من أنها العاصمة السياسية والإمام يقيم فيها معظم الوقت. وطالت إقامته في تعز وأدركه الضيق والسأم وهو يقيم أيضاً في دار للضيافة وكان قد طلب فور وصوله تعز مقابلة الإمام وإجراء حديث معه وقيل له طبعاً: لا بأس... ولكن انتظر إذن الإمام. وأدرك من هذا الجواب أن عليه أن ينتظر الاستخارة مرة أخرى. وانتظر أسبوعين حتى أذن له الإمام بمقابلته... وذهب إلى القصر أعلى قمة الهضبة المشرفة على تعز. ورآه قصراً متواضعاً رغم ضخامته. وساروا به في أروقة ودهاليز وهو يعتقد أنه سيلتقي بالإمام في قاعة العرش أو في مجلسه الشعبي أو من الجائز في مكتبه الخاص. ولكنه ذهل عندما دخلوا به على الإمام في غرفة صغيرة تكاد تكون عارية من الأثاث ورآه جالساً على الأرض مع غلام صغير يشتركان في تسيير قطار على دوائر من القضبان... لعبة الأطفال المعروفة... وكان الإمام والصبي يهللان ويصفقان مرحاً وطرباً عندما يتوقف القطار في إحدى محطاته أو يعبر كوبري «جسر» أو يطلق صفارته. واستقبلني الإمام مرحاً ومد يده يصافحني ويشدني لأجلس معه إلى جانبه – وأمر التشريفاتي المرافق له بالجلوس أيضاً. واشتركوا جميعاً في لعبة القطار، واحلوت اللعبة ومضى الوقت. ولم يجد بداً من أن يستأذن الإمام في حديث صحفي فقال: لا بأس. والتفت إلى التشريفاتي وأصدر أمره، هذه المرة ويا للعجب بدون استخارة: -أعطيه الحديث.

وفاجأه بالوقوف ورفع صورة له كانت معلقة على الحائط وقال له:

خذ هذه الصورة وانشرها مع الحديث مع تصحيح الخطأ فيها، هل عرفته؟

فقال: الحقيقة إنني أراها صورة جميلة.

نعم، لولا ما بها من خطأ... ألم تلحظه بعد؟

عفواً أرجو إرشادي إليه؟

ذقني تراها بيضاء في الصورة... وها هي كما تراها أمامك سوداء.

وأدرك في داخله أنه يصبغ ذقنه ويريدها في الصورة مصبوغة أيضاً... ووعده بإصلاح الخطأ وانتهزها فرصة ليطلب السفر إلى الحديدة... وكان جواب الإمام كلمة واحدة: انتظر.

وكاد يصرخ... أنتظر ماذا؟... الاستخارة... وكتم الصرخة في صدره. وسأل التشريفاتي في طريق العودة إلى دار الضيافة: هذا الصبي الذي يلعب معه الإمام هل هو ابنه؟

لا، إنه غلام يتيم يتبناه الإمام ويرعاه ويؤثره بحبه وحنانه ويعتبره أعز أبنائه.

وانتظر أيضاً أسبوعين حتى صدر الأمر من الإمام بسفره إلى الحديدة. وفي مطار تعز يوم سفره رأى طائرة الإمام الخاصة تُعد لرحلة إلى المملكة العربية السعودية. وأدهشه وجود عشرات القدر «الجرار» الفخارية مرصوصة تحت جناح الطائرة والعمال يقومون بشحنها في مخزن الطائرة. وسأل عنها: هذه القدر ماذا بها؟ هدايا!

لا، إنها مملوءة بالماء لأن جلالة الإمام لا يشرب ولا يستعذب إلا ماء اليمن.

وسأل: متى تقلع طائرة الإمام؟

وجاءه الجواب الفوري: حتى يصدر أمر الإمام.

ومتى يصدر أمر الإمام؟

بعد الاستخارة.

وأسرع إلى طائرته المسافرة إلى الحديدة. وفي الحديدة قضى أياماً عصيبة وعانى كل الأعراض النفسية والعصيبة التي يعانيها البشر، حتى أكمل الشهرين... كان عليه أن ينتظر عودة الإمام من رحلته في السعودية حتى يصدر أمره بسفره عائداً إلى القاهرة... بعد الاستخارة طبعاً!!!

مذبحة المماليك

دماء على جدار القلعة

تخلص الأمير المملوكي أمين بك برفق من عناق زوجته سلمى وهي تحاول أن تثنيه عن الخروج بدعوى أنها على وشك الوضع. تردد قليلاً حين وجدها مضطربة بسبب حلم أزعجها. لكنه عاد ليمتطي صهوة جواده المطهم للانطلاق إلى القلعة. تلبية للدعوة التي تلقاها أمراء المماليك بعد الرضا عنهم، للمشاركة في الاحتفال الذي دعا إليه محمد علي باشا والي مصر بمناسبة سفر ابنه طوسون باشا على رأس قواته الذاهبة إلى الحجاز.

ولم ينسَ أمين أن يطمئن امرأته سلمى بأنه لن يتأخر في العودة فور انتهاء الحفل الذي يجب أن يذهب إليه، لعلمه أن عمّه محمد بك الألفي كبير الأمراء قد اعتذر عن عدم الحضور لوجوده بالصعيد. وأحس أنه ليس من اللائق أن يغيب هو أيضاً على الأقل ليكون ممثلاً لأستاذه الألفي الذي لا تزال علاقة الوالي به سيئة متوترة بسبب مساندته لخورشيد باشا الذي أزيح عن الولاية.

دخل أمين بك بجواده من باب العزب المفتوح للمدعويين، وانطلق بجواده في جهد وعناء على الطريق السلطاني الوعر المتعرج المنحوت في الصخر والصاعد إلى رحبة القلعة حيث قصر الجوهرة مقر الولاية. وصل أمين بك إلى بهو الاحتفالات الكبرى الذي تتصدره قاعة الاستقبالات، كان الوالي يجلس متربعاً في صدر القاعة وإلى جواره ابنه طوسون باشا وحوله رجال الدولة وأعيانها وقائد الجند الأرناؤوط. وعلى الجانبين المتدين بطول البهو كان البكوات المماليك يجلسون على الكنبات الطولية المتساندة على الجدران وهم في أغلى زينتهم يرتدون أجمل

وأثمن حلل التشريفة المملوكية. وأخذ أمين بـك مكانـه بـين رفاقـه مـن البكـوات الأربعة والسبعين يحيط بهم أربعمائة من الأبناء والأتباع.

وقبل بدء الاحتفال، تقدم الأمراء المماليك إلى حيث يجلس الباشا في صدر القاعة فتلقاهم بالبشر والحفاوة وقدمت لهم القهوة وشكرهم على تلبيتهم دعوته معبراً عن سعادته بما يناله ابنه من التكريم، إذا ما ساروا معه في موكبه خلال شوارع المدينة حتى بلوغه معسكر الحملة في قبلة العزب شمالي العاصمة.

وأعرب الأمراء عن شكرهم للوالي لدعوته إياهم، واعتذروا عن تخلف بقية إخوانهم الذين ما زالوا في الصعيد، وقابل الباشا اعتذارهم بالتجاوز والإعراب عن تسامحه وحسن مقاصده للمتخلفين. وتجاذب هو وضيوفه أطراف الحديث هنيهة ثم ما لبث أن أذن مؤذن الرحيل. وقرعت الطبول وصدحت الموسيقى إعلاناً بالتأهب لتحرك الموكب.

نهض أمين بك ورفاقه من الأمراء المماليك وقوفاً وكان هو آخرهم لوصوله متأخراً وساروا جميعاً إلى حيث يأخذون مكانهم في الموكب الفخم. وبدأت الفرسان الولاة يقودهم آمرهم «أوزن علي» يتبعهم والي الشرطة والآغا محافظ المدينة والمحتسب، وتليهم كوكبة من الجنود الأرناؤوط يقودهم صالح أقوس. وجاء بعدهم المماليك يتقدمهم سليمان بك البواب، ومن بعدهم بقية الجنود الأرناؤوط فرساناً ومشاة. ووراء هؤلاء كبار المدعويين وأصحاب المناصب.

وندت نظرة إلى الخلف من أمين بك وهو في آخر طابور المماليك، فوجد أن الطابور الذي يليهم يضم كوكبة أخرى من الجنود الأرناؤوط الذين كانوا قد تأخروا قليلاً في السير عند مبارحتهم قاعة الاحتفالات. ولاحظ أنهم ينحنون على الكنبات الممتدة على جوانب القاعة والتي كان يجلس عليها البكوات أثناء الحفل.

وتصوّر أنهم يرتّبونها قبل المغادرة لكن تسرّبت إلى سمعه قعقعة سيوف وسلاح كانوا يأخذونها من داخل الكنبات ويضعونها حول أوساطهم، ولم يكن قد شاهدها معهم من قبل إلا أنه لم يهتم بتلك الملاحظة باعتبارهم حرّاساً للموكب، واستمر في طريقه خلف صفوف رفاقه، ولفت نظره أن كبار المدعويين وأرباب المناصب لم يتجاوزوا القاعة بعد صفوف الأرناؤوط ولم يغادروها بينما أقفل الباب بقوة بالمزاليج الحديدية.

استشعر أمين بك القلق حين تنبّه إلى أن جنود المؤخرة قد تحوّلوا عن الطريق في صمت وسكون، وبدأوا يتسلقون الصخور والأسوار والجدران المشرفة على منحدر الطريق، وأطل أمامه بعيداً فإذا مقدمة الموكب تواصل سيرها وتخرج من باب العزب. وقبل أن يجتاز طابور المماليك نهاية الطريق، كان جنود الأرناؤود قد أسرعوا فارتجوا الباب الضخم وأقفلوه بإحكام ليفاجأ المماليك بأنهم أصبحوا محصورين داخل الطريق الصخري الضيق بين باب الخروج المغلق في الأمام وبين باب القصر المغلق في الخلف.

ولم تمضِ هنيهة انهالت طلقات الرصاص تدوي في الفضاء دفعة واحدة من جنود الأرناؤوط الذين كانوا قد اعتلوا الجدران وحين حاول المماليك التراجع إلى الخلف، وجدوا بقية الجنود ينقضّون عليهم يحصدونهم من كل اتجاه.

كان أمين بك أول من انتبه لما حدث وهو في آخر الطابور وحين رأى الرصاص ينهال على زملائه طلب النجاة، فقفز بجواده صاعداً إلى المكان المشرف على الطريق وبلغ سور القلعة ليرمي بنفسه من أعلى السور البالغ ارتفاعه ستين متراً. فلكز جواده قافزاً به متردّياً ولما صار على مقربة من الأرض قفز هو مترجّلاً تاركاً الجواد يتلقى الصدمة ويتهشّم لفوره. وكان أمين بك هو الوحيد الذي نجا من الموت من بين أربعمائة وسبعين مملوكاً جاؤوا إلى الحفل دون بنادق ولا رصاص،

عدا السيوف التي لم تستطع أن تفعل شيئاً في مواجهة الرصاص المنهال عليهم من فوقهم ومن ورائهم، ولطخ الدم جدران الطريق الذي امتلأ بجثث المماليك في أبشع عملية غدر في التاريخ الحديث.

انقض المملوك الهارب على أول جواد صادفه بعد أن أسقط صاحبه أرضاً وانطلق ينهب الأرض إلى داره، ولم يكد يقترب من الدار حتى وجد زوجته أمام الباب مذبوحة وإلى جوارها وليدها ولم يكن يدري أن جنود الأرناؤود قد هاجموا كل بيوت المماليك في القاهرة وفتكوا بكل من كانوا يلقون من أتباعهم وأبنائهم تنفيذاً لخطة الباشا واستمروا يفعلون ذلك في كل أنحاء أقاليم مصر المحروسة حتى تجاوز عدد القتلى الألف من المماليك.

وانطلق أمين بك ينهب الأرض هرباً من مصر كلها وطوال الطريق كانت تدور في رأسه دوامة، لماذا فعل محمد علي كل ذلك؟ هل كان دفاعاً عن النفس بسبب ما نما إليه من أن الأمراء قد تآمروا للفتك به بعد عودته من السويس إثر سفر جيشه مع طوسون؟ أم كان يستهدف غرس الرهبة في قلوب أبناء الشعب الذين دبّت فيهم روح الحياة والديمقراطية بعد أن نصبوه على كرسي الحكم؟

ولم تستطع الدوامة في رأسه أن تصل إلى سبب المذبحة ولكنه لم يكن يستطيع إلا أن يواصل الهرب ليختفي بعد ذلك إلى الأبد.

بعض مظاهر الحياة في فلسطين ما قبل الشتات

مدينة يافا نموذجاً

في مدينة يافا العربية مسجد يسمى مسجد حسن بك، وحسن بك هذا كان حاكماً عسكرياً لمدينة يافا أيام الحرب العالمية الأولى، وكان شاباً في الثلاثين من العمر، عُرفَ بحيويته ونشاطه، وكانت كلمته في ظروف الحرب تلك هي الكلمة الأولى في المدينة وهو الآمر الناهي. وهو في الأصل من بلدة الزبداني المعروفة قرب دمشق.

وكان من أهم أعماله في المدينة أنه شق عام ١٩١٥ طريقاً عريضاً بعرض نحو خمسين متراً، مكان الطريق الضيق الذي كان يمر بين بساتين البرتقال، وكان هذا الشارع الجديد باتجاهين وبينهما أرض مشجرة بأشجار مختلفة مثل النخيل والكينا وفي وسط الأرض المشجرة بين الشارعين أقام بناءً دائرياً من الخشب كان مكاناً لجلوس المتنزهين، وكان أيضاً مكاناً للفرقة الموسيقية النحاسية التابعة للشرطة، والتي كانت تعزف الموسيقى في أصيل كل جمعة والناس يستمعون لها، جالسين على المقاعد في وسط الحديقة أو واقفين على أرصفة الشارع، وأصبح هذا الشارع مكاناً لتنزه شباب المدينة وعدد من شاباتها المسيحيات قبيل غروب الشمس.

وأطلق حسن بك على هذا الشارع الجميل«شارع جمال باشا» وبعد الاحتلال الإنجليزي للبلاد أصبح اسمه شارع (الملك جورج). ولكنه ظل يعرف باسمه الأول كما هو متعارف عليه في كل زمان ومكان حيث يبقى الاسم الأول راسخاً في الأذهان.

أما الأثر الثاني فكان كما أسلفنا هو جامع حسن بك على شاطئ يافا

الشمالي، وكان جامعاً أنيق البناء واسعاً ومرتفعاً عن مستوى الأرض بنحو مترين، وتحت الجامع بناء مبلطة أرضه وله شبابيك في أطرافه الثلاثة، وتحيط بالجامع أرض خاصة به محاطة بسور لطيف الزخرفة المعمارية، وللجامع مأذنة عالية تشرف على حي المنشية بأكمله، وعلى البيوت التي أنشأها اليهود في القسم الشمالي منه والتي دعيت (تل أبيب) أما الناظر من المئذنة فكان يرى البلدة القديمة الداخلة في البحر بشكل (رأس عريض) وبساتين البرتقال المتاخمة ليافا من الجهة الشرقية لها.

وكان سكان يافا يتساءلون لماذا أقام حسن بك جامعه في شمال المدينة وبعيداً عن بيوت السكان. ولكن يبدو من تخطيط حسن بك أنه كان له هدف بعيد، حيث رأى أن اليهود قد أنشأوا بيوتاً لهم في القسم الشمالي من مدينة يافا، تابعة لبلديتها، وبعيدة عن البحر، وكان شاطئ يافا الشمالي لا يزال خالياً من الأبنية، وخشي أن يزحف اليهود في إنشاءاتهم إلى هذا الشاطئ فيحرموا يافا منه ويحصروا رقعة العمران فيها من الشمال، فأقام جامعه شمال يافا وعلى شاطئها بعيداً عن العمران ليكون سداً مانعاً للزحف اليهودي، ولتبقى هذه الأراضي الواسعة في شمال غربي يافا مجالاً لتوسعهم العمراني.

وهكذا كان، إذ عندما اشتدت الهجرة اليهودية إلى فلسطين بعد الحرب الأولى، أخذ اليهود يتوسعون في إنشاءاتهم شمال جامع حسن بك وأخذ أهل يافا العرب يتوسعون في عمرانهم جنوب جامع حسن بك حتى اتصلت الأبنية وأصبح جامع حسن بك في وسطها.

لم ينفق حسن بك على إنشاء شارع جمال باشا وإقامة المسجد من مال الدولة، بل جمع الأموال من السكان والمواد الأولية من التجار وبكل وسيلة مستطاعة من حاكم عسكري وفي زمن أحكام عرفية.

ومن المفارقات الغريبة أن حسن بك أتى إلى فلسطين عام ١٩٣٩م وبعد أن

ساءت أحواله المادية على ما يبدو ليطالب المجلس الإسلامي الأعلى المسؤول عن إدارة الأوقاف والمحاكم الشرعية ليعرض لهم قضيته وملخصها أنه عندما أنشأ الجامع المذكور في يافا بنى بضعة مخازن أوقفها على الجامع ليصرف من ريعها على إدارة الجامع وأقام نفسه (متولياً) على هذا الوقف، غير أن إدارة الأوقاف وضعت يدها على وقفه إثر نهاية الحكم العثماني لذلك طالب المجلس الإسلامي أن يعيد إليه إدارة وقفه أو أن يعطيه مبلغاً من المال فيتنازل عن إدارة وقفه إلى إدارة الأوقاف التي تدير وقفه عملياً. وبعد أخذ ورد قرر المجلس دفع مائة جنيه لحسن بك، ولكنه وللصدف أصر مدير أوقاف يافا د. يوسف هيكل والذي كان حسن بك هدد والده بالاستيلاء على أملاكه ونفيه لأنه احتج عليه لأخذه الأموال من السكان لإقامة إنشاءات على الحكومة أو البلدية والصرف عليها. أصر نجل هذا الإنسان الذي هدده حسن بك أن يُدفع له تعويض بقيمة خمسمائة جنيه. وهكذا كان... وبعد أن خشي حسن بك من أن لا يُعطى شيئاً انتقاماً من الابن لأبيه. وقبض حسن بك المبلغ وزار مدير أوقاف يافا مودعاً وغادر فلسطين ومعه المال حيث قضى بقية حياته في بلدته «الزبداني» متعبداً إلى أن انتقل إلى رحمة الله.

زيارة جمال باشا وأنور باشا إلى يافا واستقبالهما

كان أنور باشا وزيراً للحربية في المراحل الأخيرة من حكم الدولة العثمانية، وكان جمال باشا قائداً للجيش الرابع العثماني ومركزه مدينة دمشق، وكانت مهمة الجيش الرابع أثناء الحرب الأولى احتلال مصر، بعد عبور قناة السويس. غير أنه لم يتمكن من عبورها، وبالتالي أخذ يحارب القوات البريطانية مدافعاً عن سيناء ثم عن فلسطين وسوريا.

ولما أخذ الجيش الرابع العثماني يتقهقر في سيناء أتى أنور باشا من الأستانة إلى دمشق ليبحث الأمر مع القائد العام للجبهة، ثم غادر الاثنان دمشق متجهين إلى

الجبهة ليتفقداها قريباً من ميدان القتال، وفي طريقهما مرا بيافا ومكثا فيها قرابة يومين.

وكان في يافا مدرسة تسمى دار العلوم وكان مديرها الأستاذ عارف البديري. حيث أخبر التلاميذ ذات يوم من أيام عام ١٩١٥م بأن في يافا ضيفان كبيران وسنكون في استقبالهما في ساحة السرايا، ولذا ينبغي أن تلبسوا أفخر ألبستكم وأن تكون أحذيتكم نظيفة ملمعة.

وفي اليوم المقرر ونحو الساعة العاشرة خرج التلاميذ من المدرسة والتي كانت تقع على تلة أمام المستشفى الفرنسي. خرجوا في صف مزدوج كل تلميذين يسيران معاً وكان ترتيب التلاميذ حسب طولهم كما هي العادة والأساتذة يسيرون بجانب التلاميذ، وفي ساحة السراي وقف التلاميذ على الرصيف أمام السراي، وكان هنالك أيضاً تلاميذ مدرسة المعارف وهم أكبر سناً من تلاميذ المعهد الإسلامي. وأكثر عدداً. وكان يقف على الرصيف المقابل صف من الشرطة وبنادقهم في أيديهم. وكان هنالك صف منظفي الشوارع (الزبالة) وهم يلبسون زياً أبيض اللون جديداً، الجاكيت والبنطال قطعة واحدة وفي أرجلهم أحذية سوداء جديدة وكانوا يحملون في أيديهم مكانس جديدة مصنوعة من القش الطويل الجيد مربوط على طرف عصاة خشبية مستديرة نظيفة وطويلة، وكانت المكنسة إلى أعلى والعصاة إلى أسفل. وفي الجهة الثانية من السراي كان بعض سكان يافا وأمامهم عدد من رجال الشرطة المزودين بالبنادق يمنع الناس من تخطي الساحة.

وقف التلاميذ زهاء ساعة بانتظار الضيوف... وأخيراً سمع المستقبلون صوت سيارة ودراجات نارية وبعد لحظات قدم الموكب المؤلف من دراجتين ناريتين أمام السيارة ومثلهما في كل جانب منها، والسيارة كانت مكشوفة، يجلس في الصف الأول السائق والمرافقين وكانا ضابطين من الجيش، وفي المقعد الخلفي رجلان في

الزي العسكري وفي نحو الأربعين من العمر، وكان الذي على اليمين وسيم الوجه، أبيضه، حليق الذقن وذا شارب مفتول إلى أعلى، وهو أنور باشا. والذي عن يساره كان له شارب ولحية سوداوين ووجهه عابس بعض الشيء وهو جمال باشا. وكان الموكب يسير سيراً بطيئاً. ولما مرّ الموكب من أمام التلاميذ صفقوا له مع أساتذتهم، وأدى البوليس والزبالة التحية العسكرية. رفع البوليس أو رجال الشرطة بنادقهم إلى أكتافهم بحركاتهم العسكرية، وكذلك فعل الزبالة بمكانسهم.

ثم وقف الموكب أمام السراي وأدى رجال الشرطة التحية العسكرية، ونزل المرافق وفتح باب السيارة فنزل منها الضيفان وصعدا على الدرج ودخلا السراي يحيط بهما المستقبلون من رجال الحكومة. ولما عاد التلاميذ إلى مدارسهم أخبرهم المديريون أن هذا اليوم يوم عطلة.

ومن الأحداث التي لا تنسى في تاريخ يافا المعاصر، حادثة ضرب باخرة إنجليزية بقنابلها مصنع (واكنر) وهو مختص بسكب أدوات من الحديد، وصنع قطع غيار من الحديد لمختلف الماكينات الحديدية وإصلاح السيارات الكبيرة (معمل سكب) وكان يقوم بعمل كثير من هذه الأدوات للقوات العسكرية العثمانية والألمانية. ومع هذه الضربة سمع سكان يافا صوتاً يدوي كالرعد ويهز الأرض ورأوا قسماً من المصنع يتطاير سقفه في الهواء. وغادرت الباخرة الإنجليزية مياه يافا بعد أداء مهمتها.

ومن الأحداث التي كان يذكرها أهل يافا الكبار دائماً حادثة الطائرة الأولى التي رأوها تطير في سماء يافا وفيها اثنين من الطيارين، ولها جناحان في كل جانب. قامت بعمليات استعراضية في سماء يافا وكانت تغيب عن الأنظار ثم تظهر، ثم غابت بشكل نهائي حيث سقطت في البحر وذهب بحارة يافا في قواربهم يبحثون عن الطيارين وأخرجوهما فاقدي الحياة، وجرت لهما جنازة كبيرة وصلى المشيعون

عليهما في جامع يافا الكبير ونقلت الحكومة جثمانيهما إلى دمشق حيث دفنا بجانب ضريح صلاح الدين الأيوبي.

جوانب أخرى من الحياة في مدينة يافا

لغاية عام ١٩٢٥م كان في مدينة يافا ثلاثة مدارس حكومية إلى جانب مدارس الإرساليات الأجنبية مثل الغرير وغيرها، وكانت المدارس الحكومية الثلاثة متفرقة وبعيدة كل منها عن الأخرى، وفي سنة ١٩٢١م جمعت إدارة المعارف مدارسها في أبنية ثلاثة متجاورة أمامها ساحة واسعة مسورة، قرب المستشفى الفرنسي على طريق حي العجمي، وكانت قبل ذلك موزعة في أحياء المنشية والقصبة والعجمي. وبقيت إدارات المدارس مستقلة الواحدة عن الأخرى. وكان مديرو المدارس مصطفى مراد الدباغ ومحمد هيكل وحسن أبو الوفا الدجاني وكان الطلاب يلعبون ويختلطون معاً في الساحة المشتركة للمدارس الثلاثة. وكان من تلاميذ هذه المدارس بشير الدباغ، مصطفى الطاهر، ورشاد الدباغ، وسعد الدين جبري، وإلياس خوري وغيرهم.

عام ١٩٢٢م توحدت المدارس الثلاث السابقة الذكر في مدرسة واحدة أطلق عليها اسم (مدرسة يافا الثانوية) وأصبح لها مدير واحد هو الأستاذ سليم كاتول.

وكان من أساتذتها الأستاذ سعيد الدرهلي وعيسى القبطي وحسن أبو الوفا الدجاني وسعيد زكي الدجاني والشيخ عبد الله القلقيلي والأستاذ رشيد الريحاني وغيرهم.

وكان من تلاميذ المدرسة بشير الدباغ، مصطفى الطاهر، سعد الدين جبري، رشاد الدباغ، محمد أديب العامري، درويش رجب، حافظ الدجاني، عبد الرحمن الهباب، محمود الهباب، سلامة جبر، عادل الحمامي، ويوسف هيكل.

هذا وكان الصف الذي يلي الصف السادس الابتدائي يسمى الصف الأول الثانوي.

أما أشهر المراكز العلمية في فلسطين ما قبل الشتات فكانت «الكلية العربية»، في القدس والتي كانت تسمى قبل عام ١٩٢٤م بدار المعلمين، وكانت الكلية العربية مدرسة ثانوية كاملة تضم صفوفاً حتى الرابع الثانوي حيث يتقدم الطلبة بعده لشهادة (المترك). وكان يختار لهذه الكلية الطلبة المتفوقين في الصف السادس ومن جميع أنحاء فلسطين كما كانت تضم نخبة كبيرة من أبناء بعض الدول العربية لا سيما العراق والأردن وسوريا، حيث كانت مدرسة داخلية وذات نظام صارم في التعامل مع الطلبة سواء في مراقبة دراستهم أو دخولهم وخروجهم من المدرسة. وكان من أوائل مديري هذه الكلية الأستاذ خليل طوطح من رام الله.

وكان من أساتذتها – حبيب خوري من القدس، ودرويش المقدادي من طولكرم، وإبراهيم قمر، وجورج خميس، ثم انضم إليهم جلال زريق من اللاذقية، وضياء الدين الخطيب من القدس، وجورج معمر من الناصرة ومعظمهم كان متخرجاً من الجامعة الأمريكية في بيروت.

وكان مفتشاً للغة العربية في إدارة المعارف في هذه الأثناء الأستاذ المرحوم إسعاف النشاشيبي والذي عُرف عنه مدى تبحره وتمكنه من اللغة العربية وكان له نشاط أدبي واسع كان من كتبه (نقل الأديب) وكان يكتب في مجلة الرسالة لصاحبها أحمد حسن الزيات.

كان (هربرت صموئيل) أول مندب سامي لبريطانيا في فلسطين وكان يهودياً صهيونياً وقد عُين بضغط من اليهود في بريطانيا للعمل على إقامة المشروع الصهيوني في فلسطين. وقد قام هذا المندوب بزيارة الكلية العربية برفقة مدير

المعارف (بومن) وصحبهما في تفقدهما للكلية الأستاذ خليل طوطح مدير الكلية، وجالوا ثلاثتهم على فصول الكلية واستمعوا إلى ما كان يلقى من دروس.

ثم كانت ذكرى وعد بلفور ٢ نوفمبر – تشرين الثاني وكان هذا اليوم في فلسطين يوم إضراب، غير أن المدارس الحكومية ومنها الكلية العربية كان الإضراب محظوراً فيها ولكن طلاب الكلية قرروا الإضراب في ذلك اليوم تمشياً مع الشعور الوطني ومع الموقف الشعبي. وحاول مدير الكلية خليل طوطح ثني الطلبة عن عزمهم الإضراب.

كان يتكلم بدايةً بهدوء وشبه رجاء، ولكن أمام إصرار الطلبة على موقفهم أخذ يهددهم بعقوبات شديدة ومنها الطرد من الكلية. ولكن كل ذلك لم يجدِ، وأصر التلاميذ على موقفهم، لا بل تركوه يتكلم وخرجوا إلى الساحة وهم يهتفون ضد وعد بلفور وضد الانتداب البريطاني في فلسطين وضد الصهاينة، وخرجوا إلى الشارع حيث انضموا لطلبة الكلية الإسلامية وتابعوا سيرهم نحو مقر الحكومة، في بناية أقامها الألمان أيام الحكم العثماني مقابل باب العمود أحد أبواب القدس.

اهتزت إدارة المعارف لإضراب تلاميذ الكلية العربية وبعد أيام فوجئ الطلبة بقرار إدارة المعارف إغلاق الكلية العربية لمدة غير معلومة، فغادر التلاميذ القدس إلى مدنهم وقراهم. وبعد ذلك صدر قرار إدارة المعارف بالاستغناء عن عمل مدير الكلية الأستاذ خليل طوطح لاعتبارها له مقصراً في واجباته لأنه لم يتمكن من منع التلاميذ عن الإضراب. وكذلك الاستغناء عن خدمات الأساتذة درويش مقدادي وجلال زريق وجورج معمر باعتبارهم مساندين للإضراب.

أما الأستاذ درويش المقدادي فقد ذهب إلى العراق وأصبح أستاذاً مرموقاً فيها ومشهوراً بمواقفه الوطنية.

وبعد حركة رشيد عالي الكيلاني ١٩٤١م وفشلها سجن لعدة سنوات، وفي عام ١٩٥٢م انضم إلى وزارة المعارف في الكويت، وأصبح وكيلاً للوزارة إلى سنة ١٩٦١م، وانتقل إلى رحمة الله ليلة ١٤ آذار ١٩٦١م.

الأستاذ جلال زريق عين أستاذاً في كلية النجاح بنابلس ثم ذهب إلى بغداد وعمل هناك أستاذاً للرياضيات في كبرى مدارسها، ثم عاد إلى فلسطين وعمل بقسم الترجمة في السكرتارية العامة لحكومة فلسطين، وبعد نكبة ١٩٤٨م عاد إلى موطنه الأصلي سوريا وعمل نائباً لمدير الاستيراد والتصدير في دمشق، وبعدها عين رئيساً لقسم الترجمة في اليونسكو بباريس، إلى أن تقاعد فسكن بيروت، وانتقل إلى رحمة الله فيها عام ١٩٧٣م.

وتابع الأستاذ جورج معمر دراسته الليلية في مدرسة الحقوق بالقدس إلى أن تخرج منها وعمل محامياً في مدينة حيفا.

أما الأستاذ خليل طوطح فقد ذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتابع دراسته العليا في جامعة كولومبيا وحصل على شهادة الدكتوراه في التربية، وعاد إلى فلسطين مديراً لمدرسة (الغرندز) في مدينة رام الله. ثم غادر مرة أخرى إلى الولايات المتحدة وأخذ يعمل مع الجاليات العربية مدافعاً عن حقوق العرب في وطنهم فلسطين. وانتقل إلى رحمته تعالى في أمريكا.

بعد أسبوعين من إغلاق الكلية العربية عاد إليها طلبتها ووجدوا أن الجو بها قد تغير. فقد عين الأستاذ أحمد سامح الخالدي (والد الدكتور وليد الخالدي) مديراً لها وكان مساعداً لمدير المعارف وهو من أكبر رجال التربية والفكر في فلسطين.

وعين الأستاذ مصطفى مراد الدباغ الذي كان مديراً للمدرسة الثانوية في الخليل أستاذاً للتاريخ مكان الأستاذ درويش المقدادي، وأصبح الأستاذ إبراهيم قمر

مدرساً للجبر والهندسة بدلاً من جلال زريق، كما نقل الأستاذ سليم كاتول مدير المدرسة الثانوية في يافا أستاذاً في الكلية العربية مدرساً للكيمياء والطبيعيات.

في شهر تموز ١٩٢٦م تقدم سبعون طالباً من الكلية العربية والكلية الإنجليزية وتلاميذ المدارس اليهودية لامتحان المترك، وكان الامتحان في ست مواد، طلاب الكلية العربية كان عددهم ٤٥ طالباً وكان الطلبة يؤدون امتحانين في اليوم. وبعد فترة ظهرت النتائج، وكان الناجحون أحد عشر تلميذاً من السبعين منهم تسعة من طلاب الكلية العربية وتلميذ واحد من تلاميذ الكلية الإنجليزية وواحد من المدارس اليهودية. وكان من طلاب الكلية العربية الناجحون خمسة من أبناء مدينة يافا، وأربعة من أبناء المدن الفلسطينية الأخرى.

كانت مدينة يافا مركزاً هاماً لأنشطة متنوعة ثقافية ورياضية وصحافية وتجارية وسياسية كان ذلك أيام الحكم العثماني وبعده الانتداب البريطاني.

وكان في يافا مكتبة عامة قاعتها مبنية فوق قسم من الجامع الكبير، وكانت قاعتها تستعمل لإقامة الندوات والمحاضرات فقد ألقى فيها عدد من رجال الفكر والأدب المصريين أحاديث ومحاضرات إلى جانب عدد من أبناء يافا الذين كانوا يلقوا محاضرات تشمل مواضيع مختلفة. ومن هؤلاء خليل السكاكيني وكان مساعد مفتش اللغة العربية في دائرة المعارف أما المفتش فكان الأستاذ إسعاف النشاشيبي. وكذلك كان يحاضر الأستاذ غالب الإمام وكان من أبرز المحامين في يافا ومن أحسن المتحدثين فيها.

وكان ممن جاء إلى يافا وتكلم في ناديها المرحوم عباس محمود العقاد وأمين الريحاني. وهذه الندوات والمحاضرات شجعت بعض الشباب من التلاميذ على إلقاء محاضرات أمثال المرحومين محمد أديب العامري ويوسف هيكل وغيرهما.

وفي عام ١٩١٨م افتتحت أول سينما في يافا وكذلك داراً للتمثيل في قسم من بناية واسعة قرب شارع جمال باشا وكان عبد الرحمن الطوبجي استأجر هذا القسم من أصحاب البناء الكبير والذي تعود ملكيته لآل الدرهلي. ثم أقيمت داراً أخرى للسينما باسم سينما الحمراء ثم سينما أخرى باسم سينما نبيل على اسم ابن صاحبها. وكانت كل هذه الدور للسينما تقع في شارع جمال باشا. وكانت هذه الدور تجذب شباب يافا وتجعلهم في غنى عن دور السينما في تل أبيب.

كذلك كان أهل يافا يستمتعون برؤية الروايات التمثيلية ويقبلون على حضورها إقبالاً شديداً، حيث أخذت تأتي للمدينة فرق التمثيل المصرية المختلفة مثل فرق جورج أبيض، وعكاشة، ويوسف وهبي.

كذلك كان في يافا نوادي متنوعة أقدمها النادي الرياضي الأرثوذكسي وكان مقره في حي العجمي وكان نادياً اجتماعياً رياضياً وثقافياً. وفي عام ١٩٢٧م قام عدد من الشباب المسلم بتأسيس «النادي الرياضي الإسلامي» وكان نادياً رياضياً وثقافياً. وتكونت به فرقة لكرة القدم كانت أقوى فرق فلسطين. وفي عام ١٩٢٨م ألقى الشيخ أسعد الشقيري مفتي الجيش الرابع العثماني ووالد المرحوم أحمد الشقيري، وكان من أشهر المتحدثين في البلاد محاضرة في النادي بعنوان (الرياضة عند العرب). وبعد ذلك وقبل الهجرة بأشهر قليلة تم تأسيس (النادي العربي) على يد مجموعة من خريجي الجامعة الأمريكية والمدرسة الثانوية في يافا.

كذلك كانت مدينة يافا مركزاً للصحافة إذ كانت تصدر فيها معظم الصحف الهامة في فلسطين. وكانت أولى هذه الصحف وأقدمها «جريدة الأخبار» وأصدرها السيد بندلي غرابي عام ١٩٠٩ ولكنها لم تعش طويلاً.

أما صحيفة (فلسطين) أقدم الصحف الكبيرة فقد أسسها الأستاذ عيسى العيسى عام ١٩١١م. بدأت أسبوعية ثم كل أسبوعين ثم يومية. وكانت تباع في

عمان ودمشق وبيروت. كما أنشأ الأستاذ عبد الله القلقيلي عام ١٩٢٤م جريدة (الصراط المستقيم) كما أصدر السيد طانيوس نصر جريدة (الإقدام) في حيفا سنة ١٩٢٦م وانتقل بها إلى يافا عام ١٩٣١م ولكنها لم تعش طويلاً. وفي سنة ١٩٣٤م أسس الأستاذ إبراهيم الشنطي جريدة الدفاع وكانت يومية اشترك معه في تحريرها الأستاذان خير الدين الزركلي وسامي السراج. كما أصدر الأستاذ حسن فهمي الدجاني بالاشتراك مع الأستاذ كامل الدجاني جريدة (الجزيرة) بيافا وصدر العدد الأول منها بتاريخ ٣١ كانون الثاني ١٩٢٤م وكانت يومية ذات طابع وطني عروبي ومقاومة للصهيونية ولسياسة الحكومة البريطانية. كما أنشأ الشيخ سليمان التاجي الفاروقي جريدة (الجامعة الإسلامية) سنة ١٩٣٢م.

كما كانت مدينة يافا مركزاً للتجارة في فلسطين، فهي من أقدم موانئ البحر الأبيض المتوسط وكانت الباب الواسع المفتوح على فلسطين منه تأتي معظم البضائع الواردة إلى فلسطين، ومنه تُصدّر منتجات فلسطين سيما البرتقال والحمضيات.

وفي القرن الثامن عشر أتت جاليات من مصر وسكنت يافا واشتغلت بالتجارة فيها، وبعض هؤلاء أسس سوق البلابسة نسبة إلى مدينة بلبيس في مصر، وكذلك جاءت جماعة من مدينة (رشيد) المصرية واشتغلوا بالزراعة وسموا منطقة سكنهم (أبو كبير) بالنسبة إلى أبو كبير في مصر.

أما من سكن منهم المدينة فقد أطلق على حيهم اسم (أرشيد) نسبة إلى مدينة (رشيد) المصرية.

وفي القرن التاسع عشر نزحت من غزة وبيت دجن ونابلس وطولكرم وغيرها جماعات استقرت في يافا وأصبحوا من كبار تجار المدينة، كما أتى إليها عمال كثر

من مصر. حتى أصبح سكان يافا سنة ١٩٤٨م مائة وعشرين ألف نسمة بعد أن كان إثر الحرب الأولى لا يتعدى أربعين ألف نسمة.

كما كانت يافا مركز إشعاع للروح الوطنية والسياسية فقد أسس رجالات يافا إثر الحرب العالمية الأولى والاحتلال البريطاني لفلسطين «الجمعية الإسلامية المسيحية» وانتخبوا رئيساً لها السيد عمر البيطار ونائباً لها الشيخ راغب أبو السعود الدجاني وأعضاء منهم السادة يوسف عاشور، عيسى العيسى، وألفرد روك وغيرهم، وكان من أهداف الجمعية توعية الرأي العام العربي في فلسطين من أخطار السياسة البريطانية الرامية لتهويد فلسطين.

وقد ساعد صدور أهم الصحف الفلسطينية في يافا على دعم الحركة السياسية لا سيما من حيث التوجيه السياسي، أما الزعامة السياسية فكانت في مدينة القدس مقر حكومة الانتداب.

وهكذا كانت مدينة يافا مدينة الإشعاع في فلسطين وإننا لنرجو ونأمل أن يعيد التاريخ لها مكانتها العظيمة كما أعادها أكثر من مرة بعد هدمها في حروب وغزوات لم تقل بشاعة عما تتعرض له الآن.

صور الزواج عند العرب في الجاهلية

الزواج نظام اجتماعي وقانوني، تتمثل فيه بنية الجماعة وتتجلى فيه طبائعها وخصائصها، وهو يخضع في نشوئه لتقاليد وأعراف ترتبط بعقيدة الجماعة وسلوكها الاجتماعي والأخلاقي. ولما ظهر الإسلام كان أهم ما عني به بناء مجتمع جديد يقوم على أساس العقيدة الجديدة الداعية إلى توحيد الله تعالى. فكان لا بد أن يغير عادات وسلوكيات وأخلاقيات كان درج عليها المجتمع العربي الجاهلي قبل نزول الرسالة الإسلامي، وكان لا بد ضمن هذا المفهوم أن يضع للزواج نظاماً جديداً لإنشاء أسرة تكون عماداً قوياً للمجتمع الإسلامي، ومن أجل ذلك أبطل ما كان شائعاً في الجاهلية من أنواع الأنكحة التي تقوم على رابطة مؤقتة بين الرجل والمرأة، ورفع المرأة من المكانة الوضيعة التي كانت عليها في الجاهلية ونهض بها إلى المستوى الإنساني وكانت محرومة منه، ومنحها الشخصية القانونية وما يترتب عليها من حقوق.

وحتى يقف القارئ على حقيقة الأمر فإننا هنا سوف نتعرض لأنواع وصور الزواج التي كانت شائعة بين العرب قبل الإسلام، ومن ثم ما أبطله الإسلام منها وما أقره. وكما هو معروف أن الزواج يطلق على رابطة تقوم بين رجل وامرأة، ينظمها القانون أو العرف ويحل للرجل (الزوج) أن يطأ المرأة ليستولدها، وينشأ عن هذه الرابطة أسرة تترتب فيها حقوق وواجبات تتعلق بالزوجين والأولاد. ومن ثم استمرار الحياة من أجيال إلى أخرى تعقبها.

وفي الجاهلية كان الزواج هو الأصل ويسمى عندهم زاوج البعولة، وينشأ بالخطبة والمهر والعقد وقد أقره الإسلام ودعاه (الزواج الشرعي) وبه يحل النكاح وتتحقق غاية الزواج. على أن أنواعاً أخرى من الأنكحة وجدت في الجاهلية إلى جانب الزواج، كانت تتطلب للاستبضاع أو الاستمتاع، وقد أبطلها الإسلام ونهى عنها.

أنواع الأنكحة في الجاهلية

أولاً: الاستبضاع

كان الرجل في الجاهلية إذا أراد أن يكون له ولد نجيب أو شجاع طلب من زوجته أن تذهب إلى من اشتهر بذلك لتستبضع منه، فإذا باضعها وحملت منه اعتزلها زوجها حتى يبين حملها من ذلك الرجل، فإذا ولدت نُسب الولد إلى زوجها، وقد تفعل ذلك المرأة إذا كانت غير ذات زوج وكان أصحاب الجواري وتجار الرقيق يرغبون في استبضاعهم للحصول على نسل منهم يتسم بالقوة والجمال طمعاً بالربح والكسب. ومثل هذا الزواج عُرف عند بعض الشعوب القديمة نسبياً، فقد عُرف في بلاد الترك الأصلية وفي إسبارطة المغرمة بالرجال الأقوياء.

ثانياً: المضامدة

المضامدة من المضد وهو اللف والعصب، وكانت في الجاهلية تطلق على معاشرة المرأة لغير زوجها، وكانت تلجأ إليها نساء الجماعات الفقيرة زمن القحط، ويضطرها الجوع إلى دفع نسائها في المواسم التي تعقد فيها الأسواق لمضامدة رجل غني، تحبس المرأة نفسها عليه حتى إذا غنيت بالمال والطعام عادت إلى زوجها. وفي ذلك يقول شاعر جاهلي:

لا يُخلصُ الدهر، خليـل عشـرا
ذات الضـماد أو يـزور القـبرا
إني رأيـت الضـمد شـيئاً نكـرا

فهذا الشاعر يستنكر الضمد ويفسره بأن الجوع هو الدافع إليه ويقول بأن الرجل في سنة القحط لا يدوم على امرأته ولا تدوم المرأة على زوجها إلا قدر عشر ليال، ثم يضطره الجوع إلى دفعها للمضامدة لأنه إذا لم يفعل ذلك مات جوعاً.

وكان الرجل إذا ضامد إمرأة يأبى أن تضامد غيره معه:

تريـدين كيمـا تضـمديني وخالـداً وهل يجمع السيفان ويحك غمـداً

وقد يختار سيد في قومه امرأة لتضامده ويحبسها على نفسه ولا يجرؤ أحد على دعوتها إليه لمنعه صاحبها. وقد عرفت المضامدة عند اليونان القدامى.

وتعرف المضامدة باسم الحب الحر وهو الحب خارج نطاق الزواج، وكان شائعاً في كل العصور في الطبقات التي تسمى عليا أو مترفة والتي كثيراً ما يكون الزواج فيها قائماً على اعتبارات سياسية أو اقتصادية، لذلك تنطلق من قيودها لتشبع غرائزها من حب حر.

ثالثاً: المخادنة

المخادنة لغة المصاحبة، والخدن هو الصديق والصاحب وفي الجاهلية كانت تطلق على معاشرة رهط من الرجال لامرأة واحدة فإذا حملت ووضعت أرسلت إليهم فلا يستطيع أحد منهم أن يمتنع، فإذا اجتمعوا قالت لهم قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، وتسمي من أحبت باسمه، ويدعونها (المقسّمة) وقيل إن هذا إنما يكون حين يكون الولد ذكراً، أما إذا كانت أنثى فلا تفعل ذلك، لما عرف من كراهيتهم للبنات وخوفاً عليها من الوأد. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن هذا النوع من النكاح كان يجري بين الأخوة عند العرب في الجاهلية، يشتركون في المال وفي المرأة فلهم زوجة واحدة فإذا أراد أحدهم الاتصال بها وضع عصاه على باب الخيمة لتكون علامة على أن أحدهم في داخلها، وأما في الليل فتكون من نصيب الأخ الأكبر.

غير أن المعنى اللغوي للخدان كما ورد في القرآن الكريم ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥] وكما ورد كذلك في حديث السيدة عائشة وفي روايات الأخبار، لا يدل على أن الرجال الذين كانوا يعاشرون المرأة كانوا إخوة، وإنما يدل على أنهم رهط من عشيرة واحدة لا يتجاوز عددهم العشرة، اجتمعوا على امرأة واحدة اجتماع أزواج.

يؤيد ذلك أن المرأة كانت تلحق الولد الحاصل من معاشرتهم لها بمن تشاء منهم، فينتسب إليه ولا يقدر على الامتناع من ذلك، ولو أنهم كانوا إخوة لكان الولد ينسب إلى الأخ الأكبر، لأنها القاعدة العامة في مثل هذه العادة.

وزواج المرأة من عدة أزواج كان مألوفاً عند بعض الجماعات البدائية. وعادة زواج الأخوة من امرأة واحدة كانت مألوفة عند جماعات قبلية كثيرة نقل أخبارها الرحالون ومن هذه الجماعات قبائل التركستان وسيبريا وجبال هملايا وجنوب الهند وسيلان وفيتنام وبورما والفلبين والتيبت، وكذلك عند كثير من قبائل إفريقيا وأستراليا وغابات البرازيل. وفي بلاد اليونان كان الأزواج يقبلون أن يشترك معهم غيرهم في زوجاتهم وخاصة إخوتهم، وإن لم يكن أزواج المرأة إخوة تناوبوا المبيت عندها، وإذا حملت وولدت كانت هي التي تعين والد المولود، وعند جماعات أخرى ينسب الأولاد إلى جميع الأزواج فكل منهم أب له، وهو ابن لكل واحد فيهم. ويبدو أن المخادنة كانت نكاحاً متعدد الأزواج، وكانت تجري عند القبائل التي تقتل البنات لقلة مواردها أو كثرة حروبها، فيقل عدد البنات ويكثر عدد الذكور، فتكون المرأة زوجة لعدد منهم، فالعامل في نشوء هذا النوع من النكاح هو عامل اقتصادي بالدرجة الأولى. يدل على ذلك أن أحد الأزواج إذا ما أيسر اشترى زوجة واستقل بها عن الآخرين.

رابعاً: البغاء

يطلق البغاء على زنا المرأة، إذا كان لقاء أجر أي بدافع الكسب إذا دعت الحاجة إليه، ويعتبر كذلك حتى لو كان بغير أجر ولا حاجة، وفي كليهما يعاشر الرجل إمرأة غير زوجته، وقد كانت المضامدة والمخادنة في الجاهلية ضرباً من البغاء، لأنها كانت لقاء عوض دعت الحاجة إليه غير أنها تختلف عنه في أنها كانت في رجال محصورين. أما البغاء ففيه تستجيب البغي لكل طالب يدفع لها أجراً وكان تعاطي البغاء في الجاهلية مقصوراً على الإماء المجلوبات من بلاد أخرى أو المولدات، وكانت تقام لهن في المدن بيوتات تدعى (المواخير) وفي الأسواق الموسمية كسوق عكاظ وذي لمجاز ودومة الجندل كان لهن بيوت شعر وكان تجار الرقيق يدفعون إماءهم دفعاً لتعاطي البغاء ويفرضون على كل منهن ضريبة تؤديها إليهم من كسبها وسعيها، وكان البغاء يسمى المساعاة، وتسمى البغي (المساعية) وتسمى (المؤاجرة)، وتسمى أيضاً (القحبة).

وكانت تُرفع على بيوت البغايا رايات حمر تدل عليها فكن يدعين بأصحاب الرايات، وإذا ما حملت إحداهن ووضعت دعوا لها القافة وهو الذي يعرف بالآثار الخفية شبه الولد بأبيه والرجل بأخيه، فيلحقون ولدها بمن يشبه من دخل عليها، ويدعى ابنه، ولا يمتنع عن ذلك، ويكون استلحاق المولود بأبيه إذا كان من الذكور، أما إذا كان من الإناث أو كان ذكراً ولم يجرِ استلحاقه بأحد، فيكون لمالك الأمة الوالدة. وكان ملاّك الإماء يتاجرون بأولاد الإماء ويجنون من تجارتهم ربحاً كبيراً، وخاصة إذا كانت الأمة جميلة أو حملت من رجل جميل وسيم وجاء مولودها على مثالها أو مثاله.

هذا وقد عرفت بعض الشعوب القديمة ما سمي بالبغاء الديني أو المقدس، وكان يجري إرضاءً لآلهة إناث ولمرة واحدة في الحياة كما هو الحال في بابل والتي كانت

تجلس فيها المرأة لمرة واحدة في حياتها في فناء هيكل الآلهة (ميليتا) أي (عشتار) وأن تضاجع غريباً عنها خارج المعبد لتناول رضى الآلهة، ثم تعود بعد ذلك إلى منزلها، ولا يجوز لأحد بعد ذلك أن يقترب منها وإلا اعتبرت زانية تستحق العقاب. ويقول (هيرودوت) ومؤرخون آخرون أن هذه العادة انتقلت إلى آسيا الصغرى وبلاد اليونان، وكانت مخصوصةَ بالعذارى يمارسنها مع رجال غرباء قبل زواجهن لينلن بركة آلهات الخصب والحب والجمال. وكذا كان الحال في قبرص وأرمينيا وليديا وكورنث وغيرها من بلاد اليونان وآسيا الصغرى.

وهنالك نوع آخر حيث كانت تمارسه النساء لمدة طويلة مع كهان المعبد وزواره، وكان يجري إرضاءً للآلهة الذكور، ففي مصر القديمة كانت العادة أن تختار أجمل بنات الأسر الشريفة في مدينة (طيبة) العاصمة وتنذر نفسها للإله (آمون) وكانت تضاجع من تختاره من الرجال إرضاءً للإله. وإذا تقدمت بالسن خرجت من خدمته أي الإله (آمون) بمظاهر التشريف والتعظيم وتزوجت في أرقى الأوساط.

وفي الهند كانت تقوم على خدمة المعبد فتيات يرقصن أمام الآلهة وينشدن الأناشيد الدينية لإثارة الحماس الديني في المتعبدين، ويدعين راقصات المعبد، فإذا فرغن من الرقص والنشيد، فتحت لهن حجرات حول المعبد وفيها يضاجعن الكهان والزائرين إرضاء للآلهة، ويتحول المعبد إلى ماخور.

وفي بلاد كنعان كان من النساء من يهبن أنفسهن لخدمة المعبد ومضاجعة زواره وكهنته. وجاء في دائرة المعارف اليهودية أن عبادة (يهوه) قد دُنست في مملكة الشمال بممارسة البغاء، وقد جاء تحريمه في سفر التثنية.

ويفسر علماء الاجتماع ظاهرة البغاء الديني، بأن مضاجعة الغريب تقوم على الاعتقاد بأنه قد يكون ملكاً على صورة إنسان وأن بركته تفيض على المرأة إذا ما ضاجعها.

خامساً: ومن أنواع الزواج عند عرب الجاهلية ما كان يسمى – نكاح الضيزن، أو وراثة النكاح

كان الرجل إذا مات وترك زوجة وكان له أولاد من غيرها، ورث نكاحها أكبر أولاده في جملة من يرث من مال أبيه فإذا أعرض عنها انتقل حقه إلى الذي يليه، فتصبح زوجة لمن وقعت في نصيبه من أولاد زوجها من غير مهر ولا عقد وإذا لم يكن للميت ولد يرث نكاحها، انتقل الحق إلى أقرب أقرباء الميت، وكان من حق الولد الذي آلت إليه زوجة أبيه أن يمنعها من الزواج، إلا إذا أرضته بمال، وقد أطلق على هذا الوارث اسم (الضيزن) وإذا تزوج ابن الميت زوجة أبيه كان أولاده منها إخوته، وفي ذلك يقول عمرو بن معد كرب، وكان قد تزوج في الجاهلية امرأة أبيه فكرهته، يقول:

فلولا إخوتي وبنيّ منها ملأت لها بذي شطب يميني

وقد كان هذا النوع من الزواج شائعاً في بلاد فارس فانتقل إلى العرب، وكان عندهم أي العرب نكاحاً مذموماً يدعونه (نكاح المقت) والمولود منه (مقيت) وقد عيّر أوس بن حجر الكندي ثلاثة إخوة من بني قيس تناوبوا على امرأة أبيهم فقال فيهم:

والفارسية فيهم غير منكرة فكلهم لأبيهم ضيزن سلف

والضيزن الشريك، ويطلق في الجاهلية على الذي يزاحم أباه في امرأته. وعُرف هذا النوع من الزواج عند بعض الشعوب كالهنود واليهود واليونان والرومان وغيرهم، والفكرة تقوم على الملكية أو العبادة.

سادساً: نكاح الشغار

هو أن يزوج الرجل ابنته أو أخته، على أن يزوجه الآخر ابنته أو أخته، ليس بينهما مهر، فيقول أحدهما للآخر، زوجني ابنتك أو أختك، على أن أزوجك ابنتي أو أختي، وتكون كل واحدة منهن مهر للأخرى، ويطلق على هذا النوع من الزواج الشغار لخلوه من المهر.

وكان يشترط فيه أن يكون الرجل المشاغر ولي المرأة التي يشاغر عليها، كأبيها أو أخيها. وكان هذا النوع من الزواج إلى عهد قريب منتشر في البادية والأرياف العربية ويسمى زواج (البدل).

سابعاً: نكاح البدل أو تبادل الزوجات

وهو يختلف عن النوع السابق من الزواج والمسمى شعبياً بالبدل. هذا الزواج معناه أن الرجل كان في الجاهلية يقول للرجل إنزل علي عن امرأتك وأن أنزل لك عن امرأتي، أو بادلني امرأتك بامرأتي ويسمى عندهم نكاح (البدل).

وعادةً تبادل الزوجات معروفة عند بعض القبائل الإفريقية وسكان جزر هاواي وفي مناطق أخرى من العالم.

وعند بعض الشعوب يجري تبادل الزوجات أيام الأعياد أو في مواسم معينة، في احتفالات دينية، ويعتقدون أن ذلك يقيهم من الكوارث والأمراض.

لا بل كثيراً ما يقال الآن بأن هذه العادة منتشرة في بعض مناطق من العالم لاسيما لدى الطبقات الغنية المترفة، وفي بعض المجتمعات الأوروبية والأمريكية وحتى العربية والله أعلم.

ثامناً: نكاح المسبيات والمخطوفات

كان العرب إذا غزوا قوماً نهبوا أموالهم وأسروا رجالهم وسبوا نساءهم، فكانوا يتخذون من الرجال عبيداً ومن النساء سراري وإماء، وكانوا يقتسمون النساء بالسهام. فمن وقعت في سهمه امرأة أخذها وحل له الاستمتاع بها لأنه ملكها بالسبي، وتسمى (الأخيذة) ويسمى أولادها أولاد (الأخيذة) أو أولاد (السبية) ويمكن لمن وقعت في سهمه أن يبيعها إذا لم يجد من يفتديها من قومها وكان سبي النساء مذلة وعاراً على الرجال، لذلك كانوا يستبسلون في القتال حتى لا يُغلبوا وتسبى نساؤهم وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم في معلقته:

على آثارنا بيض حسان محاذر أن تقسم أو تهونا
يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنونا
إذا لم نحمهن فلا بقينا لسبي بعدهن ولا حيينا

ومن السبايا من كن يحللن مقاماً كريماً عند أزواجهن، وكان أولادهن يعرفون بالنجابة والكرم لأنهن غريبات.

وعادةً سبي النساء بالحروب وتزوجهن، ظاهرة شائعة عند كثير من الجماعات القبلية وفي أنحاء مختلفة من العالم وليس للغزو من غرض عند بعضهم سوى سبي النساء وتزوجهن.

أما الخطف فيقوم به شخص يعتمد على قوته فيخطف امرأة ويتزوجها، وفي الجاهلية كان الرجل القوي إذا أعجبته امرأة خطفها وتزوجها، وإنما يكون ذلك في القبائل الضعيفة، أما القبائل ذات البأس والقوة فلا يجرؤ أحد مهما بلغ من القوة أن يفعل ذلك. والمرأة السبية مهما لقيت من كرم خاطفها ومحبته فإن شعورها بالهوان يلازمها وتعمل مختلف الحيل للعودة إلى أهلها.

تاسعاً: الزنا

والزنا كما هو معروف وطء الرجل امرأة لا تحل له بقصد الاستمتاع، ويسمى سفاحاً، لأنه بمنزلة الماء المسفوح بلا حرمة، ويعتبر الزنا من أقدم الظواهر الاجتماعية التي رافقت البشرية، وتختلف النظرة إليه باختلاف الجماعات واختلاف مفاهيمها الأخلاقية المستمدة من طبائعها وتقاليدها وهو مباح عند بعضها وإساءة منتفرة عند بعضها الآخر وعند البعض جريمة فاحشة.

ويشمل الزنا أنكحة الجاهلية وكل وطء آخر لا يتم بعقد وصداق، وتدل الأخبار أن النساء في بعض القبائل كن يزنين إذا غاب أزواجهن. وقد يكون زنا الزوجة بعلم زوجها، وفي ذلك دليل من اللغة فقد استخدمت كلمات مثل (الدياثة) و (المذاء) وهي تعني الرجل الذي تؤتى أهله بعلمه، وقد ورد في لسان العرب حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (تحرم الجنة على الديوث) ومثلها كلمة (الصقور) وهو القواد على حرمه ومثلها أيضاً القرنان وهو الذي يقرن مع زوجته رجلاً آخر. وكان معظم الرجال من العرب يفتخر بأنه يزني بالكثير من النساء دون أن يجرؤ أحد على وطء امرأته.

فهذا امرئ القيس يقول:

ألم ترني أصبي على المـرء عرسُـه   وامنع عرسي أن يزنّ بهـا الخـالي

والخالي هو العزب الذي لا زوجة له والجمع أخلاء.

عاشراً: الزواج المؤقت أو زواج المتعة

الأصل في الزواج أن يكون غير محدود بمدة، ولو أن من الممكن حل عقدته بالطلاق أو بموت أحد الزوجين، وقد يُعقد لمدة محدودة فيكون موقوتاً، وتحل عقدته بانتهاء المدة المتفق عليها بين الطرفين، وكان هذا النوع من الزواج معروفاً في الجاهلية، وكان غالباً ما يعقده التجار في أسفارهم والغزاة في غزواتهم، ويسمى زواج المتعة لأن القصد منه الاستمتاع بالمرأة مدة من الزمن، فإذا انقضت تخلى الرجل عن المرأة وغادر موطنها، ولذلك كان الأولاد الناتجون منه ينسبون إلى المرأة أو إلى عشيرتها. وقد عُرف هذا النوع من الزواج عند كثير من الجماعات وفي مناطق مختلفة من العالم.

ومثل هذا الزواج أو قريب منه ما يسمى زواج التجربة أو زواج الاختبار وكان معروفاً عند بعض الشعوب. حيث يجتمع الرجال والنساء ويختار كل رجل امرأة يساكنها ويعيش معها مدة سنة، وإذا انتهت المدة إما أن يفترقا وإما أن يعقدا زواجهما حسب ما جرى بينهما من انسجام، وكذلك يتم فيه تجربة إخصاب المرأة. وهذا النوع من الزواج أضحى معروفاً في بلاد الغرب، فلكل من الزوجين الحرية في مفارقة الآخر في أي وقت يشاء.

هذا وقد حرم الإسلام أنكحة الجاهلية وحرمها واستبقى منها نكاح البعولة وهو النكاح الشرعي القائم على الخطبة والمهر والعقد بالشروط التي عينها الإسلام. وكان أول ما حرم الإسلام الزنا. ثم حرم البغاء، وكان يتعاطاه الإماء ومنهن من كان مالكها يكرهها عليه لقاء ضريبة تدفعها إليه من كسبها، قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النور: ٣٣].

أما زواج المتعة فلا زال الخلاف بشأنه قائماً بين السنة والشيعة، السنة تحرمه قطعاً والشيعة يحلونه وإن كان البعض منهم يرى غير ذلك.

صور من مظاهر الحياة في
إستنبول عاصمة الدولة العثمانية

الفتح العثماني

تم فتح القسطنطينية يوم الثلاثاء مايو ١٤٥٣م وكان ذلك على يد السلطان محمد الثاني بن مراد الثاني والذي لقب باسم محمد الفاتح، وكان سابع سلاطين آل عثمان، تولى الحكم وعمره ٢٢ عاماً وحكم ثلاثين عاماً (١٤٥١ – ١٤٨١م).

ونظراً للدور الكبير الذي لعبته هذه المدينة في التاريخ الإسلامي والعربي، فإننا سوف نلتقط ثلاث صور منها لتكون شاهدة على وصف ما تميزت به من جمال ومكانة تليق بمدن مثلها. ومن هذه الصور قصيدة لشاعر عاش في القرن السابع عشر وفيها يصف مدينة استنبول ثم قصيدة أخرى لشاعر تركي آخر يرثي بها السلطان سليمان القانوني ويذكر بعدم خلود العظمة في هذه الدنيا الفانية. أما الصورة الثالثة فإنها وصف لحال المدينة بعد دخول الأتراك العثمانيين إليها فاتحين.

وعندما دخل السلطان محمد الفاتح المدينة كانت عوامل الخراب والانحطاط قد لعبت دوراً في أنحائها ويقال بأن الناجين الخمسين ألفاً من سكانها الباقين أصبحوا أرقاء للمنتصرين في المعركة، وأخذوا طريقهم إلى أدرنة، إلى أسواق الرقيق، في العاصمة التركية؛ وتركت القسطنطينية خالية مقفرة. ولكن الفاتحين والأسياد الجدد لم يكونوا قانعين بحكم مدينة للخرائب والأماكن الخالية

يقول مدون السجل المجاهد عاشق باشا زاده:

عندما استولى السلطان محمد خان الغازي على استانبول جعل سليمان بك قائداً للمدينة ثم أرسل رجاله إلى جميع البلاد ليعلنوا: «ليأت كل من يرغب

وليصبحوا مالكين للدور، والكروم، والبساتين في إستنبول» فأعطوها لجميع من أتوا إليها.

وعلى أي حال، فإن هذا لم يكن كافياً لإسكان المدينة من جديد. ولذلك أمر السلطان هذه المرة بإرسال العائلات الغنية والفقيرة على السواء من كل مقاطعة (إلى إستنبول) وكان رجال السلطان قد أُرسلوا بأوامر إلى القضاة والولاة في كل مقاطعة، وأرغم هؤلاء حسب أوامر السلطان كثيراً من العائلات وأرسلوها إلى إستنبول. ولقد أعطيت لهؤلاء القادمين الجدد المنازل أيضاً. وبدأت المدينة في هذه المرة تعمّر من جديد.

وشرع هؤلاء في بناء المساجد كما أنشأ بعضهم زوايا الدراوشة، وبعضهم البيوت لأنفسهم، و (هكذا) عادت المدينة إلى حالتها الأولى.

وأنشأ السلطان ثماني مدارس مع جامع عظيم في وسطها، وفي مواجهة الجامع دار إقامة للفقراء، ومستشفى في جانبيّ المدارس الثمانية، وثمانية مباني أخرى لإقامة الطلاب وبالإضافة إلى ذلك بنى ضريحاً جميلاً فوق قبر (أبي أيوب الأنصاري المقدس)، ومعه دار الإقامة للفقراء، ومدرسة وجامعاً بجواره.

إنه وصف عاشق باشا زاده لسياسة محمد الفاتح الإعمارية، تؤيدها مصادر ووثائق كثيرة أخرى، وإنها لم تكن مقصورة على الأتراك أو المسلمين. فقد سمح لليونانيين وغيرهم من المسيحيين وفي بعض الأحوال شجع هؤلاء ليتوطنوا في المدينة، كما دُعي اليهود أو وجهوا من البلاد العثمانية إلى إستنبول، وغلطة وغيرها.

وتعطينا وثيقة من سنة ١٤٧٨م، التي تحتوي على كشف للأسر الموجودة في إستنبول وغلطة، بعض المجال لتقدير التقدم الذي تمّ في هذه الفترة.

إنها تسجل ٨,٩٥١ أسرة مسلمة، ٣,١٥١ يونانية، و١,٦٤٧ يهودية، و٢٦٧ أسرة من شبه جزيرة القرم، و٣٧٢ أسرة أرمنية، و ٣٨٤ قرمنيلة، و ٣١ أسرة من النور في إستنبول، و ١٥٣٥ أسرة مسلمة، و ٥٩٢ يونانية، و ٢٣٢ فرنجية، و ١٦٢ أسرة أرمنية، في غلطة – ويحتمل أن مجموع السكان كان بين ٧٠ و ٨٠ ألف نسمة، وعُشر هؤلاء كانوا يسكنون في الحيّ المسيحي «غلطة» والبقية في مدينة إستنبول، وارتفع عدد السكان في عهد سليمان القانوني إلى ما لا يقل عن نصف مليون نسمة، ويقتبس رحالة إنجليزي، وهو (جان سيدرسون) في ١٥٩٣م من مصدر محلي هذه الأعداد (أعداد الأسر) فإن هذا التقدير يبدو غير دقيق ومعنى ذلك أنه قدر عدد أفراد كل أسرة بين ٤ و ٥ أشخاص وهو تقدير ينطبق على الوضع الاجتماعي الحالي في أوروبا، ولا ينطبق على المجتمع الإسلامي الشرقي في القرون الوسطى، وذلك إذا نظرنا بعين الاعتبار تعدد الزوجات. فعلى هذا إذا قدرنا متوسط عدد أفراد الأسرة بين ٧ و ٨ أشخاص كان عدد السكان حوالي ١٤٠ ألف نسمة.

وكذلك يقال بالنسبة لتقديره عدد السكان في عهد سليمان، فحسب تقدير (ساندرسن) الدقيق كان عدد سكان العاصمة أكثر من مليون وربع مليون نسمة في ١٥٩٣م. فهل من المعقول أن يرتفع عدد السكان في ظرف ٢٧ سنة (توفي سليمان القانوني في ١٥٦٦م) إلى ثلاثة أرباع مليون نسمة، والدولة في عهد سليمان في قمة الازدهار السياسي والاقتصادي. ولذلك فنحن نرى أن عددهم لابد أن يكون زهاء مليون نسمة.

كانت إستنبول العثمانية مدينة عظيمة مزدهرة بسكانها المتنوعين النشطين، وكان معظم اليونانيين الذين كانوا غادروا المدينة قبيل الفتح قد عادوا إليها إلا القليل منهم، وجاء الآخرون من جميع أنحاء الإمبراطورية ليشاركوهم. وشكل

هؤلاء جالية غنية تحت زعامة بطريركهم. وقد ازداد عدد اليهود أيضاً، والذين كانوا موجودين من قبل في العاصمة البيزنطية. وازداد هؤلاء في إستنبول منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي بصورة خاصة إذ جاء الكثيرون منهم من إسبانيا والبرتغال، والبلاد الأوروبية الأخرى باحثين عن مكان اللجوء إزاء اضطهاد المسيحيين لهم إلى حكم السلاطين العثمانيين المتسامح، وتمتع اليهود والمسيحيون على السواء بحرية العبادة في إستنبول في ظل واقع التاريخ الإسلامي والعثماني بهذا الخصوص، ومُنحوا قدراً كبيراً من الحرية القومية (الطائفية) ولقد أسس الإيطاليون، وفيما بعد التجار الأوروبيون الآخرون، متاجرهم، ومكاتبهم، ومنازلهم في الحيّ الأوروبي على الشاطئ الشرقي للقرن الذهبي. وكان أهم عناصر السكان الأغلبية الإسلامية الناطقة بالتركية، المتزايدة باستمرار بواسطة الإقبال على الإسلام والانصهار في البوتقة الإسلامية، وفوق ذلك كله عن طريق الاستيطان.

وهؤلاء الأتراك الفاتحين لم يكونوا متوحشين بدائيين كما يصورهم بعض كتاب الغرب. بل كانوا ورثة حضارة قديمة ورفيعة هي حضارة الإسلام القديمة، والتي أضاف إليها الأتراك قدراً غير يسير من جهدهم، فكان الفن المعماري السلجوقي والعثماني يمتاز بتقليد رفيع قديم وكان من أهم المعالم التي استُحدثت في العهد العثماني الأول إضافة للتعديلات التي أجريت على آيا صوفيا وبناء المئذنة التي تُعلن تحولها إلى مسجد في عهد محمد الفاتح والتي أضاف إليها سليم الثاني مئذنتين أخريين وأكمل ابنه مراد الثالث أربع مآذن، كما قام بترميم واسع النطاق وتجديد في جميع البناء.

من أهم المعالم الجديدة كان القصر الذي شيده محمد الفاتح، ثم الجامع المعروف باسمه مع مجموعة من المباني التعليمية وغيرها الملحقة بها. حيث أن هذا الجامع لم يكن مكاناً للعبادة فقط ولكنه كان مركزاً للتعليم العالي يشبه المدينة

الجامعية. وبعد ذلك تنافس السلاطين والوزراء والآخرون من رجال الثروة والتقى في تشييد الجوامع والمدارس وحبس (الوقوف) لها.

وأسهم السلاطين الثلاثة الأول بعد الفتح في تطوير العاصمة وتنميتها، وبلغت المدينة قمتها من المجد في عهد السلطان سليمان القانوني. فكون هذه المدينة أصبحت مركزاً لدولة واسعة غنية مترامية الأطراف، فإنها كانت تهيئ الوسائل والفرص للفنانين والكتاب والعلماء والجنود ورجال الحكم والتجار وغيرهم. فهرع كل هؤلاء إلى العاصمة السلطانية الجديدة من جميع أنحاء الدولة الواسعة الأرجاء، بل من بلاد وراء حدودها.

إن أفخم العمارات التي شيدها الأتراك في إستنبول كانت تلك التي بنيت للأغراض الدينية، كالجوامع والمدارس وزوايا الدراوشة الصوفية، فاستعملوا فيها أحسن مواد البناء وأروع المهارة الفنية. وأما المباني التي أنشئت للأغراض الدنيوية حتى القصور فكانت كثيراً ما تنهدم بسبب الحوادث المختلفة، أو تهدم عن قصد وتنشأ مكانها مبان أخرى للاستعمال العمومي، وهي أكثر متانة في البناء، وأبقى على الزمن ومنها على سبيل المثال، الأسواق الموقوفة حيث دكاكين التجار ومخازنهم والخانات الكبيرة أو الفنادق، وهي عبارة عن حجرات السكن وفي نفس الوقت المتاجر والأسواق، فيستطيع التجار الزائرون أن ينزلوا بها، ويخزنوا بضائعهم فيها، ويعرضوها للبيع، ومنها الحمامات والتي عد منها أحد الزوار ١٣٠ حماماً في إستنبول في القرن الثامن عشر، والمستشفيات وملاجئ الفقراء والرباطات ودور الخير، والمدارس والكليات والمكتبات. وكانت منازل الأغنياء والوجهاء على ثلاثة أنماط. فكان المنزل المسمى بـ «قَوْنق» ومعناه حسب الاستعمال التركي القديم المحطة أو محل الوقوف يستعمل للمنازل القائمة في المدينة. وهي تشمل استراحة الوجهاء الكبار كما تشمل مساكنهم. وكانت المنازل المسماة بـ «يالي» و «كشك»

من المساكن الريفية المبنية من الخشب، الأول فيلا أو منزل كبير على البحر، كشواطئ البوسفور، والثاني مسكن صيفي مبني وسط البساتين.

أما أهم وصف يمكن أن يقدم للمدينة فهو وصف النقابات المختلفة للمهن اليدوية الموجودة إضافة للمحلات التجارية.

فوصف نقابات إستنبول يعطي صورة حية زاهية لحياة المدينة المختلفة الألوان. وتنقسم هذه النقابات إلى ٥٧ قسماً وتحتوي على ألف نقابة. يشتمل القسم الأول على المعلمين وضباط الشرطة، والوصفاء في البلاط وكناسي الشوارع وحفاري القبور وجنود الطلائع وعمال الألغام والحجارين.

ويمر الحفارون مع معاولهم والحجارون بفؤوسهم وهم يحملون معهم غيرها من أدواتهم كالمجارف والبلطات وغيرها ومهمتهم تسوية الأراضي التي يمكن أن تعوق سير الجيش وتهديم المباني القديمة وإزالتها.

أما الطائفة الثانية تحت الرئاسة العامة لرئيس الشرطة فتشمل نقابات الجلادين وجنود الشرطة ورجال الشنق والسراق وقطاع الطرق والسائسين وسماسرة الخيول والخفراء، ويعقب أحد المؤرخين (أولياء جلبي) على نقابات السرّاق وغيرهم من الأفراد السفلة الذين لا حصر لهم بالكلمات الآتية:

إنهم لا يظهرون في الاستعراضات العامة، وغير معروفين فرداً فرداً، ولكن السرّاق يدفعون ضريبة لضابطين من الشرطة (الصوباشي وعسس باشي) ويجدون قوتهم باختلاطهم في زحام المدينة وبغشهم للأجانب.

وكانت النقابات تقيم مهرجاناً عاماً كل سنة:

يبدأ الموكب السلطاني بالسير عند الفجر ويستمر طوال النهار حتى غروب الشمس، ويفتتح باستعراض جنود الجاووشية والاي جاووش أي جاووشية

الاستعراض وهم حوالي مئتي ألف رجل من المشاة كلهم بكامل السلاح، وعندما تصل هذه النقابات إلى تذكار خسرو باشا يعرض رؤساء كل نقابة أنفسهم أمام دار قاضي إستنبول، لأنه هو الذي يملك سلطة تفتيش الموازين والمكاييل. ويحتم القانون أن تعرض جميع هذه النقابات البضائع أو المواد الاستهلاكية التي كانوا عرضوها في الاستعراض العام أمام ملاّ (أو قاضي) المدينة، ولكن بعضها تُختلس في هذه المناسبة. بعد ذلك يعود التجار كلٌ إلى داره. وتنقطع كافة الأعمال التجارية والصناعية بمناسبة هذا المهرجان لمدة ثلاثة أيام. حيث يملأ المدينة الضجيج بما يعجز عنه الوصف.

ذكر بعض النقابات التي تشترك بالاستعراض:

تجار لحم البقر المجفف ستمائة، وهم تجار أغنياء معظمهم نصارى من مولدافيا وبعض دول البلقان. إنهم يحضرون في يوم (كاسيم) وهو عيد للمسيحيين ثلاثمئة ألف ثور للاستهلاك في إستنبول، ويجعلون منها اللحم المجفف المملح (بسطرمة) ويبيعون مواشيهم خارج (بدى قوله) حيث يبقونها في واد كبير. ويدفعون الرسوم لمفتشي اللحوم المجففة. إنها سوق للحم تستمر أربعون يوماً.

تجار المشروبات ٥٠٠ رجل، ولهم ٣٠٠ محل تجاري (دكان) وهم يزينون دكاكينهم بآلاف الأكواب والقصعات الصينية والفخارية اللامعة، الممتلئة بالمشروبات المصنوعة من الورد والليمون وزهر نيلوفر والتمر هندي والعنب. وهم في سيرهم بالاستعراض يقدمون مشروباتهم للمتفرجين.

وهنالك تجار الثلج والجليد وهؤلاء من سكان جبال قاطرلي من سلسلة جبال طوروس. وهم يحملون دائماً الثلج والجليد والماء الحلو من هذه الجبال ويأخذونها إلى المطبخ السلطاني ودار الحلويات ومنازل الحريم ودور الوزير الأعظم وكبار

الشخصيات الأخرى. وكانت هذه المياه تحمل من الجبال إلى البحر حيث تُنقل بالسفن بعد ذلك إلى المدينة بواسطة ٣٠٠ من البحارة.

ويشارك في الاستعراض أيضاً تجار الرقيق وعددهم ٢٠٠٠ رجل ويلبس هؤلاء أحسن ثيابهم يوم الاستعراض، كما يلبسها العبيد الذين جيئ بهم من عدة بلدان كغنيمة حربية ويمرون بهم أمام السلطان في الكشك السلطاني، ويأخذ السلطان عادةً مئة من ألمع عبيد الكرج، وأباظة وجركسي للقصر الإمبراطوري، ويجزل لأصحابهم الصلات العظيمة.

وينتهي طابورهم بمفتشي الرقيق الذين تسير أمامهم مئات من الجواري الحسان وهن يلبسن أغلى الثياب، ويتبعهن آلاف الغلمان ذوي الوجوه الصبيحة والعيون البراقة، يسيرون أمام المفتش وحوله.

وهنالك رجال الختم الذين يختمون علامة التوقيع السلطانية على جميع أواني الفضة. وتمر أيضاً فئات نقابات الخياطين والدباغين وصانعوا الأحذية ثم صانعوا العرق وعددهم ٣٠٠ شخص ولهم مئة دكان.

ولعبت هذه النقابات دوراً هاماً في حياة المدينة الاجتماعية والتجارية، وكانت قريبة الشبه لحد ما بالحياة المدنية والتجارية في المدن الإغريقية الرومانية في العصور القديمة وكذلك حياة مدن الغرب.

وكان المال يسيل في المدينة من الضرائب وأموال الجزية من الولايات ودخل الإقطاعات والمنح والضياع وأرباع التجارة والمناصب الحكومية. وكان ثمة رجال أغنياء يسكنون في قصور فخمة، منهم رجال سلطة ووظائف حكومية كبيرة وتجار أغنياء ورجال أعمال لهم أعمال ومشاريع تجارية واسعة النطاق.

فيما يلي قصيدة للشاعر التركي محمد عبد الباقي والذي عاش بين عاميْ

٩٣٣ – ١٠٠٨هـ / ١٥٢٦ – ١٦٠٠م واشتغل في منصب القضاء في مكة المكرمة وإستنبول وقاضي عسكر الأناضول.

سنة ١٥٥٥م قدم باقي قصيدة للسلطان سليمان القانوني والذي كان قد عاد آنذاك من حملته على فارس.

ثم كان موت سليمان صدمة أليمة له فرثاه في قصيدة رثائية شهيرة تعتبر من أروع آثاره الشعرية. حيث يذكر السامع أو القارئ بعدم خلود العظمة في هذه الدنيا الفانية. وملحاً عليه أن يتأمل ما وقع لسليمان العظيم، يقول:

يا أيها الذي تعلق رجله في شباك الشهرة والمجد

حتى متى تطمع في متاع هذه الدنيا التي لا قرار لها

فكّر في ذلك اليوم الذي سينقضي فيه ربيع الحياة

ويتحول الخد الورديّ اللون إلى ورقة الخريف

ويكون التراب مكان قرارك الأخير كثُمالة الكأس

وستحطم حجرة من يد الدهر كأس حياتك

إن الإنسان الحق هو الذي قلبه صافٍ كالمرآة

فإذا كنت إنساناً فلماذا تُضمر شراسة النمر في صدرك

حتى متى يُغمض رقود الإهمال العين البصيرة

ألا تعتبر بما وقع للسلطان، أسد المعامع

ذلك الفارس العظيم في دنيا السعادة

الذي كانت ساحة العالم كله ضيقة لجواده السبّاق

والذي طأطأ كفار المجر رؤوسهم لحدّ سيفه

وأعجب الفرنج بضربة حُسامه

فقد وضع وجهه للأرض بنعومة كأوراق الورد النديّة

وخبّأه خازن الدهر في خزينته كجوهرة غالية

قد أسفر الصباح، ألا يصحو سيد العالم من سباته

ألا يُبدي طلعته من شرفة قصره الذي يناطح السماء

عيوننا شاخصة إلى الطريق، فلم تأتِ كلمة

من الموضع الذي نُثر به التراب على عتبة عظمته

بُهت لون خدّه، إنه ينام جاف الشفاه

كوردة سقطت بعيدة عن غصنها النديّ

يخفي ملك السماء أحياناً نفسه وراء حجب الغيوم

ولكنه حينما يتذكر عظمتك يتصبب عرقاً من الخجل

من وراء تلك الغيوم

دعائي أن كل من لا يبكي عليك

شباباً وشيوخاً، دفن الله دموعهم تحت التراب

فلتحترق الشمس ولتلتهب بنار فراقك

وحزناً عليك، ولتلبس سواداً من أثمال السحاب

الباكية دمعاً على ذكر مجدك

وليسقط حسامك من غمده في التراب

ليشقّ القلم جيبه أسفاً عليك

ولتمزّق الراية ثيابه في المأتم والنحيب

وهذا الشاعر التركي نابي أحد شعراء القرن السابع عشر يصف مدينة إستنبول قائلاً:

ليس ثمة مكان تجد فيه المعرفة والعلم
ترحيباً حاراً كما تجد في إستنبول
لم تجن أية مدينة ثمار حديقة الفن
كما جنتها مدينة إستنبول
رعى الله إستنبول وازدهارها
فإنها مسرح أعظم الإنجازات
وموطن ومدرسة مشاهير الرجال
وروضة التربية لعديد من الأمم
جميع أصحاب الكفاءات كائناً ما كان
يجدون حظوظهم من الشهرة في إستنبول
لكل مهارة فيها قيمة
ولكل موهبة فيها تقدير
فيها مناصب المجد والشرف
وأي مكان آخر فالحياة فيه ضياع
لتدر الأفلاك حول الأرض كما تشاء
فإنها لن تجد مدينة مثل إستنبول
الرسم والكتابة والتصوير والترصيع
يكسبن الجمال والبهاء في إستنبول
ومهما كانت ثمة أنواع للفنون

فكلها تحظى بالتألق والازدهار في إستنبول
وجمالها الأخاذ النادر المثال
احتضنها البحر في عناق مستديم
الفنون والحرف بأسرها
يجدن الرفعة والمجد في إستنبول

ويستمر نابي في الحديث عن المتع والتسلية البريئة في البحر حول المدينة:

هذا، وما أمتع وأبهج
الإبحار على سطح البحر
واعتلاء الناس العرش مثل سليمان (النبي)
والتحكم في البحر والهواء
متكئين إلى المساند
ناظرين في مرآة من الفضة
وحيث ترتفع في تنسق بديع
أصوات الموسيقى وأناشيد السرور
آيا صوفيا، معجزة الدهور!
قبته، هي الثامن من دوائر الأفلاك
لم نر له نظيراً على وجه البسيطة
والحق ليس له نظير، وإذا كان فلعله في الجنة فقط
عتبة السلطنة العثمانية
وبهجة الحكم السلطاني
في هذا المكان الواهب الحياة
كل ما تتمناه قريب المنال

كل ما يدور في خلدك من أشياء
بك، باشا، أفندي وحلبي
صفوتهم المختارة ها هنا
الجنود، والعلماء والنبلاء
ها هنا نوابغهم جميعاً
هنا كل معضلة العالم تجد الحل
وهنا كل مسعى ينال الهدف
لو لم يكن الأنواع من الأمراض
ولو لم يكن للطاعون الملعون
فمن يرغب في أن يترك هذا المكان الشبيه بالجنة
وهذه المدينة المبعدة الأحزان؟
ولو كان جوّه أكثر اعتدالاً
فمن الذي يتجه إلى أي مكان آخر؟
وعلى الرغم من ذلك:
ليس ثمة بلد أو مدينة مثلها
وليس ثمة موضع للعيش يضارعها

المراجع

١- هنا برلين حي العرب، مذكرات يونس بحري – يونس بحري.
٢- وصف مجاعة أيام الحكم الفاطمي – إبراهيم أيوب.
٣- الرحلة العربية الحديثة إلى أوربا والولايات المتحدة- د. يوسف شويري.
٤- فلسطين في نهاية الحكم العثماني عكا تراث وذكريات – يوسف أحمد شبل – متى سمعان.
٥- طرق الحج في شرق الأردن في العصور الإسلامية المختلفة- د. صالح درادكة.
٦- ودخلت الخيل الأزهر – محمد جلال كشك.
٧- المجاعة في بلاد الشام خلال الحرب الأولى- ذ. قتيبة الشهابي.
٨- ألف يوم مع الحاج أمين- زهير المارديني.
٩- المملكة الحجازية ١٩١٥- ١٩٢٤- راندال بيكر الملول الهاشميون جيمس موريس.
١٠- صور من طبيعة الحياة في شرق الأردن ١٩٢١- ١٩٢٣ – خير الدين الزركلي.
١١- بعض مظاهر الحياة في فلسطين ما قبل الشتات- د. يونس هيكل.
١٢- استانبول – بروفيسور برنارد لويس.
مذكرات والدي السلطان عبد الحميد الأميرة عائشة عثمان أوغلي ابنة السلطان عبد الحميد الثاني.
١٣- صور الزواج عند العرب في الجاهلية- كتاب عالم المعرفة العدد ١٨١.
١٤- هكذا تكلم (لافال)- رمضان لاوند.

الفهرس